غرفُ القلبِ المنسيَّة

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٨/٢٠٠٠٥

بطاقة فهرسة

السعيطي، مصطفى

غرف القلب المنسية: رواية/ مصطفى السعيطي، ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٨

٢٨٨ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك: ٨ - ١٥٨-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص العربية

أ - العنوان

٨١٣

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر - القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

مروة صلاح

التدقيق اللغوي

خالد رجب عواد

التنسيق الداخلي

أحمد البسيوني

غرفُ القلبِ المنسيَّة

تأليف:
مصطفى السعيطي

إهـداء

إلى :

(فتح الله) .. الأسئلة التي لا تنتهي ولا تنتظر إجابات .. النظرة الساذجة للحياة من حوله .. الرجل الذي كبُرت سنواته وظل يعيشُ بعقل الطفل ..فأضحى ندرةً نادرة ..

إلى :

(فجرية) .. التي انشطر فؤادُها قلبين .. قلبٍ يشفق عليه وقلبٍ يدقُّ من أجله ..

إليهما :

الحكاية المشتركة بيننا التي جمعتنا حولها معاً عمراً زاهياً .. نتعجب منها ونُعجب بها..

(المؤلف) ..

- "يأتينا الحب في ومضة .. ويذهب عنا في غمضة .. وتبقى بينهما فجيعة"

(الروائي الليبي / عبد الله القويري)

- "يحسب المرء نفسه مستقراً تماماً .. ثم تمر به يوماً امرأة "

(الروائي الفرنسي / بول بورجيه)

- "كلمة الحب أخشى على من يتلاعب بها وعلى من يصدقها "

(الروائي المغربي / محمد شكري)

- "الحب إغداقٌ لا إنفاق .. لأن مقياسَه القلبُ لا الجيب "

(الروائية الجزائرية / أحلام مستغانمي)

- "يا انا يا انت .. يا نا وانت .. خَرَّابة الغلا مَيْ م العدُو "

(غناوة علم شعبية ليبية)

(١)

" فيم اضطرابُك ؟ وفيم اهتمامُك بما سيجري بعد ذلك؟..كيف سيذاع نبأُ وفاتك،وأين ومتى تُدفن، ومن سيقيم لك تأبيناً يليق بك ؟ وماذا سيقال فيك من قصائد وكلمات ؟..وكم هي الدموع التي ستسيل عليك من أعين محبيك وأصدقائك وهم يتابعون الخطب التي غصت بها الحلوق؟..وهل سيجد صديقُك الصحفيُّ ذو الكلمات الأنيقة الذي أقعده المرض مَن يسحبه بعكازه إلى القاعة ليدلي بشهادته حول أثارك الأدبية وانجازاتك الثقافية.. وكيف سيتناولون حروفَك وكلماتِك التي أودعتَها كتبَك ومسرحياتك؟.. وكيف سيتناولون لوحاتِك التي رسمتها وأثر ضربة ريشتك على المساحات البكر..أما ذاك الكاتب الكهل الذي خرجتَ من كمِّه ذات يوم..الباكي الذي تسبق دمعتُه كلماتِه وخطواته فلا تعوّل على حضوره حفل تأبينك، فهو لا يقوى على ذلك.

مَن سيخفي أوراقَك الحميمةَ التي بثثْتَها أشواقَك ولوعتَك؟..مَن ذا الذي ستستودعه تلك الكلماتِ التي أودعتَها الورق،وبقايا مشاريعك الخاصة التي فعلتْها ريشتُك على حينِ غفلة من الجميع وحرصتَ على إخفائها وكتمانها كأنها سر من أسرار الوجود ؟.

لكن ما همَّك من كل هذا وأنت توشك على الاختفاء..فستودِّع الدنيا قريباً وتغدو جثةً هامدة..لا يدنو منك وجعٌ ولا خوف، ولا جوعٌ ولا عطش.. لاتهرول مع الدقائق المهرولة، ولا تنهشك الرغباتُ الكاسرات، ولا تتأوَّه تحت سياط الانكسارات الموجعة..لا يستبدُّ بك قلقٌ ولا تثيرك شهوة..لا تأتيك النهاراتُ بالواجبات والمتاعب، ولا الليلُ بالهواجس والوساوس .

حسبُك ألا تنزعج بعد اليوم من بشاعات تحملها إليك الصحف والقنوات، ومن سعايات ونكايات ومؤامرات، ومفاسد ومظالم وأحقاد.. حسبك أنك ستتخلص من آمالك المقهورة ومن أزمنتك الحُبلى بالأحزان.. لن تسمع بعد اليوم أخبارَ المجاعات والأوبئة..ولاأخبارَ الرقيق الأسود والأبيض، والمواخير والرشوة والتزوير والتدجيل، لن تسمعَ بعد اليوم ولا تبصر شيئا مما كان يؤلمك ويؤذيك..ففيم ارتباكك ؟ وفيم اضطرابك ؟ .

ها أنت ذا تعاني الوجع..في صدرك ضيق لا يطاق..يكاد النَّفَسُ يجد ممرًّاً ضئيلاً يخرج ويدخل مع ارتفاع وهبوط صدرك..وفي نفسك وحشة لا تضاهيها وحشة..عزاؤك الوحيدُ أنك ستغادر كلَّ ذلك وتمضي.

إنه العالَمُ الذي أنت فيه..الحياةُ ذاتُها هي الألمُ الذي وُلد معك ساعة ميلادك، كنتَ تنمو وينمو معك !..يأكلُ حين تأكل ويشرب حين تشرب، ويلهو إذ تلهو..إنه يسرح ويرعى في عروقك ومفاصلك وصدرك بغير انقطاع.. يرعى في دماغك وفؤادك وفكرك وأحلامك ورغباتك ونزواتك، في فرحك وحزنك وجدِّك وهزلك..أفلا استرحتَ من وجيب قلبك المضطرب ؟!.ها أنت قد فرغتَ من مخطوط ثمين، صرفتَ عليه من عمرك

زمناً استثنائيًّا حول زيارتك لتلك الأماكن المقدسة، أودعتَ فيه كل ما استطعت من كلمات نورانية وعبارات باذخة تقطر إيماناً وقدسية تليق بتلك الأمكنة النبيلة، تؤرخ لتفاصيل اللحظات المشرقة التي مرّت عليك هناك في تلك البقاع، مستذكراً ما قرأتَه وما علق برأسك عنها وعن أولئك البشر الذين صنعوا تاريخَها..

" وأنتَ..يا أنتَ!..إنَّ اسمَك لا يزال شهداً في فمي بالرغم مما جرَّعَنيه غيابُك من علقم، أتلفّظ به فتسري قشعريرةٌ مدهشة في دمي، وينجلي بصري وسمعي..

في غيابك تقتلني اللهفة..أعجزُ عن السيطرة على هواجسي..أفقد تنسيقَ العبارات وترتيب القوافي..أعجز حتى عن تهجِّيها..في غيابك أفقد روحي وتضعف نبضات قلبي..وحين يأتي حضورُك كبوح المساء يداعب وجهَ الليل بمعطف الدفء تمتلئ اللحظة بكلماتك وهمسك وعذب وجودك .

أبحث عن بسمتك وصوتك بين أنين العاشقين وهمسهم..أفتّش عنك في أشواقهم الصغيرة..في مدحهم وغزلهم..في كل القصائد والروايات..أبحث عنك لتمنحَ قلبي بهجةً أحسُّها ليهدأَ شوقي ويرتوي ظمأي..

أيها الراحل فيَّ : ما الذي سوف أرويه لك هذا المساء الذي أقضيه بعيداً عنك..أيامي صارت مثلَ الماء..لا طعمَ لها ولا رائحةَ ولا لون..مجرَّد وقتٍ محايد باهت أجاري به من حولي من البشر..يتسامر حولي الملُ والأرق والبؤس..أنام وأصحو بلا جديد يحدث..أيامي ولياليَّ تتشابه..

صاروا يقولون إنّني صرت أكثرَ شحوباً..أكثرَ صمتاً..أكثرَ كآبة وانطواءً..روحاً خاوية تسكن جسداً بلا ملامح ولا أبعاد..لا أحتمل كلاماً ولا إنصاتاً..لم أعُد مثلما كنتُ..قلَّتْ ثرثرتي..انعزلتُ..لا رغبةَ لي في خروج ولا دخول..أريد البقاءَ وحدي..صرت أمقتُ أوقات الصمت والكتمان وأدعُها تمرُّ دون اهتمام..

أكره كلَّ شيءٍ أخذك منّي..افتكَّ مِنّي ضحكتَك..حرَمني عاداتِك اليوميةَ حين تقابلني وتأخذ بعيني إلى عالَمِك الرحب..أخذ منّي ابتسامتي وفرحتي..عقلي وروحي..حرمني رائحةَ سيجارتِك التي صرتُ أميّز نوعَها من بين سجائر..هل كنتَ تدري أنّكَ أخذتَ سعادتي بعيداً ؟..

غيابُك يا سيدي ترك لي الوحدةَ والشوقَ والحنين..ترك لي بقايا صوتٍ ما زال يندسُّ في كل حواسي التي تئنُّ شوقاً إليك..ذلك النغمُ الذي كان ملءَ سمعي..

يدُك ساحرةُ الملمس..نظرتُك الحانيةُ التي كانت تلغِّم كياني بالأمل..كلُّك أنتَ الذي ألجأ إليه..فأحسُّ أنّني على قيد الحياة..أنتَ الإلهاءُ الذي أسعى إليه لأنسى وجعي لو تعلم..فما هذا الذي كان يكمن بيننا، حتى أني لم أعد أدري ماذا بإمكاني أن أفعلَ بعدك..

جارحَ الغياب : سأبقى يتيمةً بعد رحيلك حتى لو ضمّني العالم بأسره إلى حضنه..فغيابك أراني حقائقَ البعض البشعةَ والوجوهَ سيئةَ السُّحنة..الموتورةَ والشامتة والحاسدة والطامعة..فضحتْهم نيَّاتُهم وأظهرتْ صورَهم

الأخرى التي كانوا يخفونها خلف ظهورهم مثل سلاح فتاك يتربّص بي ريب المنون..صرتُ أخافهم..وأنا الذي كنتُ لا آبه بالخوف في جوارك..أتذكَّرُ أنّك كنتَ تخبرني أنه دائماً في معركة الحب والخوف، الخوف سيفوز دائماً..

(الأماكن كلها مشتاقة ليك)..

تلك الأغنية الشجيّة يصدح بها مغنِّيها..كأنه يترنَّم بها لي وحدي دون البشر حتى صارتْ لسان حالي..المكانُ نفسُ المكان الذي جمعني بك..يذكّرني بابتسامتك الساخرة منّي..

ذات مرة أدهشتْني عبارةٌ قرأتُها، تقول : النافذة تطلُّ على مجرى شروق الشمس..وعذَّبتُك بسؤالي : وهل للشمس مجرى !؟

لم تُجبْ..ضحكتَ منِّي..عاتبَك صمتي..أشفقتَ على تجهُّمي فقلتَ لي بنبرة المعلم : أيتها المشاغبة..اكتشفي ذلك بنفسك!..انطلقي لتعثري على نفسكِ..امضِ قدماً..لقد آن الأوان لتبحثي عن وجودك..أنتِ لا تدركين..لكن يوجد داخلك كاتبةٌ مذهلة !..

وأنتَ لا تدري كم هي رائعة تلك اللحظات عندما أردِّد فيها كلماتك التي سكبتَها في روحي يا معلمي!..ومنذها استأنستُ لكلماتك المشجعة التي أضفتْ كثيراً من الدفء لروحي..

ها أنا ذي أبحثُ عنِّي..عن أيامي المقتولة..أبحث عن الأماكن التي شهدتْ ذكرياتي..ليت لي أن أمحوَ.....''..

وفيما كانت يداه ترتعشان وتنزلقان رويداً رويداً من على رزمة الورق بين يديه ولم تعُد تقويان على الكتابة، تعرّجتْ الحروفُ واختلطتْ بأشكالها..لم

تعُد حروفاً معتادة، بل صارت مثلَ وشمٍ قديم بلا نقط ولا امتداد ولا شكل.

طفقت الممرضة ترمقه بأسى وكثير من الشفقة..لله هذا الكائن ! ما أصبرَه على الموت، وما أقدرَه على الألم..ما تلك القوةُ الكامنةُ وراء هذا العناد الذي يُوشّح به روحَه ؟!..وماذا يكتب في هذه الأوراق التي تأتي بها إليه كل يوم ثم تسلمها لصديقه الدكتور ناجي.

استسلم في سكينة للممرضة وهي تسلُّ برفقٍ القلمَ من بين أصابعه وتسحب الورقَ بهدوء،محاولةً مقاومةَ يديه الواهنتين المتشبثتين به..ولم يكن له بدٌّ من الاستسلام، فاستسلم .

التقطتْ يدا الممرضة كفَّي محمود تجسّانهما وتتفقد ما بقي فيهما من حرارة الحياة..سحبت الغطاءَ الثقيلَ على جسده..اطمأنتْ إلى وضع الوسادة تحت رأسه..وقبل أن تغادر الحجرة ألقت نظرةً يخالطها الفضول لهذه الهالة السحرية التي تحوط هذا الجسد المسجّى الذي يموت ويحيا كل يوم..يصحو فيطلب الورقَ ليكتب، ثم تنتابه رِعدة وقشعريرة يروح في إثرها في غيبوبة تطول وتقصر..

تبيَّنت أنه شخصيةٌ غيرُ عادية..وذلك من خلال الشخصيات التي تعوده في المستشفى وتتردّد عليه من أهل الأدب والثقافة والفن..بدايةً بذلك المخرج المسرحي،والموسيقي المعروف، وجمعٌ غيرُ يسير من الصحفيين والإعلاميين،بل إن منهم من يتردد عليه من خارج الجبل الأخضر.. يتوافدون على قرية المنصورة بمدينة شحات يتفقدون هذا الغريبَ الصامتَ قليلَ الكلام كثيرَ الابتسامِذا الصبر الأسطوري الرهيب .

على أن أكثرَهم تردّداً عليه كان الدكتور ناجي الكاتب المعروف والأستاذ الجامعي المرموق، والذي كانت تجمعه بالممرضة أواصرُ قرابة عائلية..وكان في كل زيارة لصديقه محمود بالمصحّ يؤكد طلبه منها أن تهتم بهذا الرجل وتوليه عنايتَها الخاصة..وهو الذي توسّط لدى إدارة المستشفى أن تخصص له حجرة فسيحة منعزلة بآخر الردهة، ملحقٌ بها حمَّامٌ خاص، الأمر الذي جعل من الإدارة أيضاً لا تمانع زيارة أيٍّ من زوّاره المعتادين في أي ساعة من ساعات النهار..عدا الأوقات التي يظل فيها غائباً عن وعيه.

– آلو دكتور ناجي ..

– نعم..خيراً..ماذا جرى لمحمود ؟

– صديقُك راح في غيبوبة أخرى..سأستدعي الطبيبَ حالاً، أحببتُ أن أعلِمَك بما حدث .

– حسناً..أنا في الطريق إليكم.

(٢)

- آنسة هدى..لا يمكنك دخول القاعة بعد دخول الدكتور..هذه القاعات مخصصة للدراسة وليست ....

- ومن يقول غيرَ ذلك يا دكتور؟

- أنتِ..

- أنا ؟!

- انظري إلى ساعتك..التزمي بالوقت لو سمحتِ..لسنا على كيفك تدخلين متى تشائين!.

- وبم تأمر ؟

ردَّ بسخرية :

- (ما يأمر عليك ظالم!)..بل أقترح عليك أن تكملي بقيةَ وقتك فيما كنتِ تقضينه..وفي المرة القادمة احرصي على عدم حضورك متأخرة.. قذف الدكتور العبارة الأخيرة في وجهها دون أن يلتفت إليها، ثم واصل محاضرته . وقفت هدى هنيهة تتوسّل عيناها نجدةً ما..تدرك أنها لن تظفرَ بها وسط

ركام من الوجوم ونظراتٍ بين إشفاق وشماتة رانتْ على القاعة..بعد مغادرة هدى القاعدة لم يكفّ الدكتور عبد السلام عن استعراضاته الطاووسية أمام طلبته،وما برح يلمّح في ثنايا ذلك إلى الفارق بين الطالب وأستاذه، وأن على الطالب مهما بلغت به الثقةُ في نفسه ألَّا ينسى تلك المسافةَ المهمةَ بينه وبين من يعلّمه أو يتجاوزها .

رمَتْ هدى جسدَها النحيلَ بأول مقعدٍ صادفها في الحافلة الصغيرة التي تنتظر بالساحة الداخلية المقابلة لكلية الآداب لتقلَّ طالباتِ القسم الداخلي.. كانت أولَ من ولجَ الحافلة في انتظار البقية..حرارةُ الظهيرة زاد منها وقوفُ الحافلة في ساحة مشمسة لوقت طويل فأحالتها إلى فرن من الصفيح ينفثُ وهجاً..أخرجت منديلاً من حقيبتها ومرَّتْ به على وجهها وعنقها وتمسح ما بين أناملها وكفيها،والسخونة تنبعث من وجهها الذي التهب واحمرَّ..

استلّتْ من حقيبتها مذكّرة وطفقت تهشُّ بها على وجهها..داخلُها يتميّز غيظاً..يغلي كالمرجل..تشبّ فيه النار إلى جانب الحرارة التي تطوقها من كل جانب، صدرُها مبعثرُ الأنفاس يرتفع ويهبط في اضطراب .

– هل أستحقُّ كلَّ هذه الإهانة يا جناب الدكتور لأني تأخرت عن محاضرتك دقائق ؟..ولماذا أنا بالذات دون الآخرين تترصَّدني وتتسقّط هفواتي كلما سنحتْ لك الفرصة ؟.

مرَّ وقت وهي تنتظر قبل أن يبدأ تقاطُر الطالبات على الحافلة ويملأن مقاعدَها المتهالكة، وتضجُّ بها ضحكاتُهن وصخبُهن وتدافُعهنّ على

المقاعد..في الأثناء توقفتْ أمينة لبرهة عند الباب تمسح بعينيها المكان باحثةً عن صديقتها هدى التي عقدتْ ذراعيها حول صدرها، مشيحةً بنظرها بعيداً عبر النافذة..ارتمت بجسدها إلى جوارها، قاصدةً أن تلتصق من هدى أكثر لمشاكستها..راحت أمينة تزيح ذراعَيْ هدى عن صدرها وتغيّر وجهةَ عينيها نحوها وسط مقاومة فاشلة من هدى التي – وإن استسلمتْ لصديقتها – وأرختْ ذراعيها،إلا أنها ظلت على حالها من التَّوتر،مطأطئةً رأسها إلى أسفل .. – هدى يا أختاه..ما حدث لا ينبغي أن يكدّرك، فلا شيء مهم.

حدَجتْها هدى بنظرة زجاجية جامدة ثم عادت إلى سابق وضعها .

– حسناً..لا تريدين الكلام..لا بأس..أردتُ فقط أن...

لم تكمل أمينة عبارتَها، بل ابتعدتْ بجسدها قليلاً عن جسد هدى.. صلَبتْ – هي الأخرى – ذراعيها فوق صدرها مبتعدةً ببصرها نحو الأعلى زامّةً شفتيها في وجوم .

تحركت الحافلةُ الضاجّة بهرج الطالبات نحو مقر إقامتهن ببيت الطالبات،تتماوج بهنّ فتتمايل أجسادهن في كل الاتجاهات، ويعلو الصخب أكثر من قبل والأصوات تخالط الضحكات وتطايرت الحوارات والتعليقات من مؤخرة الحافلة إلى مقدمتها..كل ذلك الهرج لم يكن يعني شيئاً لهدى ولا لصديقتها المنكفئة في صمتها هي الأخرى .

– غداً سأذهب إلى اجدابيا..سأهاتف أهلي ليأخذوني..ألقت هدى بالعبارة في حسم دون أن تلتفت إلى أمينة.

– " بلا اهبال " !..ولم تزد أمينةعن ذلك .

– " الهبال " أن أبقى هنا يوماً واحداً !

– وما الذي حدث؟..

– كل هذا ولم يحدث شيء ؟!..وهل تأخُّرُ بضع دقائقَ تبررٌ عدم دخولي المدرج ؟..ألا يتأخر هو الآخر لساعات ويتركنا وحدنا نتآكل على مقاعدنا ننتظر تشريفَه؟..ولم يحدث شيء على الإطلاق؟!..ألم تلاحظي أن هذا الذي حدث قد تكرر معي أنا بالذات أكثر من مرة..هذا الدكتور يُمعن في إذلالي.. أم تراه واقع في غرامي دون أدري !.

– من يسمعُكِ يظن أنك لم تتلقَّي مثلَ هذا وأكثر طوال سنيّ عمرك في الدراسة وغيرها !

– ليس بعد الآن وفي مثل هذه المرحلة يا أمينة..لا تنسي أننا طالبات دراسات عليا، وعلى أبواب الماجستير..لكن حراس المعبد لا يريدوننا أن نعارضَهم أمام الآخرين .

– وما الذي يجعلك تتخذين قراراً أهوجَ مثل هذا..إن لم يكن هذا (اهبال)..ماذا تسمينه ؟..

– ليكن كما تقولين..تباً للجامعة والدراسة العليا..ما عادتْ لي رغبة فيها،وليذهب الماجستير وأهلُه للجحيم .

– وما رأي حسن؟..

قالتها أمينة، وصوبت لها نظرةً ماكرة..أمّا هدى ما إن سمعت أمينة تنطق اسمَه حتى انتصبتْ داخلها مشاعرُ مختلفة خالطتْها غَيرةٌ مفاجئة..التصق الاسم بسمعها بحميمية لم تحسُّها منذ الصباح..طفقتْ تغرس عينيها في عيني أمينة دون التفوه بكلمة..لكنَّ أمينة- وإمعاناً في خبثها - ظلت على مناكفة رفيقتها لأنها تعرف مدى ضعفها أمام قلبها الذي يرجف بالرغم من مسحة الثقة التي تبدو عليها، وتعتقد أنه هو من يجلب الابتسامة إلى شفتيها، ونسمة الهواء التي تنعشها..فطوحتْ برأسها قريباً من هدى وأسرّتْ لها بكلمات فرشقَتْها بنظرة عاتبة وأتبعَتْها بقرصة في ذراعها تماماً مثلما تفعل جدتها التي كانت تحدثها عنها..

- هل تستطيعين فراقَ حسن حبيبِ القلب ؟..

لحظتها اعتدلت هدى في جلستها وأرخت ذراعيها المتشنجتين وبقية ابتسامة هزيلة تتبعثر على محياها .

- وماذا في مقدور حسن أن يفعلَ من أجلي؟..هل أطلب منه أن يهشم أنفَ هذا الدكتور المتعجرف ويلقنه درساً أمام الجميع ثأراً لكرامتي !.

- بل بإمكانه أن يفعل ما هو أهم ! ..

وقبل أن تفتح هدى علامةَ استفهام بين عينيها،أردفت أمينة دون اكتراث:

- يستطيع أن يوقف هبالك يا بنت ويلجمَ تهوُّرَك غيرَ المبرر..ويعيدَكِ إلى صوابك حين عجَزتْ أمينةصديقةُ عمرك عن ردعك .

استدعتْ هدى تكشيرة باهتة ومطَّت شفتيها بغير اكتراث وسبحتْ بعينيها في سقف الحافلة ضامّةً كفيها في شبه ابتهال، كأنها تستنجد بمجهول ثم قالت في حنق :

– ألا يكفيهم أنهم سرقوا من عمري عاماً في الدبلوم..وها هم يجبرونني على التخلّي عن مشروعي الذي ظللت أحلم به منذ طفولتي..ثم إن حسن .... وانطفأ على حين غرة بعضُ وهجٍ كان يغلف كلماتِها وحركتَها وخلجاتها وتحصّنتْ بصمت قاهر..وحين فطنتْ إلى أن أمينة سيدفعها فضولُها وإلحاحُها لسؤالها عنه والخوضُ في التفاصيل التي ظلتْ تداريها عنها منذ وقت..أردفتْ بلا اكتراث :

– أقصد أن حسن قد لا يهمُّه كثيراً ما سأقرره ..

– ولماذا لا يهمه كثيراً !؟..تساءلتْ أمينة بكثير من الدهشة، وتحفزتْ لتقف على تخوم ما يدور بين هدى وحبيب قلبها حسن..لكن هدى أحسّتْ بانزعاج تجاه نبش الموضوع، خاصة أمام أمينة التي كانت ترى فيها منافسة غير حيادية فيما يتعلق بأمور قلبها..كان ثمة غيرة تحسّها من صديقتها حتى وإن لم تكدّر صفو صحبتهما وصداقتهما التي امتدت مذ كانتا في الدراسة الإعدادية..شعرت ببعض الندم حينما أفلت لسانها بغتة .

– ماذا هناك هدى ؟..هيا أخبريني..

– لا شيء لا شيء ..

ثم هتفتْ بصوت يتكلف اللطف،محاولةً أن تخفي ما فيه من توتر..دعينا لا نخوض في هذا الموضوع..رأسي يؤلمني،لم يعد في مقدوري الكلام..ثم طوقت رأسَها بيديها..

أدركت بعدها أمينة أن هدى لا تريد مواصلةَ الحديث..وهي تعرف نوباتِ الصداع التي تنتابها حين يعتريها غضب ما أو إحباط..ويستغرق منها ذلك وقتاً طويلاً كي تعود إلى طبيعتها..عندها أذعنت أمينة لرغبة صديقتها وضمت حقيبتها إلى صدرها واستغرقهما وجومٌ يائس .

(٣)

هذا الشعرُ الفاحمُ الأجعد..هذان الحاجبان الكثيفان المنبسطان.. تلك الأهدابُ الطويلة التي تظلِّل محجرَين واسعَين تدور فيهما عينان سوداوان ذاهلتان..فمٌ مشدودُ الأطراف يأبى الانفراج، وأنفٌ دقيقٌ يحطُّ على وجهٍ حنطيٍّ شاحب مستطيل غنِّي بمعانيه..ولكنته القادمة من الريف البعيد،ومشيته الواسعة..هذا حسن،وهذه ملامحه التي ما انفكتْ تلازم خيالَها ..كان يجلس بالمقعد المجاور لمقعدها..قاده حسُّه الفطري الريفي إلى اهتزازاتٍ غريبةً تجري إليه من جسمها المفعم بشباب غض وجمال فائق الوصف..كلاهما كان يتحين الفرصةَ للدنوِّ من الآخر أكثر..فلم يكن يكفي أن تجاورَه في المدرج أو عند المكتبة حيث الجميع هناك وحيث الزحام لا يترك للنظر أن يأخذ مداه بين أي اثنين يريد كلٌّ منهما إشباعَ ناظريه من الآخر.. ويضع كلمات مجاملة خاوية لم تكن تكفي لمتابعة دقات القلوب..ومع ذلك فقد كان كلاهما يتوقع أن يحدث ذلك قريباً وعند أول سانحة .

وكان نهاراً فريداً ذاك النهار حين التقتْه في الكافيتريا وتمكَّنتْ من الاقتراب منه،لم تنطق بكلمة..لم تشأ أن تكونَ البادئةَ بالحديث،قاصدةً أن

تُفسح المجالَ لجليسها،علّه يبوح بسره..إلا أنه ازداد اعتصاماً بالصمت.. لاذ بسيجارة وأشعلها وراح يمجّ دخانَها من أنفه ومن فمه مجّاً متواصلاً، فلا يتوقف حتى لنفض رمادها،ثم أتلف لفافةً أخرى في صدره من غير أن ينطق بكلمة .

كان يكتفي بنقل نظره بينها وبين أمينة التي أدركت الأنثى الأكثر نضجاً من تلك التي تتلبّس صديقتها هدى أن الرجلَ أربكه حضورُ صديقتها فبلع لسانَه، فارتبكت هي الأخرى وطفقت تنقل يديها من كوب المكياطة إلى كوب هدى وتعبث بقناني الماء الموضوعة على الطاولة وتقلب أوراقَ مذكرة مهلهلة بين يديها..وتنقل عينيها بين حسن وهدى،تستحثهما على البوح وتستعجلهما بالحديث بالنظر إلى ساعتها .

كان سكوتاً طويلاً ثقيلاً،لم تفلح ستُّ عيونٍ في اختراقه..ظلت هدى دقائقَ عدة تفتّش عن حديث تدفعه به على الكلام، فلم تجد أفضل من الحديث عن أهم المقترحات التي تشغل طلبة الماجستير، فهو الموضوع القريب الذي باستطاعته قهر الصمت بينهما..فأطرقت هنيهة ثم قالت بعد صمت :

– تراودني فكرة أن تكون رسالة الماجستير عن مدينتي..وأنت بماذا تفكر؟..

" أفكر فيك وحدك "..كاد يقولها دفعة واحدة، لكن جرأة اللقاء الأول خذلته فأحجم عن ذلك..ووجدها فرصة لبسط عينيه نحو عينيها العسليتين

وتملِّي ما في وجهها من تناسق كامل..فلا شيء يعلو على شيء..عينان واسعتان نجلاوان يظللهما جفنان ممتلآن زاد من ألقهما لونٌ وردِيٌّ باهت مرّ عليهما بلطف قلمُ ماكياج، وأهدابٌ طويلة تتبعثر في فوضى فوق خديها الممسوحتين بلطف..أنف دقيق موضوع بعناية فوق شفتين مكتنزتين كأنهما حبتا فراولة طريّتان..عنق صغير رقيق يشع نصاعة، تشاكسه بعضُ شعيرات لامعة تخرج من تحت المنديل الذي يغطي رأسَها..ابتسامة هي منتهى العذوبة تطيح بأعتى الرؤوس صلابةً..صوت طفوليٌّ لم تؤثر سنواتها الأربع والعشرون في نبراته، فظل محتفظاً بلثغته المراهقة حتى هذا العمر..

– لم أفكر بعد..قال حسن، ثم واصل : كلما طرقتُ موضوعاً وجدتُني أطرحُه..إمّا لكثرة الذين خاضوا فيه، وإما لعدم تمكّني من إيجاد مصادر ومراجع له..والمقترحات العادية غير الشائكة قد لا تقبلها هيأة التدريس.

– لا تدع أحداً يشير عليك مقترحاً لا تستريح له..عندها لا تستطيع التقدمَ فيه.

– لا يزال الوقت مبكراً..والمواضيع كثيرة..سأجد ما يناسبني منها للبحث فيها..لكن لماذا تختارين مدينتك للكتابة عنها ؟..

– وهل هذا كافٍ للخوض في رسالة ماجستير شائكة متشعبة في التاريخ؟.

– لأن التاريخَ لم يعُد تاريخَ القادة والساسة والزعماء،بل هو رصدُ احتدام حياة الفرد من عادات وتقاليد وثقافة وإبداع،أليس هذا ما يقوله علماء التاريخ ؟!

اتسعتْ عيناه..أدهشتْه سَعةُ أفقها..أخذتْه طريقةُ نطقها للكلمات..لم يقدر على النطق بكلمة،بل وضع يده تحت ذقنه مكتفياً بالتلذّذ بهذه اللحظات.

– ولا تنسَ أن التاريخَ قد اقترحها على نفسه حين مرّ بها خلال رحلته العتيقة،وقد استراح فيها استراحة طويلة .

– رائع !..قالها حسن بإعجاب..كانت هذه الكلمة كفيلة بأن تجعل هدى تستطرد وقد ملأها الحماس :

– التاريخُ والجغرافيا صنعا منها شيئاً جديراً بالتسجيل..

– وهل لديك ما يكفي من المصادر والمراجع والمخطوطات..؟

–لا عليك..سأجدها أو أجد من يدلّني عليها ..

صوّب عينيه إلى عينيها..يقترض منها عباراتٍ عذبةً يبوح بها..استشعر نشوةً اعترتْه وهو في حضرة هذا البهاء،حاول استدعاءَ بعض جرأة لولا أن أمينة الجالسةَ بينهما لم تشأ للفرصة أن تحين فراحتْ تحثُّ هدى على اختصار اللقاء ومغادرة المكان بحجة الوقت .

انفرجتْ أساريرُ هدى على نحو مريح، إذ كان لا يروقها الرجلُ الثرثارُ المهذارُ الذي يقطع الوقتَ في الحديث عن نفسه وعن إنجازاته وفتوحاته، كانت ترى أن ذلك جدير بالإناث فقط دون الرجال..اطمأنت على حسن الذي استأنس للحديث معها..أعجبتها تلك الثقة التي تحوط كلماته وحركاته وسكناته،وتلك الرجولة التي تنبعث من ثنايا حديثه ومشيته وجلسته ونظرته،وتلك القسوة المحببة التي تنبعث من عينيه.. تماماً كما كانت

تتخيله..حسن هو الآخر كان مأخوذا بتلك اللثغة الطفلة التي تصنع بقلبه شيئاً آخرَ لا قِبل له به.

أمينة وحدها كانت تحسُّ أن ثمة شيءٍ ما لا تفهمه قد يحدث،عندما استشعرتْ حجمَ التورُّط الذي وقع فيه الطرفان..أحسّت بشيءٍ مغاير يسري في داخلها تجاه الخطر الناجم عن هذا الإفصاح المبكر الذي يؤسس لحبٍّ وتقاربٍ غيرِ مضمون النتائج..ومهما يكن من أمر،فإن عثورَ صديقتها على صديق من هذا الطراز يؤجج بعضَ الغيرة في نفسها،ويؤلّب الأنثى فيها على صديقة عمرها ورفيقة دربها هدى منصور..يزيد من ذلك خوفها عليها من الوقوع في براثن علاقة قد تبدأ بريئة لكنها قد لا تُفضي لشيء أبرأ ! بعد أن رأتْ وسمعتْ قصصاً وحكاياتٍ مروّعةً أطرافُها طلبةٌ وطلباتُ الجامعة..إن مثل هذه العلاقات التي تشبه ما يحدث في الأفلام، يشوبها من الندم أكثرَ مما يؤمَّل منها من خير..وقد يطالُها هي الأخرى جحيمُ تلك الارتباطات الجوفاء..حينها لن يكون من السهل العيش مع الندم.

(٤)

إنه شهرُ أبريل فحلُ الربيع، وأثينا مثلُ غانية تقودها شهوة اللقاء.. تنتشي بالنبيذ وتُمضي ليلَها جذلى حدَّ التهور..تسبَح في سواقي النبيذ.. تتسكّع في دروبها الخمر وتسيل على أفواهها..تجري في أوصالها وعروقها مجرى الجداول..ها هي أثينا تشرب نخبَ أعياد الفصح..تتحلّل من صيام أربعين يوماً صامها البابوات والقساوسة نيابةً عن رعاياهم الأرثوذكس.. امتنعوا فيها عن لحوم الحيوانات ومنتجاتها..الكنيسة تبارك الإثمَ المنسكبَ بين الأجساد والقناني..تتبنّى وترعى باسم الرب هذا العهرَ الصارخَ الخارجَ من مخابئه بعد مكوثٍ ملول قضاه تحت أثواب التحفّظ..تعلن ذلك أجراس الكنائس المشنوقة في أبراجها العالية وأصوات الجوقات والأرغن والأناشيد الجوفاء التي تمجّد الربَّ في هذا الليل الفاجر..فقليلٌ من الخمر يفرح القلب!.

الليلُ في أوَّلِه،وكلُّ الدروب تفضي إلى (بلاكا)[1] ربيبة الجبل..النابتة في حضنه..أزقّتها الحجريةُ الثملة تعجُّ بضحكات وصخب السكارى بلا

(١) حي سياحي في قلب أثينا .

معنى..العيون تلتقي ولا تلتقي..الحشدُ كلُّه ثَمِل..العقول غيّبها السّكرُ وعطّل كلَّ مفاتيح اللغة..ولم ينفذ منها غيرُ لغة الشبق المحموم والرغبةُ في اقتراف المزيد من الابتذال..الأيادي تتشابك وتفترق..الأجساد تقترب وتتباعد كيفما يقتضيه اتساع الأزقّة،بقصد وبدونه!..الحاناتُ المحفورة ببدن الجبل تلفح وجوهَ الوالجين إليها بروائح النبيذ والمجون والموسيقى الصارخة التي لا تعني سوى الضجيج ولا تخاطب سوى الأجساد المترنّحة..

مبنى الأكروبولس[1] المغروزُ على الهضبة المعلّقة بين السماء والأرض يعمّد ليلَ السَّكارى ويشرفُ من عُلوّه على مزاج هذه المدينة الغانية التي تقودها الشهوة..من بين عرصاته الشاهقات تتسلّل شياطينُ الشهوة..تنبثُّ من كل الاتجاهات تفكُّ الشبقَ من عُقاله..تطلقه من محبسه..تؤزُّه خلال الأجساد المتهافتة يتحوّل كلُّ شيء إلى جمرات تنتظر نفخة هواء..فيشبُّ العهرُ ويسري في الأوصال المتحفزة مسرى النّار في الهشيم..هذه الليلة لا شيء في بلاكا يعلو على الصخب والترنُّح والعربدة والاهتزاز..ولا ضياعَ يشبه ضياعَ هذه الجموع الجامحة.

ذلك الشابُّ الغرُّ الضائعُ هو الآخر في هباءات هذه الليلة نفض يدَه من خوفه وتوجُّسِه الذي ظلّ متشبثاً به..فارقتْه هيبةَ المكان عند أول كأس تجرّعها في تهور ودون تلذّذ..الأمر الذي دعاه لصب أخرى في جوفه..لسعتْ حلقَه مرارةٌ فارقة سيئةُ المذاق..سالتْ النارُ على جانبَيْ فمه..إن هذا

(١) معلم أثري شهير بأثينا بحي بلاكا .

الشرابَ يحرق..لماذا يشربه الناسُ؟..تساءل..لكنه ما لبث أن استمرأ طعمَ السائلِ الناري فلم يعُد بعدَها يضبط عددَ الكؤوس التي أثقلتْ رأسَه فصار كطبل..فالخمر هي الحالة الوحيدة التي لا يمكن اخفاؤها في بطن أحد!.

ما حدث له بعدها أنه فقد السيطرة على جسده فقذف به بين الجموع.. انفلت منه..وجده ينصهر في أجساد لا يعرفها..يترنّح..تصهل خيولٌ همجيةٌ في شراايينه ويتحوّل إلى كائنٍ أهوج..يتلولب مثل زنبلك..تنفلت منه قواعد الانضباط..المكان وما فيه يتحرّش به..يدفعه للانصياع لشقاوة نائمة أيقظها شيطانُه ودفعه لارتكاب المزيد منها..دون وعيتسنده يدٌ وتدفعه أخرى.. تركله رجلٌ وتُنهضه أخرى..تتقاذفه الأمواج البشرية المنتشية..

اختفتْ من ذاكرته الكلماتُ القليلةُ التي تعلَّمها من اليونانية..الشخصُ القابعُ في عقله الباطن لم يعُد يحتفظ بشيءٍ منها..فراح يملأ فمَه بالزعيق ويقذفه في وجه من حولَه بلسانه الذي قدِم به من ليبيا..لم يكترث أحدٌ بما يقول..ولا حاجةَ لأيٍّ منهم لأن يفهمَه ساعتها..

فقدتْ الكؤوسُ مرارتَها في حلقه..تمدّدتْ في جوفه..تمادتْ الخمرُ برأسه..تخلّتْ عنه قدماه..غامتْ الرؤية في عينيه والتوى لسانه في فمه..

حين حدث له كل ذلك صار عبئاً مزعجاً على المكان كله، كل شيء أصبح يلفظه ويبرأ من انتهاكاته الفجة لحدود الآخرين الذين يتقاسمونه المكان.. وعندما لم يجد كتفاً يستند عليه اقتعد ركناً انزاح عنه الضوء والزحام، واضعاً

رأسه بين كفيه وراح ينهنه في حرقة (يا ناعلَيْ يا يام !)،تحوّلتْ تدريجياً إلى نحيب ونشيج متواصل..امتزجتْ دموعُه بطعم هزيمة لم يعهد مذاقَها منذ قدومه .

أحسّ في لحظة صحوٍ عابرة بأنياب الغربة الحادة تُطبقُ على روحه فتطحنَها،وأنه وحيداً يقف في مهبِّ مدينة لم تبادله أيَّ نوعٍ من المودّة بعد ثلاثة أشهر من حضوره إليها، اكتشف خداعَها عندما توهّمها تحتفي بقدومه وتبادلُه الأنخابَ احتفالاً بقيامة المسيح..أحسَّ أنّ كلَّ ما فيها يهزأ به..يمدّ له لسان السخرية..يهزمه..يغتال ما بقي من كبريائه، حوَّلتْه إلى نقطة ضئيلة لا معنى لها..عندما اكتشف أن لغةَ التخاطب معها تتخذ أشكالاً معقدة ومتعددة، أدرك مدى صعوبة التفاهم معها..أثينا مدينة لا قلبَ لها غيرَ تلك البلدة التي تركها وراء ظهره .

أين منه تلك البلدة الصغيرة الوادعة بين كثبان الرمال الساحرة..أين البشرُ الدافئون ؟..أين الودّ المنبثُّ في الحواري الحانية..أين هذه العلب الزجاجية الشاهقة الخاوية من تلك الأبنية الوارفة المنخفضة التي لا تعلو على ساكنيها بالفخامة، بل تنفذ إليهم بالدفء..تحوّله إلى ألفة محبّبة لا تستثني أحداً..تحفّزُ الضوءَ والأنسَ بينهم فيغمرَ الجميع..هناك ينقشع الغمام على القمر، فلا تشوب وجهَه شائبة..يقذف بحزم ضوئه الباهرة فتنكسي الشوارع والحواري المؤدية إليها تلألؤٌ فضيٌّ..هنا في مدينة الشهوة طرقات

الشوارع زرقاء وحمراء وخضراء، لا يلتفت إليها غيرُ قمر غجريٍّ يتثاءب أبداً بين الغيوم..هناك البِشرُ والبراءةُ تطفح على تقاسيم الوجوه التي لا يملكون غيرها..

هناك سكونٌ هادئٌ حميم أنيس..هنا شبكةُ ضوضاء تلف الأمكنة..ووجوهٌ متربة ملأى بالتعابير المبهمة..مجهولة لا يعرفها أحد..تظهر وتختفي مثل أشباح..مصابةٌ بداء الاستفهام..

هناك عِفةٌ صادقة يشعّ منها الطهر والعفوية..هنا تتبعثر الفوضى وينتشر المجون ويتكاثر الفجور..هنا تتوالد الغربة الخانقة في أوكار الشهوة،حيث الحانات بأبوابها المشرعة ونوافذها الضيقة التي تبدو كفتحات ثوبٍ عارٍ يستنجد بالحشمة!..هناك المرأة تتواصل بالعالم من خلال فتحة الجَرد أو الفراشية [1] وتنظر إليه بعين واحدة، ولا تبيح للرجل حتى وإن كان والدها رؤيةَ شعرة من رأسها بعد سن البلوغ..هنا نساءُ الليل وبائعاتُ الهوى والباحثاتُ عن المتعة يملأن الغرفَ الجانبية بالسهر والضحك والعربدة والتبختر..

هنا ثمة غرف مترعة بالضوضاء والمتعة والأضواء الخافتة والصرخات الباهتة التي لا تهدأ..هناك ليلٌ ناعمٌ حنون آمِن يتجوّل في الأفئدة ويتغلغل في كل الوجوه..هنا ليل فاجر موحش يفترس الأرواحَ والأجساد .

كيف كان يدبُّ بقدميه الحافيتين بين الأبواب الموارِبة بجفانِ الفول

(١) الجَرد والفرّاشية لحاف شعبي ليبي .

والحمّص المتوهّج في أيام عاشوراء..يرجع بمثيلها في صحون أخرى من الجيران..أو مشيه بحذر بصحن العصيدة أو المقطّع[1] إلى بيت الجيران أيام الأعياد..يسابقه فرح عارم وتستقبله مودّة غامرة..لا يمكن لهذه العلب الزجاجية المغلقة أن تنفرج عن هذا النوع من القرب والكرم والودّ والتسامح.

كن عليه أن يطأطئَ رأسَه أمام هذه التناقضات والفوارق التي يتعثر بها في حياته هنا ويدير لها ظهرَه كي يتمكنَ من مجاراة هذه النمط من العيش .

(١)العصيدة والمقطع من الأكلات الشعبية الليبية .

(٥)

لا أجد جواباً يقنعني سوى أنني قد بلغتُ سنّاً يبيح لي طرحَ الأسئلة المواربة التي تستعصي على الإجابات !.

في مجتمعنا الحريمي المغلق نتوهم كثيراً حين يتعلق الأمر بمواصلة الدراسة وباختيار الزوج وتأسيس مملكة صغيرة تخصنا وحدنا ولا تخص أحداَ سوانا .

وبالرغم ممَّا كان ينتابني من أفكار تشذّ عن المألوف، وتمرد يجتاحني منذ وعيتُ العنادَ وألِفتُه،إلا أنني وجدتُّني- في آخر المشوار-كائناً دهمتْه موجاتُ الحياة الاعتيادية وأحالتْه إلى الأماكن المنسية..ثمة شعور دائم بالحرمان لا يمكن تعويضه..لا أحدَ يحصل على ما يريده في الحياة..هذه هي الحقيقة والباقي مجرّد أكاذيب .

أكتشف بمزيد من المرارة أننا جميعاً نعيش في قفص مثل طيور داجنة ولا فرق كبير بيننا ! لا أستثني أحداً : الفقيرات والثريات، الجميلات وغير الجميلات، العاقلات وغير العاقلات، الطموحات، المجنونات، المترهبنات،

المتمردات..كلنا في نفس المكان..كلنا نحيا خارج أجسامنا..خارجَ رغباتنا تماماً..تحكمنا جميعاً ذاتُ القوانين المبهمة والتقاليد التي لا معنى لها نتشبّث بتلك التعاليم الخيالية..ولكننا لا نفتأ نتوهم ونظن أننا أحرار!..ولا معنى لما يسمّى بحرية المرأة..فهي كالحب كما تقول غادة السمان..لا مفرّ من أن تُطهى على نار هادئة !..

تلك..وتلك.. وتلك..مثلهنَّ أنا تماماً !..

كنتُ أخاف أشدَّ الخوف من إخوتي..ما زلتُ أتحسَّسُ مكانَ تلك الصفعة التي تبعتها صفعات!..لم أنسَ تلك النظرات التي يرتعد على إثرها قلبي.. تجعلني أرتطم أرضاً عند اقترافي أي حماقة..

خوفي يرتجفُ في صدري، يجعلني أقطع أكثرَ من علاقة كانت تومئُ بها إليّ عيني، أو يوحي بها إليَّ قلبي وتدبِّرها مشاعري..كنتُ أبتُرها قبل أن يعلمَ بخبرها أيّاً منهم..كانوا – جميعهم – يقفون بناءً شاهقاً من الرهبة يمتد بيني وبين أحلامي..وظل يلازمني هذا الهاجس حتى بعد أن بلغتُ هذه السنّ!.. وأبتسم !..

شعورٌ غريب ينتابني بأن أحداً منهم يتعقبني حيثما أكون..يحصي عليَّ حركاتي وسكناتي، حتى وأنا في الفصل أو أركض في فناء المدرسة وسط تزاحم الضحك والهرج والشغب، أو وأنا أجلسُ على تلك الكراسي الخشبية القاسية في باحة المدرسة أراقب الاستعراضَ النسائي..حتى وأنا أتعثر بخطواتي هائمةً خلف رأسي أطرق نفسَ الدرب المؤدي إلى بيتنا..وبدافع

من الخوف كنت أغيّر من وقفتي أو جلستي مع صاحباتي في الفصل أو في فناء المدرسة ساعة الفسحة، ولم أكن أتمكن من إطلاق العنان لصوتي أو ضحكتي..أخاف أن تأتيني صفعة من حيث لا أدري تطيحني..فقد وقر في خَلدي أن كلاً منهم يرتدي طاقيةَ الإخفاء، يرتاد أمكنتي ولا يراه أحد .

أخي عقيلة كان في التاسعة عشرة ولا يكبرني إلا بعامين..رآني يوماً أحتمي بظل جدار المدرسة أقف وحيدةً أنتظر أمينةالتي أبطأت في الخروج.. حين لمحتُه فجأة يركب سيارةً مع أحد الجيران..أدركتُ أن شيئاً ما سيئاً سيحلُّ بي..أحسستُ أن رأسي يقع من جسمي ويتدحرج على الإسفلت.. ويندلق في جوفي شيءٌ ملتهب أحسُّه يأتي على كل خلية في جسدي..

عقيلة كان أكثرَهم عدائيةً لي..أمي كانت تبرر هذا العداء التاريخي بيني وبينه بقولها أننا " علي روس بعضنا "..هكذا تعتقد أمّي..ولست أظن أن ذلك يبرّر محاسبته لي بهذه العُقد.

سبقني إلى البيت..دخل غرفتي مثلَ حيوانٍ أهوج وأخرج كلما طالتْه يدُه من كراسات..مزّقها..بعثر في أرجاء الغرفة جميعَ حاجياتي التي أحفظها في درج الكومودينو..ثم غادر البيتَ منتفخَ الأوداج لا يجيب على أسئلة أمي المندهشة..لم تكن هذه أولَ مرة يعتدي فيها عقيلة على حدودي..وفي كل مرة كانت العائلة تُغمض عنه عيونهَا !.

جعلتُ أجمع حاجياتي المبعثرةَ وأتفقّد ما بقي من كراساتي التي لم تقع في يد ذلك الثور الهائج..كشكولي الأثيرُ الذي ألصقت في ثنايا صفحاته بعض الصور وأودعتُ فيه بعضاً من مراهقتي الشقية لم تعثر عليه يدا عقيلة

الآثمتان، فنجا من تلك الواقعة الأليمة، وكذلك وجدتُ بعض ما دوّنتُ من دروس مهمة ما زالت مختبئةً في كراساتي الباقية .

حين شكوته إلى أمي قلبتْ شفتيها وقالت في تشفٍّ :

– احمدي ربَّكِ أن الأمرَ توقف عند هذا الحد!..في المرة القادمة لا أحد يدري ماذا يحدث لك..

يدهُمني إحساسٌ بالعجز كلما أبثُّها شكواي من أحدهم..عبثاًأحاول إقناعها أنني لا أذكر شيئاً فعلته يستحق هذا العقاب..وتظل هي متشبثةً بفكرة أني قد اقترفتُ ما يستوجب أكثر من كل ذلك..

وللحقيقة فقد كان لها ما يبرر اتهامها لي..فكم مرة كانت تناديني بأعلى صوتها تطلب مساعدتي لها في المطبخ أو جمع الغسيل من فوق الحبل، أو غسل أواني العشاء، وكانت صيحاتُها تذهب هباءً في أرجاء البيت لأني كنت ساعتها أغلق أذنيّ بالسماعة وأستمع إلى الأغاني في الموبايل..أسرح، ولا أفطن إلا على صوت أحدهم وقد أزعجه نداءُ أمي فيخرج من مخبئه غاضباً..يصفعني بعنف وينزع السماعةَ ويقطعها بين يديه ويرميها في وجهي..عندها أفهم أني تماديت في الاستماع إلى الأغاني!..وقد حدث هذا أكثر من مرة..وفي كل مرة كنت أفتح فمي بالسب والتذمر إزاءَ هذا الوابل من الانتهاكات..وما كان يدفعني للاستغراب أني لم أحزنْ ولم أذرفْ دمعةً واحدة إزاء ما حدث..

لم أعُد أفكر بالهرب من المواجهة..بل لم أضعفْ أمامَ أمِّي ولم تتكسّرْ نبراتُ صوتي وأنا أشكو لها عقيلة،ولا حين كنتُ أدافعُ عن نفسي..لم يزدْني ذلك إلا غضباً ظلَّ يهتزُّ في جوفي لوقت طويل..أعاود الصمت..يهيج البحر في أعماقي،ذلك الذي ما استكان رغم كلمات التحذير والتهديد .

والدي كان آخرَ موئلٍ ألجأ إليه حين كانت تؤلمني هزيمة من أي نوع،كنت أنتظر مجيئَه مرهقاً من عمله الشاق الذي يستنزفه إلى آخر عضلة منه..أرتمي جواره مثلَ هرة..أتوكأ على عطفه وحنانه، أستريح إلي كلماتِه الطرية التي يدسُّها في أذني ومسحِه على رأسي في تحنان، متوعّداً كل من يغضبني أو يرفض لي طلباً بالويل..كان لا يستثني أحداً..

" هذي الدكتورة هدى..ما نبّي حدّ يزعّلها، والّا يطقْ فيها " !..

عباراتُه المواسية كانت تنزل برداً وسلاماً على قلبي..أستشعر يده تربِّت على قلبي وتطال كل شريان فيه،وأن تعاطفه معي كفيل بتهدئتي إلى درجة التخدير..ولعلّ من أعظم إنجازاته هي نجاحه في زرع بسمة رضا عذبة على ثغري..وكنتُ أعلمُ أنه لا يملك حيال ما يحدث لي سوى هذه الكلمات الحانية، وأنه يحس بكثير من الاطمئنان لهذا القيد الذي يحيطونني به إخوتي داخل وخارج البيت كي لا ينفلتُ زمامي وتصعب السيطرة عليّ..لكن- وبالرغم من ذلك – أُدرك أنه لن يتخلى عني..ولأني أحمل له في حنايا روحي حباً لا أعرف كيفيّته ومقداره .

مع توالي الأعوام أدركتُ معنى أن يوكلَ والدي أمري إلى إخوتي.. فقد أدرك أن ما بي من غلواء وتحدٍّ وعنفوان لا يجابهُه إلا عنفُ إخوتي معي..وأنا في نظره (زكيبة ملح) لا ينبغي الغفلة عن مراقبتها..وزاد من قناعته تلك أني أبداً لم أكن مسالمة..لهذا كله كنتُ أجد له العذرَ تلوَ العذر..ولصبره معي وعليّ أدين بالكثير.

(٦)

" ننسوا عزيز وين انغدو .. بالفاضلة اللي في عمرنا " [١] ..

التفت الدكتور ناجي بابتسامة واسعة نحو صديقه الشاعر سعيد الذي وصل لتوه من اجدابيا للاطمئنان على صديقه محمود نزيل مصحة المنصورة بشحات..ملبّياً في الوقت نفسه دعوة من بيت شحات الثقافي للاحتفاء بمسرح محمود وبعض انجازاته فيه ..

– لا أعرف كيف..لكن تجمعني صلة ما بهذا الرجل..صرتُ أعرفه أكثر لكن بعد فوات الكثير من الوقت، وبعد خسارة معركته مع المرض..قال الدكتور ناجي ذلك وهو يحمل بين يديه رزمةً من الأوراق .

– روحُه التي تترقرق في عينيه ما زالت تقول إنه هو!..أجاب سعيد.. كبرياءُ الفنان الذي يسكنه لم يتنازل عنه حتى وهو يصارع المرض..

– حين أقرأ كلماتِه يداهمني شجنٌ يدفع للبكاء..استطرد الدكتور..إن ما يكتبه محمود يغرس علاقة ما في الوجدان..ما أعظم رضاه عن دنياه التي بدتْ تعيسة !.

---

(١) نوع من النظم أو الشعر الشعبي الليبي يسمى (غناوة علم) .

أجابه سعيد في هدوء :

– لقد كان يكفّن قلبَه بابتسامة يبسطها على وجهه..فما كنّا نرى إلا ابتسامتَه الراضيةَ فأحببناها..أما القلبُ المكفّنُ تحتها فلم نكن نراه..لم نكن نحفل به .

– ابتسامتُه رافقتْني بأول رحلة جمعتني به خارج الوطن..لكنّي لم أكن أعرف علاقتَه بالكتابة على هذا النحو..كنت أظنه مخرجاً يكتب مسرحياته التي يخرجها..أو يجيد الغناءَ بصوته الشجي..

– كاد أن يصير كاتباً..لكنّه لم يصبحْ كذلك، لأنه كان يضع عينيه على اتجاهات عديدة..ثمة عوالم أخرى في حياته لم ندخلها، أرجو أن يمنّ الله عليه بالشفاء كي تعرفَها عن كثب فتحبَّه أكثر..أجاب سعيد .

زفر الدكتور ناجي في حزن، هازّاً رأسه في أسى..

– أسأل الله أن يشفيه..

مساءً قاتماً كان..كل شيء فيه يوحي بالحزن والكآبة..السحبُ البنفسجية الداكنة تغلق أفقَ المدينة..أشجار الصنوبر تترنّح تحت وطأة الرياح الشديدة..تعقبها زخّات ثقيلة متواصلة من بالمطر..

احتميا بالسيارة لبعض الوقت حتى انتهت السماء من إفراغ حمولة سحبها من الماء..ترجّلا من السيارة.

في باحة البيت الثقافي..لم يكن بينهما صوت، فالساعاتُ التي قضياها في بيت الدكتور ناجي استُنزفتْ كلها في حوار حزين حول محمود..حديثٌ لم

يكن يخلو من دموع نفرت بين كبرياء وضعف وخجل..فقط وقْع أقدامهما وأصوات مارّة يتلاحقون..أفراد هنا وهناك يسيرون في كل الاتجاهات..لم يبقَ من حديث يتبادلانه بينهما وهما يتجهان صوب القاعة التي تستضيف ندوة صغيرة بحجم عشاق المسرح القليلين في المدينة حول مسرح محمود فاضل..الدكتور ناجي كان عرَّابَ الجلسة وعريفَها وقد أعدّ ورقة صغيرة حول صديقه المريض..بعد أن اقترح على أصدقائه من أهل المسرح إعداد هذه الندوة عن هذا الفنان الغريب الذي تستضيفه مصحّة المنصورة منذ وقت..صديقُه الشاعر أعدّ قصيدةً كأنه يؤبّن فيها صديقَه المريض.. وإحساسُه بالفقد يتزايد داخله..فلم يكن مطمئناً بشكل كافٍ إن كانت شجاعتُه تدوم حتى يكملَ القصيدة، أم أنها ستتخلى عنه وتخذله، بعدها يغصُّ حلقه وتتحوّل القصيدة إلى شهقات متلاحقة ..

تلاحقت فقرات الحفل والكلمات التي احتفت بمحمود فاضل..مرَّتْ كيفما اُتفق..الشيء الوحيدُ الذي بعث التسرية في القاعة هو عرضُ لآخر مسرحيات محمود التي أخرجها على عجل وبمهارة أحدُ أصدقائه القدامى الذي كان على اتصال به بشكل دائم .

(٧)

ابتسم الدكتور ناجي وهو يتهجّى الغنَّاوة..التي استهلّ بها محمود أوراقَ روايته التي اصطحبها معه إلى المصحّ وصار يكتب فيها فصولاً أخرى في عناد عنيف،كأنه يخاف أن يأخذَه الموتُ بغتةً قبل أن يكملَ بقيةَ فصولها التي قاربتْ على الانتهاء..رزمة أوراق كان يحرص عليها بشدة أودعها صديقه ناجي، ومن بعدها توالتْ الفصول والأوراق التي ظل يكتبها كلما سنحت له حالتُه الصحية كتابتَها .

الممرضة كانت تسلِّم ما يكتب للدكتور ناجي..ومع توالي الأيام استطاع صديقه ناجي أن يتعايش مع حروفه ورعشة يده على الورق وبصمة خطه، وصار يطبع على حاسوبه فصول تلك الرواية التي قاربتْ على نهايتها..

كان ينتظر نهايتَها بفارغ الصبر ليقف على مجريات ما حدث..مع يقينه أن الأعمار بيد الله وحده..لكنه في قرارة نفسه كان يحس أن نهايةَ صديقه محمود مرتبطة بنهاية روايته..فقد يختار المرء حداً لنهاية أحلامه، ولكن لا يمكنه أن يضع نهاية لحياته!..شرع يطبع على جهازه ويقرأ بصوت يسمعه :

" أحضرتُ مديحَ العالم كله لأطري عليك..أستأذنتُ جميعَ الكائنات

لأحبك!..مثلَ المطر غمرتني بالفرح..أهديت لي عمراً جميلاً..أنتَ يا أنتَ..
الذي تركتَ قلبَك ينبضُ في داخلي..أدينُ لك بكل ما هو جميل في أيامي
..فمنذ اغتيالِك سدنةَ قلبي..منذ ذلك التاريخ الذي لم نعُد نعرف حدودَه..
منذ هواجسنا التي تتعثر عند كل مشاعر البؤس..منذ العبوس الذي ظل
يلازمنا..منذ ظروفنا التي ظلّتْ معلقةً في صمت على حبال العادات..منذ
كل ما كنت أراه فيها يموت ويذوي بصمت..منذ كل هذا وذاك ..

منذ خالي الذي عاش مشوّهاً مبتورَ الأرجل عدَّةَ أعوام إثرَ الحرب التي
جعلوه يخوض غمارها في تشاد وهو ما زال في سنواته الغضة..ثم مات بعدها
مخلّفاً ندوباً في أرواحنا لم نقدر على تحمّل آلامها..ومع الزمن تعزَّينا بآخرين
غيره ممَّن عادوا من الحرب بعاهات جسيمة في أجسادهم وأرواحهم.

منذ صار خلف كل باب حكاية بائسة ترويها لنا أمهاتُنا وجداتنا وخالاتنا
وعجائزُ الحارة..فصارتْ سنواتُ الجمر تاريخاً يؤرِّخنَ به ذلك الزمنَ
الموحش !

منذ القدم..منذ عصر الجواري والحريم والمرجلة الكاذبة..منذ الرجولة
المزيّفة..

منذ النزاعات التي تقوم من أجل (غناوة علم) ملغومة شوقاً باح بها
عاشقٌ أرسلها من تحت الريح لحبيبته التي تيبَّستْ قدماها عند (مقادم
البيت)[1] تنتظر أن تجيءَ لها الريحُ بالرسالة الطائرة..فتخبئَها بين عينيها وفي
تلافيف قلبها..تخاف أن تبوحَ بها لنفسها فتفضحَها نبضاتُه غيرُ المنتظمة..

---

(١) مقادم البيت : هي مدخل الخيمة البدوية.

منذ ثوَران القبيلة في الشرايين..منذ سيول الدمّ التي سالت على جانبي الوادي جرّاء تلك الأغنية المشؤومة التي فضحتْ كلَّ شيء..كلَّ أحد..كلَّ عاشق ..

منذ ذلك الحين يا سيّدَ قلبي وأوقاتي، لم يتغيّر شيءٌ سوى تنوّع وسائل القمع وانتهاك حرمة قلوب النساء في مجتمعنا..سوى المزيد من التنكيل بالأنثى القابعة في ظل حائط الرجل ذي الشنب الضخم!..يريدونها امرأة ارتقتْ درجاتٍ مهمة في التعليم يمكن إرسالُها للخلاء لجمع الحطب وجلب الماء من البئر أو استنزاف مرتبها كل شهر!..

حين كنتُ على شرفة العشق..حين دغدغ حضورُك مشاعري، انتابتْني الحيرةُ لأول مرة..أسألك بيني وبيني: لماذا اختلفتَ أنتَ عن كل الرجال الذين مرّوا على حياتي ؟..أم تُراك اختلفتَ من أجلي!؟..

عشتُ أجملَ قصة حبٍّ في ذلك الزمن الباكر..فيك نسيتُ أن للرجال قساوةً كما روائحهم وغلظتهم وعنجهيتهم لا تُطاق..أتذكر الوجدَ الذي كان يغمرنا معاً ؟..أنا وأنت..لم أكن أعلم يومَها أنني سلمتُ نفسي لقدر تختلف دروبه عن دروبك..كنتُ اعتقده حبّاً على مقاس قلبي يا سيِّدَه ..

كنتَ تحكي لي عن كل شيء تعثَّرتَ به أو تعثّر بك في حياتك.. " .

(٨)

اليومُ عطلة..والفراشُ يجذب إليه جسدَه المنهكَ كالمغناطيس..كلما مطّ ذراعيه لينهض وجدهما تسحبان الغطاء وتلفّانه به..لا يقوَى على فتح عينيه في مواجهة ضوء الحجرة..دوارٌ عنيد يطوّق رأسه..وهنٌ شديدٌ يسري في أطرافه، وبقية طنين لا يزال يستعمر أذنيه..لعله سهرُ الليلة الماضية التي مازال يستشعر طعمَها في فمه وسمعه..ما زال الصخب يتناسل بالجوار.

صرخ المنبّهُ مرات ومرات..لكنه يرفع الغطاءَ بتثاقل عن رأسه ويمدّ يدَه في كسل ليضغط عليه ويسكته..

اليومُ عطلة،ولا شيءَ يحولُ بينه وبين التلذّذ بالتبعثر على فراشه مثل أمير كسول..فالخدر يسري في كامل جسمه..برودة المكان والغطاء الثقيل يغريانه بالمكوث متمدَّداً لساعة أو ساعتين إضافيتين..لا شيء يدعوه لمغادرة المغناطيس مبكراً..لكن عند الثالثة تذكّر موعدَ التمرين بصالة الكاراتيه التي يرتادها مسائين أسبوعياً..عندها قاوم خمولَه ونهض ببطء..حشر جسمَه تحت الدّش يغمره بالماء ويبدّد ما اعتراه من كسل ويدلّك رأسَه بين يديه يخفف من ثقله..ارتدى ما وجده قرب السرير من ملابس رماها عن جسده البارحة في غير اكتراث..

سيؤجل الأكلَ..ليس له شهية لأكل أي شيء..سيكتفي بفنجان قهوة عربية يعدِّل به مزاجَه ويعيد توازنَ رأسه..وقبل أن يدخلَ المطبخَ ليعدَّ قهوتَه أدخل يدَه في أحد الأدراج وأخرجها بقرصَيْ أسبرين ابتلعهما كيفا اتُفق، ثم ألحقهما بسيجارة أشعلها ودسَّ معظمَ دخانها في صدره..

جمع ملابسَه الرياضيةَ..تفقَّد مفاتيحَه ميمِّماً صوب محطة الميترو..عند خروجه صافحته صورة (تانيا) معلقة بالجدار..الفتاة الفرنسية الشقراء التيجمعته بها الصدفة وحدها..التقيا في مقهى كبير يتوسط ميدان شهير وسط المدينة يؤمه الناسُ كلَّ عشية..ولا شيء آخر جمعه بها..وبالصدفة اقتربا..تقاربا..اقترنا..تنافسا، حين لم يستلزم منهما الأمرُ غيرَ أقلّ من ساعة ليتعارفا..حدث كل شيء..

نقلب كل شيء في حياتهما رأساً على عقب..كانت حكايةً لم يستطع أن يلمَّ بكل تفاصيلها في رأسه حتى بعد أن عاد عقلُه القديمُ إلى مكانه المعتاد .

في المحطة أسرع إلى كابينة الهاتف يتصل بها عند جدّها الذي تقضي في بيته الواقع في أطراف أثينا يومين من كل أسبوع، فوجدها تتناول الغداءَ معه..أخبرته أنها ستقضي بقية اليوم هناك،وقد تعود مساءً..ثم دسّ جسدَه بين ركاب الميترو وغيّبه الزحام..

ذلك هو برنامجه الأسبوعي كلَّ مساء..يومان في صالة الكاراتيه وثلاثة أيام يتلقَّى فيهما دروساً في الموسيقى..ويمنح اليومين الباقيين من الأسبوع لتفريغ ماُشحنت به روحه من شقاوة !.

تانيا فرنسية من ليون،تعيش في أثينا في كنف جدّها اليوناني الأصل، وتدرس الحقوقَ بكبرى جامعات أثينا..وهو الشاب الليبي اليافع الذي رمتْه الأقدارُ فجأةً من مدينته المنسية على الشاطئ المقابل إلى تلك المرافئ البعيدة، ضمن بعثة دراسية تخلَّلتْها الكثيرُ من الإخفاقات والعثرات أولَ الأمر،ولولا أن تداركتْه عنايةُ الله لتمَّ فصلُه من المعهد الذي يدرس به، بسبب تدنّي درجاته في الرياضيات واللوغاريثمات، وتلكؤه في استيعاب الفيزياء والرسم الهندسي ولغة الأرقام التي كانت تستفزه وتثير اشمئزازه وتبرمه .

كيف لغريبَيْن مثليهما أن يتآلفا على هذا النحو ويمارسا حياةً مدهشةً تحت سقف واحد كما يجب ؟!..هذا السؤالُ ما انفكّ يطلّ على رأسه من حينٍ لآخر خلال تلك السنوات المشحونة بالتهور والجنون..وحين كان يجلس على كراسي عقله بعد ما انقضى من عمره ما انقضى ويعيد طرحَ ذات السؤال على نفسه، لا يكاد يظفر بجواب واحد يقنعه..ويدهشه كثيراً كيف استطاع العيشَ على هذا النحو زمناً مدهشاً مقتطعاً من عمره .

ضاق ذرعاً بالروتين الممض القاتل في تلك القاعة الضيقة..ومعلِّمة الصولفيج الأوكرانية الطويلة معقوفة الأنف،ودروس الهارموني والفيلهارموني..ملّ تكرارَ النيتوريل والبيمول والدييز والباص والسوبرانو والفاماجير، والمعلوماتِ المحشورةَ عن السوناتات[1] والدروسَ الشفهية عن الموسيقى وتاريخِها وتطورِها وتدوينِها..

(١) مصطلحات موسيقية .

طبعُه الملولُ لم يطاوعْه على الصبر على كل تلك المعلومات التحريرية عن الموسيقى..غمرتْه موجةٌ من السخرية من نفسه..إذ كيف له أن يضيِّعَ وقتاً ثميناً من أيامه،وينفقَ من جيبه المثقوب تكاليفَ هذه الدروس الخالية من كل تسلية..وكذلك تلك التمارين القاسية التي كان يقضيها بصالة الكاراتيه ولا طاقةَ لبدنه الغض بها..فهو إن بقيَ يداوم عليها حتى هذا الوقت، فلأنه كان يشعر ببعض التحدي لــ (سليمان) ابن مدينته الذي يتدرب معه.. لكنه اكتشف بعد وقت قصير أنه لا تستهويه عضلات (ستيف ريفز)،ولا حركات (بروس لي) ولا غيره من أبطال السينما الخياليين، ولا يريد حتى أن يكون موسيقيّاً مثل باخ أو موزارت أو تشايكوفسكي الروسي الذي تتبجّحُ به المعلمة الطويلة الأوكرانية أمام طلبتها كلّما خطر لها إذ كانت تفضّله على غيره من أعلام الموسيقى الآخرين.

كانت تكفيه من الموسيقى تلك العلامات الفارقة العجيبة بين (التّون) الغربي الكامل وربع (التون) الشرقي الذي تربّتْ عليه أذنه، وتلك الأرتامُ والأوزان التي ألِفها سمعُه وتلقّفتْها روحُه بالحواري والأزقة الأليفة.. نوبات المالوف والموشحات وترانيم الحضرة والبرْول الشعبي والدنقة بأرتامها الأفريقية الخشنة، كانت تأخذ حيّزاً واسعاً من وجدانه، ولا تترك مكاناً لكونشيرتوات الكمان، ولا تشايكوفسكي وبجعاته ولا سوناتات غيره من الموسيقيين العالميين..هكذا توصّلت به قناعاته، فهجر دروسَ الموسيقى، وقبلها غادر صالةَ الكاراتيه .

(٩)

ها هو يجلس وحيداً على زاوية السرير، تطوف يدُه على صدره وعنقه تهرش كل ما طالته أصابعُه..عيناه ما زالتا تسبحان في نصف إغفاءة، وثمة احمرار يطغى على بقايا بياضهما..هالةٌ سمراء تجلّل محيطَهما، شيءٌ في ملامح وجهه يدلّ عليها شحوبٌ واضح..وحرقة تتمدَّد في حلقه.

كانت ليلةً طويلةً تلك التي قضاها حتى تباشير الصباح في حفل دعاه إليه أحد رفاقه في مدينة أخرى، هناك لم يستطع منعَ نفسه من الضياع في الغناء، كأنه يتحدى مجهولاً ينافسه إعجابَ الحاضرين، فغنّى حتى انشقَّ حلقُه، وعزف الأكورديون حتى ترك علامة في صدره من طول عناقه له، وكلما حاول أخْذَ نفَسٍ ألحّ عليه الحاضرون إمّا بالغناء أو بمصاحبة أحدهم على الأكورديون..سهرٌ وغناء ودخان يملأ المكان وأضواءٌ تُجهد العينَ وعودةٌ بعدها من سفر يهدّ الحيل .

دلى رجليه من السرير..همَّ بمغادرته لولا أنه شعر بوخزة ألم في ظهره فراودتْه نفسُه بالاحتماء في غرفته والعودة إلى الاستلقاء، لكنه رفض الرجوع إلى الفراش وتحامل على النهوض..القهوة بجواره بردت وغطس وجهُها

الكثيفُ في مزيج الفنجان..تجرّعها على دفعتين، مستحلباً طعمَ البنِّ المرَّ في ريقه، ثم وقف يغادر الغرفة على عجل..

خرج من البيت لا يلوي على شيء..ليس في رأسه سوى تلك القائمةُ الطويلة من الطلبات التي يحتاجها البيت وساكنوه..

كل أفكاره تحولتْ إلى نقطة واحدة وهي أن يلبّي حاجات البيت الذي ينتظره، ويسدَّ تلك الأفواهَ الفاغرةَ على الدوام.

بصعوبة كان يقود سيارتَه الصغيرة عبر الشوارع البائسة وقد نسي خلال مساره أين يتجه، شعر أن السيارةَ تسير به على غير هدى..كثيراً ما كان يحدث له ذلك عندما تزدحم ذاكرتُه المكدودةُ بالمشاغل وتكتظُّ بالطلبات التي لا حدَّ لها إلا الموت..وغالباً ما يسيطرُ على هذا السَّرَحان بالتوقف عن المسير عند أول منعطف ليراجعَ خريطةَ سيره وخطة مشواره ..

حسناً عليه أن يشتري لوازم الغداء أولاً، ثم يذهب لعيادة الأسنان لحجز موعد،يسرع بعدها كي يعرِّج على أمِّه في بيتها،ومن ثَم العودة باكراً بحاجيات البيت..أمّا المساءُ فهو محجوزٌ لبروفات المسرحية التي تعثَّرتْ وبعثرتْ معها الكثيرَ من تطلّعاته لفعل شيء ذي قيمة.

تحتويه أولُ واجهة محل..يدخل..يمسح المكانَ بنظرة سريعة..يلتقط سلةً وينتقل بين الأرفف يتلقف منها ما ينقص المطبخ..ولا ينسى ألواح الشكولاطة الهولندية والياغورت الطبيعي الذي يباع في جفانٍ فخارية صغيرة..وزجاجة العصير الطبيعي وبعض الفاكهة..وبعد السوبر ماركت

بخطوات يعرّج على (ماريًّا) بائعة الكستناء العجوز، تلفُّ له عدداً من الحبات التي تفتَّقتْ فوق موقد الفحم..ينفحها النقودَ ثم يصعد الشارعَ في جذل..في الشقة يجد تانيا في انتظاره،وقد هيأتْ ما يلزم المكانَ لطعام الغداء.. هي تستطيع أن تصنعَ أي شيء بالمطبخ إلا أن تُعدَّ طعاماً..وعبثاً حاول أن يعلّمها تحضيرَ المكرونة، فكانت تكتفي بسلقها في الماء والملح وقليل الزيت وتصفيتها فيما بعد..وفقط..أما (السُّوقو)..فلم تفلح في فكّ شفرته ومعالجته بالرغم من عديد المحاولات الخائبة..كانت المقاديرُ تخونها في كل مرة تتجرأ فيها على دخول المطبخ لتعدّ الطعام..فمرةً يتغلّبُ الملح، ومرة تتغّلب الصلصة أو البهارات على بقية المكوّنات، ومراتٍ تتغلّب كميةُ الماء في الحلّة، وأحياناً تكون الغلبةُ للزيت..فيتحوّل مشروعُ الطبخ إلى فشل يثير عتاباً وسخريةً وضحكاً وقهقهة لا تنتهي بينهما..تنكفئ بعدها على السلطة تجهِّزها وتهيئة الطاولة ووضع الصحون عليها، أوسكب الماء الساخن على شاي الكيس.

الماضي ما زال محفوظاً جيداً في ذاكرته..بعد تلك السنين الطويلة..حين يتفحّص الغُرفَ السِّرّيةَ لقلبه الطافح بالممنوعات تبرز تانيا مثل شيء خرافي ينهض من مكان منسيّ في مخيّلته .

تانيا كانت أخطرَ المنعرجات في حياته على الإطلاق..لم يكن يعتقد أنه سيفتقدها إلى هذا الحد..تُرى أين هي الآن ؟ أيُّ أرض تؤويها وأيُّ مكانٍ يحتويها ؟ وأيُّ رجلٍ اختارتْه رفيقاً لها من بعده، أم تُراها فضَّلتْ الحياةَ عزباءَ

من بعد تلك التجربة المثيرة فاكتفت بها..كيف اقتربا وتقاربا واقترنا،ثم افترقا؟! وكيف استطاعا أن يستحوذا على بعضهما ؟..وهل سيجد ثانيةً أحلامَه المفقودة ؟!.أسئلةٌ بليدة تحطّ في رأسه لا تنتهي إلاّ بتوقف السيارة أمام البيت..

" ..الفرق بينّا وبين المكاليب إنّا نعرف انروّح علي بيوتنا ! ".. هكذا كان يردّد صديقه الكاتب البوهيميُّ..

لا يدري لماذا كان يداهمه هذا القول على نحو مباغت كلما بدا له بيتُه من بعيد..منذ ذلك اليوم..يتذكّر محمود:

يأتيه صوت أبيه :

– " الناس ما تقولش ابنادم ايش غاب..تقول ابنادم ايش جاب "! .

على أنّ كلَّ ما يعتريه من شرود وسَرَحان كان يتبخّر بمجرد وضع إصبعه على جرس الباب، وسماع صغاره يتصايحون من الداخل،متسابقين لفتح الباب..يتناهبون فيما بينهم ما حمل من أكياس وحاجيات..فيما تظل صغرى بناته تسابق خطواتِه إلى الداخل مثلَ جروٍ شقيّ وهي تضع قدميها في طريقه فيكاد يتعثر في مشيته ويسقط !..

عندها فقط يشعر بوخز في داخله لا يدري مصدرَه، وخز يهزُّ كيانَه، يشعر معه بخيانتهم جميعاً..الأسرة الصغيرة،الزوجة والأولاد..فهو عندما يكون وسطهم لا يرى سواهم،لكنه عندما يكون وحده يتشتَّتْ ويتبعثر..يقسِّم جسمَه في جسومٍ صغيرةٍ كثيرة لا يقدر على جمعها في مكان واحد أو السيطرة عليها .

كان ذلك في سنواته الأولى من رجوعه من هناك..أمّه ظلّتْ تتابع بقلق الفارقَ الواضحَ الذي أحدثتْه سنواتُ الغربة في روح وسلوك وتصرّفات ابنِها،الذي عاد شخصاً آخر غيرَ الذي غادرها إلى أوروبا منذ سنوات..ظلّ قلبُها يأكلها مع مرور الوقت على هذا الانقلاب الذي حدث له..يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر..صار الأمر يدعوها للجزع ويثير حزناً عميقاً داخلها.. فقد انكفأ ذلك الشاب على صمتٍ غير عاديٍّ..أين ذهب بذلك المرح وذلك النشاط ؟!..ماذا حلّ بذلك الفتى المملوء حيوية وصخب وبهجة ؟..الذي كان يوزع ضحكاتِه على الجميع ويدبّر المقالبَ ويحيك المؤامراتِ البريئة لهم غيرَ مستثنٍ أحداً، صار يكتنفه شرودُ الذهنِ وكثرةُ التبرُّم وقلةُ الكلام..يضنُّ بالابتسامةِ في وجوههم..لا يغشى مجالسَهم ولا يشاركهم حديثاً ولا رأياً ولا يطيل المكوث مع العائلة..صار يعيش معهم بلا شهيّة..الليل يقضيه في الأفراح والحفلات الموسيقية، متأبطاً أكورديونه أو عودَه ولا يعود إلى البيت إلا قرب الفجر.

لم يعُد يجلسُ إلى أبيه في المربوعة، ينفرد به ليقرأ عليه قصةَ بطلِه الأثير عنترة أو ألف ليلة وليلة أو السيرة الهلالية..أو يلاعبه طرح اسكمبيل ويغشه في اللعب ككل مرة ..

كلّ ما يعرفونه أن تغييراً بالكامل قد طرأ على حياته منذ مجيئه من هناك.

أمُّه كانت ترصد علاماتِ الخذلانِ واليأس التي وشتْ بها كلُّ تصرفاته.. حدّثها قلبُها بأمرٍ مزعجٍ قد يُقدم عليه ابنُها إن بقيَ على هذه الحال..فقد

يأخذه الحنينُ إلى تلك البلاد التي جاء منها،فيهاجرَ إليها ويتركَها عند محطة مقفرة تقطنها غربانُ الخيبة والحسرة.

أسرّتْ إلى أبيه بما يحوم حول ظنونها..أفضتْ إليه بشكوكها، لكنه لم يوافقها على وساوسها،تاركاً ذلك للوقت وحده،فهو الكفيل بكل شيء.. وكثيراً ما كان يعلّق مخاوفها على شمّاعة الصمت وينصرف عنها إلى مسبحته متمتماً بأوراده اليومية .

ومع كل ذلك،فإن عقلَها أومأَ لها أن تتسلّلَ إلى حقيبته وتختلسَ جوازَ سفره وتحتفظ به بعيداً عن متناول يده،خوفاً من أن يغادر البلادَ فجأة ويختفي..عليها أن تدبّر أمراً آخر..وهكذا كان .

دبّرتْ له أمُّه زواجاً تقليديّاً على عجل..وكان على قناعة أن مثل هذه الزيجات المدبّرة قد لا ينمو فيها الحب..لكنه زواجٌ انتشله من بقية مراهقة كان يعيشها، زواجٌ صنع له عقلاً تقليديّاً بمقاس فضفاض ظل يطوّقه..يقلّم من بقايا شقاواته ويحدّ من تطلعاته وأفكاره المجنونة .

(١٠)

ربما كان حباً ذلك الذي شعرتُ به تجاه ابن الجيران مفتولِ العضلات ذي الشعر الطويل والعينين الضِّيقتين..ربما لم يكن كذلك ! لكن ما أعلمه هو أنني كنتُ أتلذّذ بلعبة الإيقاع به أو بغيره ممن يركله حظه في طريقي !.. تلك اللعبةُ التي كانت أولَ وآخرَ ما علمتني إياه أنثاي التي كانت تسكنني، الأنثى التي تشتهي وتتمنّى وتستحضر وتستدعي من تشاء وترجئ من تشاء..لم أوفّر جهداً في الإطاحة بقلبه وإعادة هندسة نبضاته..بل ربما كان كلُّ ذلك نوعاً من السلوك الغريب الذي ينتظر علماءَ النفس كي يقفوا على أسبابه وأسراره ثم علاجه ..

منذ براءة طفولتي كنتُ أصنع – قدر ما أستطيع – عالمي الخاص الذي تشكّل فيه رفضي وتمرّدي على منطق وطبيعة وكيفية الحياة التي تعيشها النساء من حولي ..

أبداً ما كانت تستهويني حكايات العجائز..لا تشدني إليها..غالباً ما كنتُ أخشى الاقترابَ من عالمهن الأجوف المألوف..تستفزّني حياة العتمة والظلال والركون إلى الحيطان ومعانقتها..طريقة تفكيرهن لم تكن تمنحني

أي نوع من الطمأنينة والارتياح..كنتُ أتخيل شكلاً آخر من الحياة لا علاقةَ له مطلقاً بهن.

أحتاجُ إلى امرأةٍ ما أفهم منها كيف أعيشُ حياتي ببساطة ودون اكتراث لما أكترثُ له أنا..كنتُ أعرف أن هذا ضربٌ من التخيّل الذي لا تأتي به إلا المعجزات .

على عتبة سنوات البلوغ اكتشفتُ أني صرتُ فتاةً بتضاريسها وأبعاد جسدها..منها ما استدار ومنها ما تكوّر وبرز، ومنها ما تنحّف واستدقّ ورقّ..وصار يجري عليّ ما يجري على بنات جنسي كل شهر..من بعدها صرتُ عبئاً على العائلة في نظر كل من في البيت..عورةً مهيأةً في أي لحظة للعطبومن ثم لجلب العار للجميع..أمّا في نظري فقد أصبحتُ ضحيةً تحت الطلب.

وهذا الكائن المدعو أنا يستوجب المراقبةَ والحرص والمتابعة بأدقِّ المجاهر من كل من في البيت،حتى يحين موعد تسليم (زكيبة الملح) ليلة عرسها بكامل عفَّتها لمن يحق له تملُّكها بموجب عقد إيجاب وقبول شرعييَّن، فصار لزاماً على أمي أن تجرَّني إلى المطبخ، تعلمني فن الطبخ والعجن..مبتدئة بالقهوة والشاهي وتجهيز السلطات،حتى مرحلة التفنن في إعداد الحلويات والمعجّنات بأنواعها..ليس ذلك فقط..بل على هدى الفتاة البالغة الراشدة أن تغشى مجالسَ النساء وتستمع إلى ثرثرتهنّ وتتعلّم فنونَ الغِيبة وكيفية السّخرية من (الغزال المصوّر)..وصار عليها أن تلبّي طلبات الجميع دون

أن تستثني أحداً..حتى من يصغرها سنّاً !..أمهاتنا يتحدثن عن الواجبات المنزلية، ويزرعن في رؤوسنا المكتظة كيف نطبخ ونهتم بأزواجنا..وليتهنّ علمننا كيف نحب الرجلَ ولا نرهبُه !..

– ديري قهوة يا هدى .

– هاتي امية يا هدى ..

– وين الغداء يا بنت ؟.

– اكوي السروال يا هدى ..

هذا غير ترتيب المراتب ونشر الأغطية وغسل (المواعين)..والطبخ والكنس و..و.. وحين أجلس قرب أمي مثل قطة متذمرة وقد هدّني التعب والملل كانت توبّخني وتلسعني بعبارات اللوم والتقريع .

– حمارة .. باير .. وحين أواصل تجاهُلَها تقول في غيظ : "والله ما يصير منك وليَّة " !.

–انشالله ما صار!..

– عطبك عليه منها طيحة اللي يطيح فيك !..

– حتى هو الله لا يجيبه ! أتمتم في غيظ مكظوم ..

تقرصني في فخذي بقوة صائحة في وجهي :

– نوضي .. فزّي من احذاي .. انزرفي ..

وأجدها فرصة منقذة للهروب من زمجرتها المتواصلة..لكن صوتها المخدوش لا يكفّ عن ملاحقتي، فلا أردّ عليها..ألجأ إلى حجرتي البائسة أتورط في أحلام اليقظة، أصلب ذراعي على شباكها الذي لا يطل على شيء، بل يفضي إلى سور من الحجر المكشوف على بعد مترين ونصف حيث يمتد حائط الجيران ويعلو ثلاثة أو أربعة أمتار..

أستغرِقُ وقتاً طويلاً لا أحسب مقدارَه..أخترقُ بخيالي تلك الجدران،مغادراً بي إلى عوالمَ أرحبَ من عالمي الذي يحاصرُني..أتخيلُ حركةَ الشارع..عشرات الشبان يستندون إلى الحيطان أو يقتعدون الأرصفة الخشنة في انتظار انقضاء العمر..يتقاسمون العباراتِ الوحشيةَ الغريبة واللفافات الرخيصة، ينفثون دخانَها في وجه مجهول يناصبونه العداء..يدخنون الوقتَ والقهر والفراغ..يدسّون أعينَهم في أجهزة الموبايل، فتسافر بهم عبر عوالمَ افتراضية..هؤلاء الفتية يظنّون أن الحياة أغنية!..

أمّا الصبيانُ الأصغرُ فيزدحمون على حواف الأرصفة المجاورة.. يتعلمون دروساً في التشرد هم أيضاً..

ألوذ بخيالي المجهد..يسافر بي عبر الحيطان والأبواب الموصدة على المئات والآلاف من بنات جنسي، حيث الحزن يطوّق الجباه، والتآكل ينحت أخاديدَ مؤلمةَ الظواهر والبواطن،والقهر يتراكم..وحيث الحاجة للفرح الذي لا يأتي إلا نادراً، وإن أتى فإنه يأتي متنكراً .

عالَم الرجال هو وحده عالمٌ شبهُ طليق..أما الشقوق النسائية..أما بكاء الرّضع والأطفال..أما أنين العذارى والمطلقات والمهجورات والمراهقات فهو ذاته يزداد قهراً يوماً بعد يوم، ويمتدّ يأساً دهراً بعد دهر.

- " هدى " .....

أتكاسلُ عن تلبية النداء..أظل متشبثةً بآخر مكان أويتُ إليه ..

-" انتي يا بنت ... " !.

يوتِّرني صوتُ أمي..يأخذني قسراً من أحلامي..يقطع رحلتي الافتراضية..طوال وجودي بالبيت وطلباتها لا تنتهي..

جارتُنا الثرثارة شرّفتنا بزيارة مفاجئة، وعليَّ تجهيز القهوة والبحث في المطبخ عن بقية علبة بسكويت كانت أمي طمرتْها بعيداً عن متناول إخوتي القوارض..ولا يتوقف الأمر عند القهوة، بل ينبغي عليّ بعدها أن أجلسَ بجوارها أستمع إلى حكاياتها الممجوجة المملة ونصائحها الساذجة الغبية..تتخلّلني بعنف- حتى الإغماء- الرائحةُ النفّاذة التي تنبعث من عقد (المحلب)[1] الذي يتدلّى من رقبتها والمطعّم بالخرز الملون وحبات (الفردغ الذهبية)..كنتُ استطيع تمييزها من مسيرة شهر، وما انفكّتْ تلازم خياشيمي حتى بعد أن كبرتُ وتكاثرتْ سنواتي وغابت عني الجارة !..

---

(١) المحلب عجينة تتكون من مواد عطرية مختلفة تعجن على هيأة نجوم صغيرة ثم تجفف ويصنع منها عقد .

مع توالي ضغط الأيام وتكرارها تحوّل البيت بالنسبة لي إلى جحيم لا شبيه له،خاصةَ بعد أن تزوجتْ أختي الكبرى، فازدادت المتاعب..وكثرتْ المجاهر التي كان إخوتي ينظرون بها إليّ ويصوّبونها نحوي دونما مناسبة.. لكنها الذكورة المفرطة وعُقَد تلك السنين السيئة.

– وين ماشية ؟...

–" لحوش خالتي " .. أقذف بها في وجوههم في تحدٍّ .

– خوذي معاك أسامة ..

– ورّيني صوابعك ؟!...حوّلي الزمالتو .

– ألبسي خمارك وجلاّبيتك الطويلة.

وأمتثل للأوامر السلطانية!..سيصحبني أسامة المئتين خطوة التي تفصل بيتنا عن بيت خالتي ..

أسامة – وبمجرد أن يطمئن إلى تجاوزي عتبة باب خالتي– يعود أدراجه إلى الشارع، يُفرغ فيه ما تبقّى برأسه من شقاوة مع أقرانه الشياطين !..

البارحة السماءُ باغتهاالمخاضُ فولدتْ أنشودةً زكية الرائحة..انحنت بثقل غيومها فهبطتْ إلى الشارع..الجوُّ الماطر والغيومُ الوردية خبَّأتْ خلفَها وجهَ الشمس الخجولَ هذا الصباح..الأشياءُ غسلها المطرُ الهاطلُ طوال الليل فاندلق غسيلُها عبر المزاريب المبثوثة عبرالحيطان في جداول وغدران مبعثرة مثل لوحة سريالية..رائحةُ المطر تتضوع من أردان التربة التي ارتوت بالماء..رائحة تطلّ على الأنوف بواكيرَ كلِّ شتاء لا عهد للناس بها إلا عند

تلك البدايات، فيما ظلّتْ ذرات الماء تتعلّق بالهواء بألفة فتضفي على الصباح سحراً غريباً كفيلاً بإزاحة كل بؤس وتجهّم وحزن..

كنتُ أستمتع بذلك اليوم المغسول..واقفةً أحتمي بالباب الموارب أنتظر قدومَ أمينة..لا شيءَ يبتسم في وجهي هذا الصباح غير المطر وبقاياه العالقة بالجوار..قوسُ قزح يمطُّ مواشيرَه المزركشة عبر الأفق، ووجهُ أمينة الطفل ونبرةُ صوتها الممطوط..يبعثر الحزن..يأخذه بعيداً..عدا ذلك لا شيءَ غير الوجوه العابسة..ذات العبوس يعاقبني على تمرّدي وعدم اكتراثي بها أو مجاراتي لها وأظنّه يحمّلني المزيدَ من الشجن..أحسَبُه غيرَ عابئٍ بما يحدث معي
.

(١١)

رجع محمود إلى الحياة المدنيَّة، معتقداً أنه استعاد حرَّيتَه التي سلبتْها منه الخدمة العسكرية بعد عشر سنوات قضاها عند سور الحياة..سنواتٌ كان يجب أن تكون زاهية تفلّتتْ من عمره دونما فائدة..عشرُ سنوات خدَّاعات توسّطتْ أروعَ أيامه..سُرقتْ منه باسم الوطن وخدمة العَلَم..قضاها في مدينة تبعد عن مقر سكنه أكثر من أربع مئة كيلومتراً..لم يتمكّن خلالها من مراقبة أسرته الصغيرة وهي تنمو يوماً عن يوم..لا يذكر خلالها أنه وضع أصابعه في شعر طفل من أطفاله يبعثره..يلاعبه..يعلمه شيئاً..أو يمارس عليه أبوَّتَه..كل ما كان يؤسس له من مشاريع فنية وثقافية تورّمتْ في رأسه ذهبت بها سنواتُ الجندية السيئة..كان يحلم باستكمال دراسته الجامعية الذي حال قانون الجيش من تحقيق أمنيّته..

كلُّ هذه السنوات التي قضاها بعيداً في الثكنات والعذابات والضياع والخواء حالتْ بينه وبين مواصلة أحلامه..وما كان يحيط به من انكسارات متوالية..يزيد في مرارته..فتعتمل في تلابيب ذهنه خيالاتٌ تهيم خلالهَ ليلَ نهار.

ضاق ذرعاً بذلك السور الحديدي الذي كان يطوّق جميع مناحي الحياة..هاله أن يتحدّث أهل الوطن عن السياسة وراء الأبواب المغلقة.. استفزّه ذلك الاتجاهُ الأوحدُ الذي أجبر الجميعَ على السير فيه ولا يستثني أحداً..وطنٌ لا يتّسعُ إلا للنياشين والحُواة والشعراء..حقبةٌ أعظمُ إنجازاتها شعاراتٌ خاوية وشعرٌ وأناشيد..كان الرهانُ الوحيدُ فيها على رجل صالح في جوقة الفاسدين..صار فيها تصديرُ صندوق برتقال إلى السوق المحلّي من مهمات الدولة وحدها..

صدمَه التكلُّس وحالاتُ الاحتقان التي تعيشها البلاد..قوانين العائلة والقبيلة..وزواجٌ تقليديٌ ظل يسحبه إلى الوراء..كان يعيش ازدواجاً كبيراً ومساحة واسعة تفصله عما كان يشغله ويخطط له تذكّر قول صديقِه الكاتب البوهيمي: (نحن نفكر بالفصحى ونعيش بالعاميَّة)..بات على وشك السقوط في براثن الانهيار ..

ليته أخذ رأيَ تانيا وبقي معها هناك في أثينا أو سافر إلى فرنسا..

– أذهبُ معك إذن..لا يمكنك تركي وحدي..

– لا تستطيعين ..

–كيف لا أستطيع..أليستْ بلداً مثل بقية بلاد الله ؟!

– بلى..لكن الحياة تختلف مليون درجة بينها وبين الحياة هنا أو في باريس وليون !..ولعلّي أقول لكِ أنه لا يوجد خط طول يجمع مدينتي الصغيرة بأي مكان في العالم !

– وكيف تعيشونها أنتَم ؟!

– نحتال على حياتنا هناك مثل ما يفعل الحواة..هل تظنّين أنَّ بمقدوركِ التنقّل بحرية مثلما تفعلين هنا ؟..هل تتصوَّرين مدى الصعوبة في ممارسة حياتك كامرأة ؟..أتذكرين رحلتنا إلى إيطاليا بالباخرة بالدرجة السياحية.. لم يستغرقْ الأمرُ منّا سوى ساعة حتى كنّا في ميناء (بيريوس)..هناك لا تستطيعين حتى مجرّد التفكير في هذا الأمر!..كل ما أستطيع أن أعدكِ به هو أني قد أعود إليك!.

– ابقَ إذن هنا شهراً آخر ؟

– وحين ينقضي الشهر ماذا أفعل ؟

– لعلِّي أستطيع بعدها إقناعَك بالبقاء معي هنا..أو سنذهب إلى فرنسا.. إلى باريس.

– باريس !

– كنتَ تقول لي إنك تتمنّى أن يغمى عليك في ساحة الكونكورد هناك ؟أم هل عساك نسيتَ ؟!..ألا تريد أن تزورَ اللوفر وكاتدرائية نوتردام..ألم تكن تمنّي نفسَك بالتسكّع في ساحة برج إيفل ؟!

أمسك برأسه بين يديه وأطرق هنيهة..قال بعدها في يأس :

– لا أستطيع..ولا أجد ما أُقنعكِ به..كل ما أستطيعه هو الرجوع إلى بلدي..أنا لا أنتمي لهذا المكان تانيا..

– تهرب بعيداً عني ؟!..لا يمكن أن تتركني وترحل..

ما زال لديّ الكثير لأقولَه لك، لمن أخبره ؟..

إذا توقفتُ عن حبك مَنْ سوف أحب؟..

مثلَ حجرٍ ثقيلٍ ملقى في إهمال ظل صامتاً..أشاح ببصره بعيداً عنها.. لم يحتمل رؤيةً انكساره معكوساً في عينيها..هل سيهربُ منها بعد الوصول إليها ؟..لقد دخلتْ حياتَه مثل فجرٍ جميلٍ..كعصفة ريحٍ أو نفحة هواءٍ تُنعش فؤادَه وتجلب الابتسامة لشفتيه..دخلتْ مناطقَ في نفسه لم يطرقها أحدٌ قبلها .– تعلمين أني وقعتُ في حبِّ روعتك، وأنّي بسببك أنتِ نسيتُ كلَّ شيء.. وأنكِ منحتني سبباً كي أكون سعيداً..وأني لا أريد سِوى أن تُمسكَي بيدي كلّ يوم كما تفعلين معي..لكن ما يحدث داخلي شيءٌ آخر تانيا..شيءٌ لا أعرفه.. ولا أقدرُ على احتماله .

– إذا حدث شيءٌ لك فلن يكونَ لي مكانٌ في هذا العالم..حبُّك هو ضوءُ القمر الذي يضيءُ على قلبي..لا تغادرْني أرجوك..

ثم جعلتْ تترنّم بأغنية يونانية لـلمغنّي الشهير (باسخاليس) كانا يردّدانها..تقول كلماتها :

" أنتَ حبّي وغروري..

أعذرني إذ أحببتك كثيراً ..

لكنني لا أستطيع أن أحبَّك أقل ..

لا تذهب يا حبيبي ..

سأكون كالأعمى عندما تغادرني ..

في مثل هذا اليوم كُسر قلبي ... "

تهدج صوتُها..طغى النشيجُ على الجلسة..ضاعتْ الكلماتُ بين العيون الغائمة .

ما سرُّ هذا الوطن الذي لم تفلحْ تانيا رفيقةُ قلبه في إقناعه بالتخلي عنه شهراً إضافيّاً..سرٌّ أغمد بقلبه شوقاً عارماً يقرع طبولَه في وجدانه..

حاولتْ تلك الفرنسية بكل السبل أن تبقيه بجانبها هناك..قالت إنها ستطلب من جدِّها ليجدَ له عملاً في مصنع الأحذية الذي يملكه بأطراف أثينا..وقد تتاح له فرصة مواصلة دراساته في الموسيقى أو الرسم أو الانتساب لجامعة أثينا..قدمتْ له أكثر من إغراء حين دعته للذهاب معها لفرنسا والعيش في باريس التي كان يحدّثها باستمرار عن لهفته عليها ..

لم يستطع قلبُه بكل مشاعره ولا انبهارُه بتلك الأضواء والأرصفة المبللة بالمطر والدفء والابتسام أن يقطعَ الأواصرَ التي تربطهبوطنه الذي بات يحسّه ألصقَ به من كل شيء، وأوثقَ صلةً بروحه وفكره، ولا يطمح في أكثر من أن يعيش هناك في دروبه التي شهدتْ نبضاتِ قلبه البكر وأعراسه ونزقه وشقاوته وطفولته، وسجّلتْ تفاصيلَه السرية وتقافزَه البريءَ خلالها..ولا يريد سوى الموتَ هناك ويُوارى فيه جثمانه.

" أحدٌ ما..في مكانٍ ما سيكون لك "..

عبارة قذفتها تانيا الفرنسية في حواسّه ذات وداع، ما فتئ يذكرها بمرارة كلما ازدادتْ العتمةُ أمامه..

"اطمئنّي تانيا..لا أحدَهنا يستطيع الولوج إلى داخلي المقفر..من أين لي بنعيم مثل هذا ؟! " .

(١٢)

أمينة هي الوحيدةُ التي يسمحُ لي جميعُ مَنْ في البيت بمرافقتها إلى المدرسة أو الأوبة منها، أو في مراتٍ قليلة حين أزورها في بيتهم..هم يثقون بها كثيراً، وبالرغم من تقاربنا في العمر إلا أنها كانت تبدو أكبرَ مني سنّاً وأكثرَ نضجاً، فكنتُ أمازحها بلقب (العزوز)..فهي – وبالرغم مما يعتريها من جنون يشبه جنوني– إلا أنها تمثل النسخةَ المعتادةَ للفتاة الليبية التي تعيش مع أنوثتها بانسجام واعتادتْ الحياةَ بين الشقوق والجدران بصبر خرافيٍ يضاهي صبرَ القدّيسات "..

لكن أمينة لم تكن على علم بما قرَّ عليه رأيي..فلم يكن مظهرُ (حسن) الخارجي على علاقة بما يمكن أن يكون في داخله..قهرتْني الصدمةُ المذهلة التي كانت تغلّف تصرّفاتِه..لقد ظنَّ في لحظة ضعف منِّي أني سأكون طوعَ أفكاره البالية وسأوقّع له على صكٍّ أبيعُه بمقتضاه قلبي ومشاعري دونما شروط، لكنه نسي أني تسلّمتُ مقاليدَ قلبي، وألاّ أحدَ يستطيع العبثَ به بسهولة، وبأن باستطاعتي إدارته كما أبغي وينبغي..وأني لم أعُدْ أتهيّبُ سوطَ شهرزاد وجعجعتَه .

اكتشفتُ مع مرور الأيام أن (حسن) لا يستطيع التخلّصَ من عُقد الماضي الذي ورثه عن أبيه عن جده عن جده..وكأن اقترابي منه وإعجابي بصمته وعزوفه عن المشاكسات الجوفاء وبعض مواصفاته يبيح له امتلاكي والتصرفَ في عواطفي،فيملئَ عليَّ قراراتِه المستفزة..ولن يكون من الصعب وأدُ هذه العلاقة من أولها..

(حسن) لم يكن لي..لم يتمكّن من الفوز بقلبي مجّاناً..ولن أكونَ له بهذه العقلية التي ران عليها الكَلَس وهذه الشروط المجحفة التي أملاها ضمن بنود ارتباطي به..

صارَحَني بها ذات لقاء عاصف..كان يظن أني سأوافقه وأتنازل عن مبادئَ عشتُ عمري كلَّه أناضل من أجلها، أواجه أعتى العقول الصخرية بكل قوتي..ولائي كان لتلك المفاهيم التي أتشبّثُ بها بقدر ما أوتيتُ من قوة حتى وإن بدتْ واهية ..

لا خروجَ بعد الزواج ولا عملَ ولا ولا ولا..أراد أن يمنحَ لهذه العلاقة اسماً مغايراً عن الاسم الذي أحتفظ به داخل جوانحي..لا يا سيدي..لا أظنُّ أن امرأةً تنظر لتصرفاتها بعين الرضا ترضى أن تقضي عمرَها كلَّه مع رجل تكفّنُ أفكارَه تجاربٌ مليئةٌ بالعبودية .

ما زالت تسكنني لحظةُ اضطرابِ ذلك اليوم الذي فارقتُ فيه حسن.. كأنه ألقى بحجر صلدٍ في أعماقي،عكّرَ كلَّ مزاجيَ..حوّل السكينةَ التي كنتُ أشعر بها إلى بركانٍ ثائر..سكينة تحولتْ إلى فرحٍ غامرٍ بهذا الحب الذي عشت

عمري أتمناه أن يحدث لي..

لكني شعرتُ برضا دفين حين خلّصتُ مشاعري ونفسي من هذا القيد الذي كان سيلازمني أياماً ثقالاً طوال حياتي..

وداعاً حسن..رغم أني ما زلت لا أتقبّل أن هذا كان شيئاً قاتلاً.. لكنني لستُ آسفةً على ما حلّ بي بقدر أسفي على عقلك الذي توغّل بك كثيراً في الجهل..شكراً لي لأني استطعتُ الإفلاتَ منك مبكراً..

– " قلت العين ايش امْبكّيها..ثاريت عزيز املاقيها "[1]..

تشاكسني أمينة..تعبث بأعصابي..تبعثر ما بداخلي من صمت تعرف أنه اصطناعي..ماذا حلّ بمسيرتك ؟..هل كان ذلك مضيعةً للوقت؟.

– لكنها كانت مضيعة للوقت رائعة !..هذا ما وصلنا إليه..أجبتها وأنا أصنع ضحكة ساخرة .

– كان عقاباً قاسياً لكما ..

– ماذا لو تحطمتْ الأحلام بحادث ما ؟!ما الذي يحدث حينها ؟!..لم يبقَ شيءٌ يثيرني في هذه العلاقة..عليَّ أن أواصلَ حياتي بدونها..

– يعني خلاص !!

سأحسبُها مجرَّدَ تنهيدة مثلَ سابقاتها .

---

(١) نوع من الشعر الشعبي يُطلق عليه (شتّاوة) .

(١٣)

شرع محمود يتابع شرطيَّ المرور وهو ينفخ في صفارته بما تبقى في صدره من نَفَس ويلفُّ كمروحة موصولة بالكهرباء..يقذف بذراعيه مشيراً لنهر السيارات ليواصلَ اندفاعَه المحموم فتصرخ العجلات والشرار يتفجر منها..

انطلق محمود بسيارته يتحرر من لحظات الوقوف المتوتّر التي قضاها سارحاً يفكر في تلك القائمة الطويلة من الواجبات التي ينبغي أن ينتهي منها قبل أن تتكدّس فوق بعضها فلا يستطيع الوفاء بها، ثمة وصفة دواء وضعها نصب عينه أمام المقود كي يصرفها هي الأولى، وبجانبها بطاقة تطعيم مطوية بإهمال أغفل موعدها،عليه أن يتأكد من تاريخ رجوعه بطفلته لأخذ الجرعة الموالية، ثم تحسّس جبينَه ليتأكد من بقية مواعيده المهمة..

حسناً..ثمة زيارة سريعة لأخته الأرملة سيؤجلها لما بعد العصر بعد حضوره عقد قران صديقه بالمسجد..وعليه أيضاً أن يعرّج على (مينا) السَّبَّاك القبطي ليتفق معه على موعد آخر لتغيير مواسير المطبخ..لا ضيرَ..سينتظر المطبخُ يوماً آخر!..وثمة دعوة لحضور حفل صغير تقيمه مدرسة صديقه الآخر بمناسبة لم يعد يذكرها، سيعتذر عنها..

لكنه لا يستطيع الفكاكَ من واجبات البيت ومتطلباته..أو الهروب منها..كلُّ حروبه وخصوماته التي تكون مع عائلته في بيته يخسرها جميعاً.. وسيضحّي ببعض أحلامه في مواجهتها ويتخلّى عن رغباته الصغيرة..

حين ركن سيارتَه أمام مقر الصحيفة أحسّ بشيء يكبّل خطواتِه ويرغمه على التوقُّف..محاولاً الهروبَ من واجبات ذلك اليوم الثقيل من أيام الصحيفة..يوم البروفة الأخيرة والإخراج النهائي للعدد..عليه أن يدسَّ عينيه في كل حرف من حروف صفحاتها..فرئيسُ التحرير صديقُه الشاعر في رحلة خارج البلاد لحضور ندوةٍ عربية حول القصة، وعليه أن يتولى كتابةَ الافتتاحية بالصفحة الأولى، تلك الصفحة التي كان يكرهها من بين كل الصفحات، ولا يتصفحها في أي صحيفة يطالعها، بل يكتفي بالمرور على مانشيتّاتها دون فهم ووعي..

القائمة تطول والحمل يثقل وصديقه ورّطه في إدارة الصحيفة من بعده،وهو يعلم أنه لا طاقةَ له بذلك،وليس في مقدوره تحمّل أدنى مسؤولية.. وينبغي عليه قبلها أن يتحمّلَ ثرثرةَ طقم الإخراج وتخاصمَهم حول توزيع الصفحات بينهم، وانتظار مشرف صفحة التراث الشاعر البوهيمي الذي يصحو بعد الظهر ويأتي متأخراً،محتضناً كوبَ الماكياطة وسيجارته المشتعلة المزروعة أبداً بين شفتيه!..ولا ينسى مجاملةَ مشرف صفحة الأدب الأستاذ المتقاعد بنظّارته السميكة، سيساعده في فكّ خطوط بعض المشاركين وانتقاء ما يصلح للنشر في الصفحة، ويكملُ معه الردَّ على بريد القراء واختيار

بعض الرسوم المصاحبة لإنتاجهم الأدبي..وفوق كل ذلك عليه أن يتمتع بصبر عظيم في إدارة صفحة الإعلانات وتعديل الأسماء والأعمار ومناطيق الأحكام الصادرة من المحكمة لنشرها تباعاً ..

غمره إحساسٌ بالشفقة على صديقه رئيس التحرير، مستغرباً قدرتَه على تسيير هذا الحقل المترامي المليء بالألغام باقتدار خرافي ومرونة لا تضاهيها سوى وظيفة أمين الأمم المتحدة!..صديقه كاتب مرموق ويعلم أنه مشروعُ روائي كبير، لكنهلم يتمكّن من كتابة روايةٍ واحدة طوال توليه إدارة هذه الصحيفة التي جعل منها وحدها مشروعَه الأدبيَّ والثقافيّ الأوحد..في لحظات لقائهم في جلسات أدبية كان يقول لمن حوله : يرعبني أحياناً الشعور بأني لم أكتب بعدُ روايتي التي أريد..كم تأخذني غيرةٌ من الآخرين الذين يعرضون عليّ مخطوطات إنتاجهم لغرض نقدها أو تصحيحها أو وضع مقدمةٍ لها،حين أتسلّم مخطوطة أحدِهم أفرحُ له وأحزنُ لنفسي، لأنني لستُ أنانيّاً بما فيه الكفاية فأهتمُّ لنفسي..لكنه كان وعند نهاية حديثه حول ذلك يلتمس العزاءَ بأنه يشاركُ في إقامة بنيانِ ثقافةٍ جديدة ولو بلَبناتِ الآخرين.. لقد بات مقتنعاً أن الصحافةَ هي مقبرةٌ كبيرة تدفن مواهبَ المبدعين، لأنها تشغلهم عن إبداعاتهم بالاهتمام بإنتاج الآخرين..كان صديقه الكاتب يسائلُه في لحظات انفرادهما : ألا تَراني أتخذ ذلك ذريعةً لتبرير الكسل أو إيثار الراحة وطلب الرفاهية ؟ .

تناهى إليه الضجيج من قاعة التحرير..صعد الدَّرجَ بانكسار وتباطؤ، مهيئاً أعصابه لقضاء لحظات عسيرة هذا الصباح..مُخفياً توتُّره خلف ابتسامة دبلوماسية ولفافة سجائر يعبق دخانها تداري ضيقَه..ألقى تحيةً على الموجودين على عجل ثم احتواه المكتب.

– " تأخر المخرج "..جملة قابله بها مشرف الصفحة الرياضية بنفاد صبر وقذف أمامه على المنضدة ملفاً منتفخاً بالصور والقصّاصات..كان ذلك أولَ زائر يقتحم عليه المكان ويغادر متنرفزاً.

– إذا حضر جنابه اتصلوا بي..لم أعُد أحتمل انتظاراً أكثر !..أردف مشرف الصفحة بغيظ واستدار مغادراً مقر الصحيفة..

اعتدل محمود في كرسيّه ومشروع ابتسامة ذبلت بين شفتيه..أشعل لفّافةً ومدّ يدَه بآلية للملف الطافح بالأوراق أمامه،ترك رئيسُ التحرير فوقه قصّاصةً كتب عليها بخط عريض المقالات والتحقيقات المؤجلة..أدناه منه..شرع يمسح بعينيه – وبغير اكتراث – بعضَ الأوراق والصور،يمرّ على الحروف ويقلّب الصورَ المرفقة بضجر، ثم غرز بصرَه في ورقة كُتب بأعلاها بالخط الأحمر عبارة تقول: "أرجو إثبات حسن نياتكم مع قرائكم فلا تضلّ هذه الوريقة طريقَها إلى صفحات جريدتكم فتلقى مصيرَها في سلة المهملات "..جذبها من الملف برفق ولفت نظره عنوان المقالة ردّ على صاحب مقالة المرأة – الجارية..عرف أن الردَّ يخصُّه، فهو الذي كتب في عموده الأسبوعي مقالةً بهذا العنوان ردّاً على ممرضة تونسية متعجرفة التقاها في إحدى العيادات

الخاصة، عاملتْ المتردّدين الليبيين بغلظة وغرور، مشرعةً دخانَ سيجارتها في وجوههم إمعاناً في اختراق مبادئهم البكر ونظرتهم التقليدية للمرأة .

وقبل أن يشرع في قراءتها قاده فضولُه أن يمرَّ على آخر المقالة ليعرفَ صاحبَ المقال، فأدهشه أن يكون موقّعاً باسم ميسون..

- حسناً يا ميسون..ماذا تقولين؟!..

جعل يقرأ الديباجة باندهاش،ثم تابع ما جاء في سطورها :

" وتقول في غضون مقالك : تذكَّري أنك امرأة..لا تنسَي ذلك!..لا يا سيدي..لم أنسَ أنَّني امرأة ! ذلك المخلوقُ العاجزُ البليد، الذي لا يُسمح له بإرادة،بل عليه أن ينتظر إرادةَ (سي السيِّد)..مخلوقٌ لا يُؤذنُ له بإبداء أيِّ حركة،بل عليه أن يجلس نافدَ الصبر يترقّبُ الحركةَ التي يبديها الرجل.. لم أنسَ إني امرأة..ذلك الطائرُ الذي يمكث في أحضان الشجر يغرِّد على الأغصان في انتظار الصياد القادم..تلك هي المرأة للأسف التي صنعها خيالٌ مريضٌ لرجلٍ يعدُّ نفسَه في مقدمة حاملي لواء الفكر والنهضة والتقدم!.. لا يا عزيزي..أنت من ينبغي أن يتذكّر أن تكون للمرأة اليوم إرادة..نحن نطالب بحقوقٍ مساوية لحقوق الرجل في المجتمع والسياسية،فكيف يمكن لأحلامنا أن تتحقق ونحن لا نملك بعدُ الحقَّ في أن نعلن إرادتَنا ونواجهَ الرجلَ ونقولَ له ..... "

حكَّ محمود ذقنَه بعصبية..اجتزَّ حاجبيه بأظافره..أشعل لفافةً أخرى.. ضيّق عينيه أكثرَ متمعّناً في هذه النار الاصطناعية التي أوقدتها المدعوّة

ميسون في الورقة..ففكرة مقالته التي ردّتْ عليها لم يكن ذلك مسارَها الفعلي، ولم يكن القصد منها المرأةَ بشكلٍ عام، بل كان ردَّ فعل عنيف على تلك التونسية المتعجرفةِ، وقال في مقاله : إنها فرّطتْ في الحرية التي نالتها بعد جهد وكفاح ونضال، وأن المؤسساتِ الأوائلَ لو كُنَّ يعْلمنَ بمقدار هذا التصرّف في الحرية على يد حفيداتهنّ لاعتكفْنَ في بيوتهن واسندن ظهورهَنَّ إلى رجالهن بدل هذا التفسّخ والتهتّك بحجة حرية المرأة..إنها زوبعةٌ أرادتْ كاتبة المقال أن تحقق شيئاً من ورائها، إن لم يكن الشهرة ولفت الانتباه إليها وتوجيه بعض الأضواء نحوها، فبالتأكيد النيْل منه ومن عموده الذي ظل عاكفاً عليه ردحاً من الزمن لم يتوقّف في أسوأ ظروفه وحالاته وانشغاله .

– " ما علينا "!..هناك شيءٌ يستحق القراءة..لنتابع..هتف بذلك بصوت مسموع بعد أن عدّل من جلسته ورشف آخرَ ما بقي في كوب الماكياطة أمامه،وواصل :

" من حقّك أن تقولَ " لا " في مواجهتي متى شئتَ وكيف شئتَ لأنك رجل..ذاك الكائن الذي تعوّد الشجاعةَ والقدرةَ على تحمّل تبعات تصرفاته ونتائج رغباته..لكن يؤسفني جداً أن أشعرَ بأني حبيسةُ ذلك الوهم الذي نسجتْه الأجيالُ عن ضعفنا وعجزنا عن مجابهة الحقائق وتحمّل النتائج، وأني سجينةُ ذلك البهتانِ والكذب والسخف الذي ألبسنا إياه خيالُ الرجال،فجعل منا مخلوقات أشبه بعرائس (باربي)..أجسامُها من معدنٍ رقيق وأثوابُها من ورق شفاف معطّر،شأنها شأن اللعبة التي تعمل

بالبطّارية،لا تتحرك إلا بيد الرجل،ولا تتحمّل أكثرَ من لمسةٍ من أصابعه..لا يا سيدي..لقد آن الأوان أن تكون لي إرادةٌ أُواجهُ بها إرادتَك..ولن أكتفي بالعيش بتلك الأفكار المتداولة كبقية العاجزات..ثم لماذا لا تدهشك أمنا خديجة بنت خويلد وهي التي عرضتْ نفسها على سيدنا محمد،ولم يكنْ بعدُ نبيّاًولا شهيراً، بل كان شابّاً مغموراً فقيراً، لكنها أُعجبتْ بخلقه وأمانته واستقامته،فسعتْ هي إليه وسألتْهُ هل يقبلها زوجة ؟..إنّ هذا مكتوبٌ في كل كتب السيرة..أولستَ تقول إنك تقرأ التاريخ ؟ ".

- " يا سلام !!..".

قالها من زاوية فمه، مطوّحا برأسه إلى الوراء..ثم أردف :

حسناً يا ميسون..سيكون لك ما تريدين..ستنشر جريدتُنا الغرَّاءُ مقالتَك على صفحاتها..وقد يساعدكِ ذلك على فكّ بعض ما أُبتُليتِ به من عُقد،فلا تبتئسي !.

المقالةُ أوقدتْ ناراً لم يخمدْ أوارُها في صدره منذ سطورها الأولى..ظل متشبثاً بحروفها حرفاً حرفاً..ولكن من تكون هذه الموتورة ؟!..وهل هي فعلاً أنثى؟ أم أن (ذَكَراً) يختبئ خلف هذا الاسم هروباً من المواجهة..وهل حقاً تجرأ كثيراً على المرأة في مقالته السابقة، أم أنها المكيدة والبحث عن الشهرة والإثارة بأرخص السبل وأسهل الطرق؟!..

قلّب الورقَ أمامه مواصلاً القراءة..لكنَّ مخرجَ الصحيفة دخل عليه مستأذناً .

– أستاذ محمود..في انتظار عمودك الأسبوعي..اعطنِ (الفلاش) من فضلك..

– العمود !.. يااااه !..لقد نسيتُه..هل تصدّق ؟!

– وما العمل ؟!

– لا بأس..خذ هذا المقالَ وانشره في نفس المكان..لكن اُكتب قبله هذه العبارة وبالبنط الداكن المائل وبين قوسين : المحرر يثبت لكاتبة المقال حسن نية الصحيفة تجاه الجميع، وينشره في حيّز عموده الأسبوعي،وكما ورد بنفس أخطائه النحوية والإملائية، وخلوِّه من علامات الترقيم !.

(١٤)

بالرغم من مشاغله الكثيرة..في الجامعة وفي البيت وفي منتديات أصدقائه الصغيرة المبعثرة هنا وهناك، إلا أن الدكتور ناجي كان في مقدوره الاحتيال على وقته كي يختلسَ القليلَ منه لطباعة أوراق محمود فاضل :

" كنتَ تروي لي حكاياتٍ جذلى عن المرافئ التي وطأتَها..والأماكن التي ارتدتَها..جنونها وفوضاها..غرائبها وأشكالها وطعمها..عن أنواع البشر التي تلتقي فيها..كأنك تؤرخ لكل التفاصيل التي تظنُّ أنك أنتَ دون سواك من يعرفها..

وكنتُ أسمعك بشغف..أجلس قبالتك في صمت، مثل تلميذة صغيرة في حضرة معلمها..لكنك كنت تفسح لي المجال كي أحدّثك أنا الأخرى..وأقول لك إن حكاياتي لا تضاهي حكاياتك ولا تشبهها..لكنّك تستحثني بإصرار..تثير شهيتي للحديث..تقول لي مشجّعاً إن سردَ الأحاديث للآخرين يساعد على ترتيب أفكار الكاتب عندما يكتب، فأحدّثك عن بيتنا الصغير وتفاصيل المناسبات العديدة التي كان تشهدها العائلة فيه..حفلات العرس والطهور وليلة الحناء،وغبطتنا بسهرات رمضان والتفافنا حول

النار وجلوسي قرب جدتي وهي تسرد حكاياتها الملوَّنة..أقول لك إني أسبق الجميعَ إلى فخذ جدتي..أتوكأ عليه فيغوص فيه مرفقي حتى العظم..تنهرني جدتي وتنفضني بقوة لتبعدني عن إيلامها..

أحدّثك بشوقي عن دميتي التي اشتراها لي خالي مرّة، حين صحبني مع بناته لسوق المدينة الكبير ..

أحدّثك عن (النقّيزة)[1]..وكيف كنّا نقضي ما بعد العصر كله في النطّ فوق خطوطها المحفورة على التراب، حتى نهرعَ إلى البيت نجلس أمام التلفزيون لنتابع في شغف مسلسلات الكرتون..وكيف كان الشارع يفرغ منَّا عندما يصيح أحدُهم معلناً عن موعد عرضها..الأصوات تخفت ثم تنقطع كلية..

وأجد نفسي أردّد دون وعي :

أفتح يا سمسم أبوابك نحن الأطفال..

سندباد .. بطل ..ثائر من بغداد ..

سنان يا سنان .. يا أحلى الأصدقاء ..

ما أحلى أن نعيش في حب ووئام ..

فلونة .. ماوكلي .. زينة .. السنافر وشرشبيل ..

وتردّد معي ما علِقَ برأسك حينها..(وضحكنا مثل طفلين معاً)[2].

---

(١) لعبة شعبية (عالمية) .

(٢) مقطع من قصيدة الأطلال لأم كلثوم .

وأقول لك ضاحكةً إني لم أكن أستطيع منعَ نفسي من البكاء عند رؤية مشهد يستولي على مشاعري، فتسري عدوى الحزن في جميع من بجواري.. وقد يتحول إلى بكاء بصوت مسموع !..

أروي لك كلَّ التفاصيل وكنتَ تضحك منِّي..وحين أعبس..كنتَتعرف كيف تُرضيني..لأنك كنتَ تسعى لتملأَ حياتي حباً.

وفيما كنتَ أنتَ تروي لي عن أغرب وأبعد المرافئ التي استقبلتْكَ..كنتُ أنا أحكي لك عن مدينتي التي لم أكن اعرف منها غيرَ شارعي والشارع الذي يقطنه خالي..أو الشوارع التي تفضي إلى مدرستي..الحي المجاور.. السوق المكتظ بالبضائع..المستشفى الكبير..قباب المساجد ومآذنها..لكني أحببتُها..كنتُ قد تورطتُ في عشقها.

إنها مدينة لا تحضنك بودّ..لكنها لا تتركك بسهولة..يقول البعض عنها أنك تأتيها تبكي وتخرج منها تبكي..وبين البكيتين مسافةٌ رائعةٌ مُترعةٌ بودّ كل المدن الدافئة..كلُّ شيءٍ فيها جميل إلا الحب..فهو الأقسى على الإطلاق.. هذا ما أدركتُه لاحقاً !.

ودعني أقول لك : قبلَك يا سيدي كان قلبي جزيرةً مهجورة..لم أكن أعرف كيف أقع في الحب..وقد كانت صدفةً غريبة صنعتْ حبّاً..بدأ كمزحة ثم تحوّل إلى هوس..

لكن ما نوعُ هذه المفاجأة ؟!

– آلو..صحيفة القلم !

– نعم .

– أريد مشرفَ صفحة الأدب التي تنشرون فيها مساهمات القرّاء.

– أنا هو..هل من خدمة ؟

– لديّ محاولة قصصية..قصة قصيرة أرجو أن تجدَ مكاناً في صحيفتكم..

وتسألني بخبث مفضوح عن اسمي وأرفض الإفصاحَ به..أقول لك إني أكتب باسم مستعار.وإذا لزِم الأمرُ لأي سبب فسأترك لإدارة الصحيفة اسمي !..

فرحتُ كثيراً حين رأيت قصتي (لمن ينتظر القلب) تتصدّر الصفحةَ مصحوبة بلوحة سريالية مدهشة..صارحتْني بعدها أنك حرصتَ على اختيارها من بين مجموعة رسومات اقترَحَها عليك أرشيف مخرج الصحيفة..

هل تذكر ؟! ..

اتصلتُ بك أشكرُك على اهتمامك بقصتي..ساعتها لم يكن كلانا يعرف ما يدور في رأس الآخر!.

(أحضرتُ مديحَ العالَم كله لأطري عليك)..قلتَ لي يومها إنه مدخلٌ مغرٍ لقصة وجدانية ..

ابتهجتُ أكثر حين قلتَ إني مشروعُ كاتبة جيدة..وقلتَ إن اللغةَ متدفّقة ومتماسكة ونهايتَها عبقرية، وإنك ستنشرها لطرافة فكرتها رغم بعض الافتعال والتشنّج في بعض عباراتها..واسترسلتَ في حديثك..قلتَ

لي: إن عشقكِ لفن القصة القصيرة يمكن أن يكون أحدَ أسباب نجاحك وإبداعك..وإن قراءاتي في هذا الفن ما زال دونَ القدر الكافي لصقل النحو والصرف..

ومنذها يا سيدَ قلبي تحوّلتُ إلى فأرة تقرض الكتبَ ليل نهار .

– هل تذكر أيضا ؟!

أنا أيضاً أكَّدْتُ لك أنَّني أتابع باهتمام ما تكتب على صفحات الجريدة.. ودارت بيننا عبارات المجاملة بعدها..حاول كلانا انتقاءها بعناية..

كنّا حينها – ودون أن ندري – كأننا نُملي علي بعضنا رسالة حب مغلفة !..اعترفتَ لي بعدها إن صوتي تغلغل في فؤادك، وأنك شعرتَ بشيء يجذبكَ من أذنك إليّ، وكيف أنك تمنيّتَ أن ترى صاحبةَ هذا الصوت وهذا القلم المتدفّق والجمل الفارهة الأنيقة على حدِّ زعمك!..ورجَوتَ ألا أكونَ نقطةَ ضعفك !.

كانت عباراتُك من الوسامة إلى الحدّ الذي جعلني أوافق على زيارتك في أقرب فرصة يتيحها لي رجالُ البيت..وعند أول فرصة..عند أشهر وأروع كذبة اقترفتها في حقِّ العائلة..خطفتُ رجلي لرؤيتك في الجريدة..كنتُ لا أعرفك..لم أرك من قبل..لم تكن تضع صورتَك بجوار مقالاتك كما يفعل الكثيرون..تعرفت على قلمك..ثم صوتِك،وها أنا ذي تلقاءَك أُحُثّ خطاي خلسةً كي أراك..لا يسعني انتظارَ نهارٍ آخر..جئتُ من غير موعد..

لكنني لم أخبرك بما حدث بيني وبين المرآة في غرفتي ذاك اليوم !..

أغلقتُ الحجرة..أفرغت خزانةَ ملابسي..أفردْتُ فساتيني على السرير..
أستعرضتُها واحداً واحداً..اخترتُ الأزرقَ المقلّم بالأبيض ودخلتُ فيه..
وقفتُ في مواجهة المرآة..مشطتُ شعري..غيرتُ تسريحته ثلاث مرات..
تناولتُ قلمَ الظلال..غمرتُ جفني بظل أزرق خفيف..وضعتُ الأحمرَ
والأبيض واللامع..وقفتُ أدور أمام المرآة..أقترب..أبتعد..أبتسم وأكشّر..
أفتح فمي وأغلقه..أكتشف أني قصيرة ونحيلة بصورة لافتة..سأنتقي حذاءً
عالي الكعب كي يناسبَ طولي وزني..أحتارُ فأجلس..تحين مني التفاتة إلى
فساتيني المبعثرة على السرير..تتوه عيني بينها..قد أرتدي ذاك القرمزي
المجلل بالأسود..الأسود والأحمر سأبدو فيه أكثرَ وقاراً.. لكن ذاك اللَّيلَكي
بحزامه الأصفر يبدو أحلى عندما أرتدي معه حذاءً تتقدمه فيونكة ذهبية..
بل لعل هذا الفستان الأرجواني لونه راقٍ للغاية..

أحتارُ أكثر..أقتعد حافةَ السرير..أقف محدثةً نفسي بصوت أسمعه : هل
أُعجبه ؟..هل أستحوذ على عينه ؟..أعرف أنه رأى الكثيرات ومسحت
عيناه الجميلات من مختلف البلاد..وأن له عينين تتحلّان بالتفرقة بين الجميل
والقبيح..هل..وهل..

ولكني أقاوم حيرتي التي تفاقمت وأخرج لملاقاتك..

وكم كانت خيبتي حين أخبروني أنك في المستشفى..قيل لي إنك مريض..
أردتُ أن أراك وتراني..لم أجد من يواسيني حينها..عدتُ أدراجي أمضغ
قهراً سيءَ المذاق !..كنتُ محتاجةً لأن يشاركني أحدٌ ما بعضَ ما أحسُّه .. ".

(١٥)

أكثرَ ما أثار حفيظتَها هو ذلك الأسلوبُ القاسي الذي قدّم به محمود فاضل مقالتَها التي أرادتْ من ورائها النَّيْل منه..نشرها بكل سوءاتها اللغوية والنحوية..وليته اكتفى بذلك..بل نوّه بتلك الأغلاط في سخرية..الأمر الذي جعل القراء يتابعونها أكثرَ مما جاء في متن المقالة..

ولعلّ أكثرَ الشامتين في خفاء كانت صديقتُها أمينة التي وجدتْها فرصةً لكسر حدة هذه الثقة التي توليها هدى لنفسها بطريقة مبالغٌ فيها ..

حدث ذلك حين بدا شيءٌ من الغيرة يدبُّ في نفس أمينة تجاه رفيقة عمرها هدى التي لاحظتْها تخطو خطوات واسعة صوب تفوّق كانتْ تفتقر إليه!..لم تكن تتوقّع أن تتمتّعَ زميلُتها في الجامعة بهذا القدر من الموهبة الدفينة وهذه القدرة الفائقة على التعبير التي كان محمود فاضل وراءها ..

لم تكن تدري أن هدى لديها من الكفاءة ما يجعلها تستجيب لعناية هذا الرجل بها..فلم يمرّ وقتٌ..حتى استطاعتْ أن تستحوذ على رجل صعبِ المراس طويلِ الخبرة بمواطن النساء.

عندما كانت هدى تحدّثها عنه وعن جنونه بها وتفرُّغ مشاعره بالكامل لها دون سواها،كانت تحسّ شيئاً غريباً ينهش بعضاً من روحها..ومع الوقت تحوّل هذا الشعور إلى غَيرة استحوذتْ عليها،ولم تستطع الفكاكَ منها..بل كانت تتراكم مع الأيام ..

شيئاً فشيئاً كانت ترى رفيقةَ دربها تتقدم عليها بأشواط طويلة..وكيف أنها انكبّتْ على القراءة بشهية غريبة..صارتْ تلتهم الكتبَ التي كانت تأتي بها من محمود فاضل، وتستبدلها بأخرى..كانت تتابع هدى، وتلاحظ مدى استيعابها لما تقرأ..وفوق ذلك صار لديها القدرة على مناقشة ما تقرأه بطريقة لم تعهدْها من قبل في صديقتها..كيف تحولت هدى إلى قارئة جيدة تقرأ وتستوعب وتجادل وتواجه الكثير من زملائها وزميلاتها بما قرأته.. تتجرأ على مجادلة بعض أساتذتها في الجامعة بنبرة أكثر ثقة..الأمر الذي جعل البعض منهم ينظرون إليها بكثير من الاطمئنان والتقدير وتحوز إعجابهم .

لا يُعقل أن يكون كل هذا حدث بفعل حب محمود لها!..هذا الحبُّ العنيفُ جعله يتبنى أفكارَها ويوجهه ويشيع في روحها ثقةً عزَّزتها الأيام فتحوّلتْ إلى تفوّق بدا يميّزها عليها وعلى بقية طالبات الدراسات العليا ..

أمينة هي الأخرى كانت تقلّب قلبَها في تجارب عديدة..معظمُها كان يتم من وراء صديقتها هدى، علاقات لم تمنح قلبَها الوقتَ الكافي لتنضجَ فيه على مهل..فكل ما كان يهمُّها أن يكون هناك رجل يحبها ويهتم بها ويصرف كلَّ فكره ووقته لها..مثل ما جرى لرفيقتها هدى ..

– لقد حذّرتُكِ يا عزيزتي..هذه لعبةُ كبار..وليستْ لعبتكِ ..

– ومن يقول ذلك ؟!

– الواقع..المنطق..

– لكنّي وضعته في حجمه الطبيعي..لا تنسَي ذلك ..

– أي حجم ذلك الذي تدّعيه ؟..دعي عنكِ هذا الهراءَ يا هدى منصور.. مقالٌ في أكثر من صفحة..استطاع محمود فاضل أن ينسفَه بنصف سطر..هل تعلمين ما الذي حصل بعدها ؟..الذي حصل أن القارئ صار يركّز على الأخطاء النحوية والإملائية والبلاغية ويتتبّعها أكثر من فكرة المقال نفسها .

– لكنّي قلتُ ما أريده..وهذا يكفي..

– أو تظنين أنه يكفي ؟!

– إن كان هذا لا يكفي فانتظري المقال القادم ..

– لن ينشرَه لك..

– بل سينشره..وسترين !

– وهل يعلمُ أنكِ ميسون ؟.

– لا أظنّ أنه يدري ..

– سأخبره أنا ..

– لا لن تفعلي طبعاً ..

– وهل تعتقدين أن إدارة الصحيفة سترضى بنشر ما تكتبينه ضده حتى وإن كنتِ ميسون..إنهم لا يرضون بأي حال أن يسيئوا لرفيق لهم على صفحات جريدتهم.

– لكنهم يدّعون أن حقَّ الردّ مكفول!.

(١٦)

أشعل محمودُ سيجارتَه الثانية..وبسط المقالَ التي بعثتْ به ميسون وطفق يقرأه بصوت مسموع على صديقه رئيس التحرير وهما يحتسيان القهوة، وظلُّ ابتسامة ساخرة ما زالت تستقر على محياهما :

ومن يقول لك أيها اللغويُّ النحريرُ وفهّامةَ عصرِه إن الإبداعَ الفكريَّ يتأثر بتجاوز قاعدة نحوية هنا أو خطأ صرفي، أو نسيان علامة ترقيم؟..لماذا لم تدعْ للقارئ الكريم – الذي لا يجوز لك أن تتحدث باسمه – أن يقرأَ بذوقه ويتمعَّنَ في الكلمات وليس في القافية والإعراب ومكان الفاصلة والقاطعة وعلامة التعجّب!..ومن يقول لك إن معلّمَ اللغة العربية هو بالضرورة شاعرٌ تنحني له القوافي وتلين تحت يده الحروف وتطاوعه كما يريد؟..وكم هم مدرسُّو اللغة الذين يتعبّدون قواعدَ النحو والصرف والإملاء ملؤوا أسماعَ الدنيا بإبداعهم وتوزعّتْ دواوينُهم على شفاه القراء في ربوع الدنيا!..ومن

يستطيع أن يثبتَ أن كلَّ هؤلاء المبدعين الذين أثرَوا وجدانَ الناس في كل مكان هم من خرّيجي مدرستك التي تعلّم اللغةَ ولا شيءَ سواها!..فبعضُهم يا سيّد (سيبويه) لم يكمل تعليمَه الابتدائيَّ أو الإعداديِّ وملأ الدنيا وشغل الناسَ..وهل سيتكرّم القارئُ المبجل بشطب كاتب ما من قاموسه أو إبعادِه من دائرة إعجابه لمجرّد أنه نسي مكانَ همزة القطع واستبدلها بهمزة وصل.. وما هو المعنى الخطير الذي يتغيّر إن جاءت قصيدةٌ لنزار خاليةً من النقط أو الفواصل..ألسنا نحفظها بدون فواصل وقاطعات وعلامات استفهام وتعجّب!.بل كيف نقرأ شعرَ الكبار الناطقين بغير العربية..هل يكتبونه معرباً هم أيضاً !..

حتى القاموس اللغوي والمجامع اللغوية ما زالت تعالج الهمزةَ ووضعها على النبرة وتضطرب آراؤها حول الحل الأخير لمكانها على الحروف!..على أني لا أنكر أن اللغةَ مهمةٌ ولها دورُها المهمُّ أيضاً في النص الأدبي، لكنها ليستْ هي كلَّ النص..أنا مثلُك عربيةُ الأرومة واللسان والحرف، ولا أكتبُ بغير العربية، لكنَّني لا أحتفي بها بهذه المبالغة..دع عنك هذا الذي يختفي خلفه العاجزون من أنصار اللغة الذين لا يجيدون شيئاً سوى إعراب كلمات الآخرين وصرفها، أو البحث بعدساتهم المكبرة عن مواضع الفاصلة والقاطعة وعلامة التعجّب..إنهم يقتاتون على أخطاء الآخرين..الآخرين

المبدعين..ودعني أعيدُ لك أيها السيد ما قاله أحدهم : إنه لا انقلابات عظيمة كانقلابات اللغة..فلا تغرُرْك هذه القوالبُ الجامدة، ولا تعوِّل كثيراً على ما يحتفظ به رأسُك عنها!.

تبادل محمود وسعيد النظرات ومشروع ابتسامة تكتسي وجهيهما..نحّى محمود المقال جانباً والتفت إلى صديقه رئيس التحرير :

– يبدو أن ميسون تُشهرُ سيفَ التحدّي..ما رأيك أيها الشاعر المتخصص في العربية ؟

– هي لا تهاجم العربيةَ رغم أخطائها اللغوية الواضحة، وهذا طبعاً لايبرر الكتابة بأخطاء نحوية أو إملائية..لكنَّني أرى أنها تهاجم شخصَك من خلال هذه التورية..هل تعرف صاحبةَ هذا المقال؟.

– لا .. لم يتسنَّ لي التعرف عليها ..

– المقال جيد..وفكرته جريئة..وصحيفتُنا ليستْ وصيةً على اللغة العربية ولا تمانع في نشر رأيٍ كهذا مهما كان صادماً .

– سننشره إذن ..

لم تنم هدى ليلَتها..صارت تقرأ المقالَ مرةً تلو مرة..متخيَّلة ما نشب من خلاف بين محمود فاضل ورئيس تحرير الصحيفة حول نشر المقالة..وكيف

تدخّل بعضُ المحررين لإقناعه بالرد عليها كما ينبغي وكما تقتضي الأصول في الصحافة..ظلت ابتسامةُ تشفٍّ تظلل شفتيها حتى وقتٍ متأخر تلك الليلة!.
وتوالتْ مقالات ميسون..وتوالى الردُّ عليها !..

(١٧)

قريباً من سنة قضاها محمود جندياً مقاتلاً في الجبهة..وجد نفسَه يخوض غمارَحرب غريبة مغمضَ العينين..كيف قذفَ به قدرُه في أتون هذه الحرب التي يقول قادتها إنهم يريدون السلام من ورائها !..حرب لم يكن يوماً من رجالها..تحوَّل فيها من كائن بشري إلى رقم ورمزمحفور علَى قلادة تتدلَّى من رقبته..حربٍ لا يعرف لماذا ذهب إليها..لكنه يعرف كيف عاد منها..كان في كل مرة يقفُ على ضفة الموت..يقتربُ منه..يلمسُه ويعود سالماً!..أعصابه تنهار كل ثانية ليل نهار..فلم تتعوّد عيناه رؤيةَ الأشلاء والأطراف المبتورة والوجوه المشوهة المحروقة والأوصال المقطعة..وأنينَ الرجال وصراخَهم وهم يتّقون الحربَ ورائحةَ الموت..وكيف استطاع خلالها أن يتحدّثَ لغةَ البندقية والإيعازاتِ التي تشبه الطلاسم..

كلُّ مساء يعود إلى خندقه – القبر مهشّمَ الروح..مشتّتَ الفكر..منسحقَ الفؤاد..

" أَلمثلِ ذلك ولدتْني أمِّي؟..أذلك ما تراه فيَّ آلةُ الحرب وما تبغيه منِّي؟..أمِن أجلِ هذا منَحني الوطنُ أوراق هوِّيتي؟..

والذي درستُه في بلادي في المدارس وتلقيته في الكتّاب وفي أوروبا..وما تعلمته من الكتب التي طالعتها..والأفكار التي عشَّشتْ في رأسي ومفردات

اللغة التي احتشدتْ فيه..اللوحات التي رسمتُها..الأغاني التي صدحتْ بها حنجرتي..الآمالُ التي نبتت في قلبي..القسوةُ التي عانيتها مع نفسي ومع الآخرين في سبيل التقدُّم شبراً حقيقيًّا واحداً صوبَ حياة أكثرَ إقناعاً..هل كلُّ ذلك لاشيءَ على الإطلاق في حسابات الحرب ومشعلي فتيلها وتجَّارها ؟!..ألمجد الوطن ؟..أفي سبيل الحرية ؟!..ألا يمكن صناعة التاريخ بدون قتال !..وإلى متى يظلُّ السُّذَّج وقودَ هذه الحرية المزعومة !''.

ما انفكَّ هذا المنولوج يتردَّدُ داخله منذ خطواته الأولى في أرض تشاد البعيدة..

وشيئاً فشيئاً اضطُرَّ لمعايشة تلك الصور والحوادث التي تحدث أمامه وبصور متفرقة..صار عليه أن يؤمن بأنه عاش عمراً قبل هذا العمر وأخطأه الموتُ عدة مرات..فلا ينبغي أن يتهرب من قدره، بل يتقبله راضياً..لأنه إن هرب منه اليوم فلن يهرب منه غداً أو بعد غد..وهذه النار التي اشتعلتْ لن يطفئها تذمُّره منها..بل يطفئها نفادُ الوقود عند أحد طرفي العناد، والوقود هو الرجال والمال..فلماذا لا يجود بنفسه مادام غيرُه يجودون بأنفسهم..وبأي حقٍّ يريد أن يفتديه الغيرُ بحياتهِ!..

اختفت الشكاوى مثل دخّان..مع توالي الأيام الثقال تقبَّل محمود فاضل الأمر..صار يشارك في حفر المقابر الجماعية ودفن الموتى وجمع قلادات الأرقام من رقابهم..ووداع رفاقه، الذين كان بعضهم يهازحه الليلةَ البارحة أو يتخاصم معه حول قطعة ظل دبابة أو شاحنة يأوي إليه من حر النهار، أو زيادة حصته من الماء..أو كوب شاي، أو يخالفه رأياً ما..

يبكي حتى تتشّقق عيناه حزناً، لكنه يجد نفسه مستعداً ليوم آخرَ أسوأ من سابقه..فتخفت حدة الحزن في نفسه..بات أقصى أمنياته أن تمنحه الحربُ فرصةً أخرى للحياة يوماً آخر..لا ليعيشَ فقط، بل ليرى شيئاً آخرَ.

في الصباح يستيقظ متأخراً دون بقية الفصيل مثل كائن مهمل..وحين يجد أنَّ ثمة أنفاساً تتردد في صدره..يحسُّ بأمل يتمدّدُ في روحه وأنه عاد من الموت بأعجوبة، ويفسح لأحلامه أن تنتعش قليلاً..

يفتح السَّحَّاب الذي يلف كيس النوم العسكري..يقشّره عن جسده مثل قوقعة..يتحسّس بندقيتَه القابعة بجواره..يدسُّ يدَه تحت فراشه ليسحب سيجارة جهّزها البارحة..يشعلها ويخبئ دخانَها في صدره قبل أن يغادر خندقه – القبر ويدعسَ عقرباً أصفرَ ألجأه البردُ إلى خندقه الدافئ واختبأ تحت كيس نومِه..لم يعُد يبالي بهذه الكائنات الكريهة..حين صار كلُّ ما حوله كريهاً!.

يبذل جهداً في النهوض من قبره..يتمطَّى في كسل..يبحث عن كوب شاي تركه له رفاقه في قعر البرّاد على رماد نار خبتْ من ساعات..يشربها دون شهية ممزوجة برائحة التبغ الحادة..لكنه يظل يبحث بقية نهاره عن أيِّ سبب يقوده للضحك والابتسام..يجد الوقت للتندّر من صديقه مفتاح أو التعليق على الآخرين..يطبخ لهم طعامَهم..يسرّي عنهم بالغناء أو يلاعبهم الورق..يريهم خدعَ الكارطة التي تعلمها..يحكي لهم كلَ شيء..يروي لهم نُكتاً..يسرد أطرفَ المواقف التي تعثّر بها في حياته..لا يكفُّ فمُه عن الكلام إلا مع قدوم الليل، عندما يموت النهار وسط ظلمة لا تشبه أي ظلمة..حيث ينام الجميع ويظل هو واقفاً وحده مثل خشبة يحرس الفصيلَ في نوبة الحراسة الليلية ..

كلُّ هواجس الدنيا تهجم عليه دفعةً واحدة..يحاول أن يجمّع في ذاكرته ملامح وتقاسيم ابنتيه الصغيرتين اللتين ترك أكبرهما تتهجّى أولى خطواتها.. لكنه كان في كل مرة يخفق في تجميع الصورة كاملة..لقد نسي ملامحهما تماماً..

ما أطولَ الليل عليه..وهو الذي عرف جيّداً طعمَ النهار في ما مضى من عمره..هذا الليل الغامضُ ليس كأيِّ ليل..ليلٌ لا يشفق على أحد..بات يكرهه ويكره ما يجيء به من قهر ووحدة وتذكّر..وتيهٍ في مفازاتٍ غريبة.. يأتي محمّلاً بالأفكار المزعجة والهواجس والموت..يأتي بجماعة (حسين هبري) الذين يتسلّلون في عصابات خاطفة إلى قوات الليبيين ليلاً، ويذبحون رفاقه في أكياس نومهم..هم لا يستطيعون شنَّ هجوم منظّم بالنهار نظراً للفارق في القوة والعتاد والتنظيم..رجال عصابات يحاربون تحت إمرة قائد عنيد يقضي أيّامه على ظهر عربة حربية لا يترجّل منها .

في الثكنات ثمة بشر جعل منهم القادة العسكريون دُمَى ولُعبًا وذبائحَ تقدّمها لسُلطة الطواغيت..هذه الدُّمَى البشرية لا تملك من أمرها غيرَ واجبِ الطاعة العمياء الخرساء، فلا حقَّ لها في الصياح أو الشكوى أو التذمّر مهما تكُن المهام المنوطة بها..وهو هنا رقم مُهمل كرفاقه الآخرين..مَهمَّتُه زرعُ الموت وحصدُه عند الحاجة..كي تثقلَ أكتافُ رؤسائه بالنياشين والرتب العالية..ويا لها من مهمة !..

ما حدث بعدها انتصارٌ رخيص..حيث الغلبةُ أضحتْ لجيش بلاده الذي خاض حرباً غيرَ متكافئة مع العصابات المسلَّحة، متحصناً بترسانة خرافية من العدد والعتاد والتموين والتدريب..فاستتبّتْ الأمور للقوات الليبية.. هدأ كلُّ شيء وانزاح خطرُ هبري الذي فرَّ إلى أفريقيا الوسطى،وابتعد الليبيون كثيراً عن مرمى أسلحة عصاباته القليلة..

أخذتْ الحياةُ تأخذ منحَىً آخرَ واستقرتْ الأوضاعُ وتقلصتْ العديد من الفواجع والآلام والأخبار السيئة..لكن ثمة إحساس بداخله يقول له إن ليبيا ستدفع ثمنَ هذا الانتصار الرخيص يوماً !.

صارت طائرات (اليوشن وال-سي ١٣٠) الضخمة تأتي محمّلةً بالمؤن والأدوية والألبسة ومعدّات مختلفة لأجل ترميم وصيانة المباني التي اتخذتها القوات الليبية مقرّات رسميةً لها..ورفع علم ليبيا فوقها..كأنها تعيد جزءاً من كرامة ضاعتْ منها أياماً واستردّتها بعناد..كما سُمح لكل من يريد الزواج من هناك أن يتزوج،حيث تكفّلتْ قيادةُ الجيش بتكاليف الزواج ومصاريفه.. وفي خضم ذلك استطاع محمود أن يتحصل على أكورديون أُتيَ به إليه من واحة الكفرة المجاور..ظل يتنقّل به من عرس لعرس ومن حفلَة لحفلة حيثما كانت في المناطق التشادية المجاورة .

أصبح في متناول الجنود الليبيين التجوُّلُ بأمانٍ أكثر في البراري المجاورة لشراء الأغنام من الرعاة في الكدادة[١]، أو صيد الغزلان والحباري أو مطاردة النعام وإفراغ نخاعه[٢] في زجاجات لبيعها عند عودتهم للوطن بسعر مرتفع.. ومن ثمّ التوغّل بعيداً في المناطق المجاورة..

في خضم ذلك، استطاع محمود أن يتعرف على العمِّ (يعقوب) العجوز الواداوي الوديع،عندما قذفته قدماه إلى مزرعته القابعة غير بعيد من القوات الليبية..يقايض الزيتَ والدخانَ والأرزَ والسكرَ مقابل كوب شاي خفيف

---

(١) الكدادة تعني البراري أو المرعى في لغة الودّاي .

(٢) النخاع المستخرج من ساق النعامة يسمى (الزّهم) ، ويستعمل في الطب الشعبي في معالجة الكسور القديمة وغيرها .

بالنعناع وأوقاتٍ مطمئنة يقضيها بعيداً عن الصخب المعتاد تحت ظل شجرة مانجو كبيرة حولها طوق من النعناع الزاهي وبجوارها بئر عذبة وابتسامة راضية من العمِّ يعقوب وابنه إبراهيم الذي يظل واقفاً على تلبية طلباته ..

يتأبط أوراقاً وألواناً ابتاعها من حانوت صغير في (أبشّة)، تظل ذاكرته تنبض على الورق..يرصد بعض ما التصق بعينه وما نسخته ذاكرته في رأسه من مشاهد..وكل ما حدث أثناء الحرب غادر ذاكرته فجأة !..

العمُّ يعقوب عالَمٌ آخرُ غيرُ الذي تعرّف عليه في تشاد أيّام (الدّواس)[1].. حين لم تكن هناك من لغة غير لغة البندقية، ولا مجدَ إلا مجدها..ولا احتِكامَ إلا إليها..

كان يجد وقتاً للتسلّل إلى مزرعته والتردّد عليه معظم المساءات في غفلة عن قوانين قادته الذين أرخوا من قبضتهم على الجميع..كان مأخوذاً ببعض ما يقصّه عليه يعقوب..يستمع إليه بشغف، ويتابع حركاتِه وحماستَه وهو يحكي بزهو عن بطله (فرانسوا تمبلباي) أول رئيس لتشاد بعد سنوات الاستعمار الفرنسي..

اكتشف أن لهجةَ يعقوبَ (الواداويّةَ) بلكنتها الزنجية تحتفظ بكثير من الكلمات العربية، واستطاع خلال تردّده عليه أن يحيط بكثير من مفرداتها.. يعقوب وعندما لمس استئناس محمود لحديثه كان يحدّثه بها مسترسلاً كأنه يحدّثُ مواطناً من جنسه..

---

(١)الدّواس : تعني الحرب والقتال بلغة الواداي .

كان يذكر بكثير من الفخر رجال الودّاي والبرنو والباقرمي والساراي في الجنوب والمحاميد والتوباي والقرعان في الوسط والشمال،ويحدّثه عن ملوك القبائل والطوائف التشادية ويفصّل بطونها وأفخاذها وموطن كل منها وديانتها ورطانتها..يعقوب هو الآخر لا أهل له بالجوار..ما عرفه منه أنه لم يبق له منها إلا ابنُه إبراهيم ذو العشرِ سنوات الذي يساعده في المزرعة ويؤانسه في البيت..وكان كلما عرَّج على سيرة أسرته غصّتْ عيناها الصغيرتان في الدموع، بعدها يذهب بعيداً عنه لبعض الوقت يرطن بلغة أخرى لم يتعلمها منه..لكنه سرعان ما يعود هاشّاً كأن شيئاً لم يكن ولا خاطراً كدّره.

وقبل مغيب الشمس يلملم محمود أوراقَه ويغادر المزرعةَ تشيّعه دعواتُ يعقوب بالسلامة وبالأمنيات الطيبة ..

– "هَيْ..امباكر بس تَجي تهجّي فوقي شيّا..إبراهيم ولَدي كلّه يشيفك داير يكيس فوقك..انت نادم عديل" [1]..يضحك محمود ويغادر المكانَ راضياً،لأنه جلب بطانية مستعملة لإبراهيم ووعده بالعمل معه في الفصيل نظيرَ شيءٍ من التموين يعود به إلى أبيه .

---

(١) أنت ..عليك أن تاتي غداً لتحدثني قليلاً ..إبراهيم ولدي هو الآخر يريد أن يراك ويتحدّث معك..أنت إنسان طيب

(١٨)

حين تعرَّفَ على تانيا أدرك أن فرصةً ما أُتيحتْ له..تشدُّه من يده تطوف به قاعات الرسم الكبرى في أثينا..يقف معها مشدوها أمام نسخ طبق الأصل للوحات خلّدها التاريخ..زهرة الخشخاش لفان كوخ..مرايا، وساعات للمتمرّد سلفادور دالي..ونسخ من لوحات رامبراندت..نسخ من لوحات مشاهير عصر النهضة مايكل انجلو، رافاييل، دافينتشي..صار يتسكّع في ميدان أومونيا يراقب الرسّامين على الرصيف..

– الليلة سنشاهد فيلم (عربة اسمها الرغبة لتينيسي وليامز) بطولة مارلون براندو..

– حسناً..يوافق في دعة .

– ما رأيك في مشاهدة فيلم زوربا..بطولة انطوني كوين..للكاتب اليوناني (ميكي كازنتزاكي)..هل قرأتَ له الإغراءَ الأخير؟..هل ترغبُ في زيارة قبره في كريت؟!..يومئُ برأسه مثل معتوه ويتبعها!..وهناك يقرأ العبارة التي نُقشتْ على قبر هذا المتمرّد :" لا أخافُ أحداً..لا أريد شيئاً..أنا حر... " .

– ما رأيك بالدانوب الأزرق..إنها للعظيم شترواس..هي تعرف أنه يعشق الموسيقى..

كانت ليلةً كبيرةً استمتعا بها تؤديها فرقة روسية ضخمة..ولا ينسى انبهارَه بفرقة البولشوي الروسية في زيارتها التاريخية لأثينا ذات صيف..أو عروض مسرحيات ما قبل الميلاد التي تقام على المسرح الأثري كلَّ صيف..أو عروض (البانتومايم) العالمية..وحين شاهدا فيلم (قصة حب) لـ (أريك سيغال) سألَتْه عما أعجبه بالفيلم أجابها بعناد..أن لا شيءَ شدّه للفيلم سوى موسيقاه التصويرية..حدَّقتْ فيه للحظات مندهشة ثم أطبقتْ على كفِّه بين كفّيها واحتواهما الرصيف الذي حطَّ عليه المطر!.

كان يرغب في رؤية ومعرفة كلَّ شيء..يزور الأماكن ويشرب ويأكل كلَّ ما يمكن لبلعومه أن يتقبّله..يتسكّع في الشوارع والحواري..المقاهي والمتاحف..يلمس كلَّ نقاط الحياة الجيدة والسيئة بأصابعه..يضحك بدون سبب..يصمت..يركض.. يثرثر..وينام ويصحو..يريد أن يرى الجانبَ الحيَّ الذي لم يمت من عمره..

لطالما تمنّى الحصولَ على حياةٍ كهذه..لم يكنْ ليرفضَ أبداً أيَّ فرصة تمنحها له هذه الفرنسية الغريبة..لكنَّ تانيا ذهبتْ بعيداً ولن يراها ثانيةً..وكلّ الأشياء الرائعة في حياته ذهبتْ معها..

" لا أريد سوى شيءٍ واحد..أن أراها ثانيةً "..

زفر بذلك وهو يسترجع مع الليل تهاطلُ الذكريات..يشرد ذهنُه إلى الماضي البعيد..

تذكَّر حين ملَأتْ رأسَه بمدينة فلورنسا التي أنجبتْ أشهرَ عمالقة الفكر والفن كيف حزما أمتعتَهما وسافرا بحراً إلى إيطاليا..ذلك ما اقترحتْه عليه تانيا ذات جنون بعد نقاشٍ ممتعٍحول دانتي ودافينتشي ومايكل انجلو وميكافيللي ومازّيني..

هناك طافا معظم المعالم المهمة والمتاحف والآثار..يأكلان الشطائر الرخيصة ويشربان الماء القراح توفيراً للمال القليل الذي بحوزتهما..يجلسان طويلاً في مواجهة مبنى (الكولسيوم) في روما دون حراك،كأنهما في حضرة طقوس اليوغا !..لكنه لم يقاوم تذوق نبيذ (بيريللي) العتيق المخبأ في أقبية (توسكانيا) بالرغم من ثمنه الباهظ!..

تانيا امرأة استثنائية..هو لا يدري تحديداً هل كان يحبها أم كان مأُخوذاً بروعتها وتقاطيعها الأوربية..زرقة عينيها..الشَّعر الذي يحاكي سنابل الذهب..هل ببساطة هندامها..بسعة أفقها وذكائها المتوقّد..بهذه المفاتن العجيبة التي تعني له كل شيء..هل أبهره النموذج الغربيُّ الذي يراه أو يسمع عنه في الأفلام والقصص والروايات التي دسَّ فيها عينيه في صباه؟.

هي أيضاً أدركتْ أنها أُعجبتْ بطيشه وعبثه الغريب وحضوره واستعداده للجنون في أي لحظة..هذا البوهيميُّ كان كريماً معها حتى التهوّر..رقيقاً لأبعد حدّ..تشاغب شرقيَّتَه فيثور..تصالحه فيقع قلبُه بين يديها..شجارُها معه كان ينعش ذاكرتَها..ترى في اندفاعه وتدفُّقه وشغفه بالحياة، وروح التحدي التي تسكنه بعضَ ما في الشرق من سحر وغموض ومساحات لم

تتوصل لاكتشافها..كان يجذبها إليه بإصراره على أن يظلَّ مختلفاً، وأنه يريد كل شيء ولا يتوقف عن التعلُّق بأي شيء،كأنه يسابق مجهولاً يستفزه..

هو الآخرُ قد وضع يدَه على أجراسٍ ما انفكّتْ تهزُّ روحَها على الدوام.. استكانا لبعضهما في ألفة..هو بدأ يشعرُ أن الذي فهمه أكثرَ بكثيرٍ من الذي لا يفهمُه..وهالَه حالُ زملاءِ الدراسة الذين لا يلتفتون لهذه الفرص العظيمة التي تتفلّتْ من بين أعمارهم..بل يقضونها في توفير المال لشراء السيارات الخردة من هناك أو تكديس الملابس والبدل الغالية، أو صرفها على السهرات الفارغة من كل معنى..

يقول الشاعر الداغستاني رسول حمزتوف : " شيئان في الدنيا يستحقان المنازعات الجسيمة..وطنٌ حنون وامرأةٌ رائعة "..

وتانيا امرأةٌ رائعة..''يمكن أن أنسى مع حدث مع تانيا أي شيء..إلا ما تعلمته من وطني "..

" أيمكن لأحدٍ أن يخبرَني ماذا حصل لي ؟!''..

حدّث بذلك نفسَه ذات ليلة عندما كان يحرس فيها رفاقَه النيام..يقف مثل خشبة في مواجهة برد صحراويٍّ ينخر عظامَه..مُحرّكاً أصابع قدميه المتجلّدتين في حذائه لكيلا يختلَّ توازنه..

يا لَهذا الوطن الذي يقيم في رأسه..ترك كلَّ شيء له وحدَه، وأوقفَ نبضاتِ قلبه له وحدَه..كيف يرميه في هذه الأصقاع الموحشة بعيداً فريسةً للموت والتّلاشي..هل يستحقُّ منه كلَّ هذا الذي يحدثُ معه؟..وهو الذي

حزم روحَه وعاد يحمله ألفُ جناحٍ من الشوق تلقاءَ تلك المرابع الدافئة.. ترك كل أحلامه المعلقة وجاءه وحيداً مهيضَ الفؤاد..

"وطني..كلُّ شيءٍ آخرَ يأتي لاحقاً..كلُّ شيءٍ آخرَ يأتي بعدَك "..تمتم ونشوةٌ غريبة تملؤه..

لكنه لم يمُتْ..لم يربح الموتُ جولتَه معه بعد..عاد مع مَنْ عاد إلى وطنه.. ثم ترك الجنديَّة..أخلوا سبيلَه من الجندية بعد عشر سنوات..شأنه شأن غيره فاته كلُّ شيء..حتى لذة التمتّع بأزهى أيام العمر..المرتّب ضئيل لا يكفي.. والأسرة تكبر وتزداد..والأحلام تتبخّر مع ازدياد الطلبات حوله وضيق الخناق عليه..

كاد أن يبيعَ مكتبته التي أنفق عمراً في جمعها ورقة ورقة لولا اعتراض بعض أصدقائه..أبرزُهم صديقُه سعيد الشاعرُ .

حينما كان يفتّش بين الوجوه عن وجه يألفه عثر عليهم مثل كنز..أدرك أن الصداقةَ إحساسٌ بالأمان، وأن الفردَ يشعر بامتلاكه لكنز من الفرح لا يراه أحدٌ..لقد كان بحاجة ملحّة لأن يشاركه آخرون بعضَ أحاسيسه..

ويوماً بعد يوم رأى في أصدقائه الجدد شيئاً يدعو للاطمئنان..اكتشف فيهم إصراراً على ترك أثرٍ جدير بالمتابعة، وأنهم أرقامٌ صعبةٌ في معادلة إبداع لا يمكن تجاهلها، يملكون الكثيرَ من أدوات الإبداع..ولعلَّ أقربَهم إليه سعيد الشاعر القاصّ الذي تعِدُ أعماله بدعم أدبيٍّ مؤثّرٍ في الوسط الثقافي المتواضع..هذا الذي بدأ شعثُه يلتئم في المدينة..في خطوات صامتة وببطء..

مع الوقت توطّدتْ صداقتُه ببعض رموز الإبداع الذين سبقوه في عالم الحرف وكان يتابعُ ما يكتبونه في المطبوعات المحلية ويرى فيهم بعثاً مُهمّاً.. مسرح..صحافة..تشكيل..موسيقى..ودخل في شراكة مع أصدقائه الأدباء والكتّاب الشاعر الموهوب الذي أضحى رقماً مهمّاً في بازار الإبداع..وذلك القاص الذي يستطيع اختزالَ العالم في نصف ورقة..شدّه نثرُه المختصر الممتلئُ بالحيوية..وذلك الروائي قنّاص المواقف والمداخل العجيبة الذي يحفظ كلمات روايته عن ظهر قلب..والصحفي اللّماح الذي يقدر على القبض على عين القارئ بكلماته الأنيقة،والتشكيلي صاحب اللوحات المضيئة الجريئة..

ولج معهم عالَمَ الأدب والصحافة المدهش، وأضحى شريكاً في معظم النشاطات الثقافية التي تثار في المدينة..

كلُّ سوءٍ طالع رماه من نافذة أيامه بعد أن ألقى الحظُّ حزمةً من الوعودِ المبهجة أمامَه..صار يثق كثيراً في تلك القطعة الصغيرة من الضوء التي حصل عليها، وأعاد بها شيئاً مما فقده من أحلامه القديمة وقد ظنّ أنه لن يستعيدَه .

ومُذّاك..قرَّ قرارُه أن يختارَ حياةً موازية..حياةً مريحةً رغم كونها مملّة لكنها حياةٌ لا تعادي أحلامَه، ولا تتعدى حدودَ الحلم..فلا يعيشها بجديّة مفرطة، ولا بضياع منفلت!..وكأنه يوافق ذلك الغنّاي الشعبي الذي غرز برأسه ذات مرة إحدى (هجّاواته)، تقول :

"انداوي النار بنار..القيت راي يا عين ما اسْمحه "[1]!..

---

(١) (غناوة) شعبية .

(١٩)

دقاتُ الساعة تتجاوز الثالثةَ صباحاً..كدتُ أغلقُ عيني من كثرة إحساسي بالتعب والإرهاق..الكتبُ المبعثرةُ حولي عشوائياً تبعثُ الملَلَ في نفسي..المراجعُ الهزيلة هنا وهناك تثير في ذهني تبلّداً غريباً..

على أرضية الحجرة تنتشر الفوضى..تعربد الوريقاتُ بتحدّيها المستمر لي في صمت الحجرة وكأنها تسألني عن جدوى ما أقوم به من عمل!..هذا البحث الذي أودّ الانتهاء منه في أقرب وقت وأقدّمه كمقترح للجنة قبول المقترحات لنيل رسالة الماجستير..

رحتُ شيئاً فشيئاً أفقدُ إحساساً في نفسي بالتألّق ولم تعُد تنبض في جسدي روحُ الكلمات..أفتح مرجعاً آخرَ..أقلّب صفحاتِه..أضناني البحثُ في محاولة استدراج معلومة تُسعفني أسجِّل حضورَها على الورق أمامي..بدأت نبضاتُ عقلي تفقد اتصالَها بمعنى الكلمات المتدفّقة من الورق..

منذُ يومين راودتْني فكرةُ تأجيل الرسالة حينما شعرتُ أنِّي عديمةُ الفائدة، وقد تنتهي طموحاتي عند حصولي على الدبلوم..كنت قد قابلتُ أحدَ أساتذة القسم وبحتُ له برغبتي، غير أنه أصرّ على مواصلة ما بدأتُه من جهدٍ مضنٍ

اختلسَ من عمري زمناً..فلا ينبغي أن تتوقّفَ فتاةٌ شجاعة مثلي (على حدِّ زعمه) على مواجهة مصيرها الذي بدأتْهُ في صناعته بصبر عظيم..أكّد لي أن البداياتِ دائماً صعبةٌ ومتعسرة، وأنّ تعسُّرَها سرعانَ ما يهوي تحت إصراري وعزيمتي..لكن أكثرَ كلماته دفعاً لي كانت حينما اقترح عليَّ أن أستعين بمن يساعدني في الحصول على مراجع أومخطوطات أو وثائق إضافية تساعد على تذليل بحثي..وفوق ذلك مَن يجعلني أبدأ..فكرتُه الأخيرة أمدّتني بأمل لاح في داخلي..أمل لا أعرف كيف أصِلُه أو أتواصل معه..لكنه ظل مبعثَ ارتياح طغى على تفكيري..

يناديني الفراش بالتمدّد والانغمار في نوم طويل..دفؤه جعلني أحسُّ وكأنني قطعةٌ باردة لا حرارةَ فيها..ظلّتْ عيناي مستيقظتين بينما جُعل النوم للراحة..

أمَا من شيءٍ يزيح عنّي هذا التبلّدَ والضجر؟..قلتُها في نفسي ورددّتُها كثيراً..هربتْ منّي التفاتةٌ إلى كوب شاهي فرغتُ من شربه البارحة..نهضتُ مسرعة..ذهبتُ لأعدَّ كوباً آخر من الشاهي الأخضر الخفيف..حركة أقدامي على الأرض أحاول أن أجعلَها صامتة خفيّة حتى لا ينتبه أحدٌ إليّ في هذا الوقت من الفجر..

أعودُ بكوب الشاهي يطفح بأوراق النعناع الطازج..أعانقُه بكلتا يديَّ أستمدُّ منه نوعاً آخرَ من الدفء..أقرّبه من أنفي وأتنفّسه بنشوة..تحملق عيناي في سقف الحجرة..أتأمله كأنني أراه لأول مرة..تستقر عيناي على

صديقتي النافذة..تهرب يدي من دفء الكوب إلى برودة مقبضها الحديديِّ.. أديرُه فتستجيبُ لي بسهولةٍ وتنفتح..

أتنفّسُ بعمق..أخرج في حركات الشهيق والزفير كلَّ الهواء الراكدِ بداخلي..أحسُّ بالانعتاق..تواجه عيناي صفحةَ السماء الذي بدا يخالط سوادَها خيوطٌ لامعة من نهار قادم من بعيد..يتسلل إليها لون يخفي تحديده.. سحابةُ غموض تأتيمن العمق..

السكون المهيمن يجتاحني..لا شيء إلا همهمات بعيدة تصل متكاسلةً على مهل..صوتُها يبدأ تدريجيّاً في الوضوح، وأحسُّ بحركة مبهمة..همساتٌ أليفة تحتوي الوجود..تعلو قسماتُ الصوت بوضوح..بوضوح..يوقظ النيام.. يغريهم بها..(الصلاةُ خيرٌ من النوم)..خيرٌمن كل الأيام ومن الدنيا وما فيها..

أنتهي من كوب الشاهي ثم أعود لأغلقَ النافذةَ وقد تدثّرتْ بذلك اللون الخفيِّ..كنتُ وأنا أقلب في يدي صفحات مرجع من جديد يراودني إحساس قوي بأنني على قرب الوصول إلى نهايات البحثً وأنني تحتويني – وروحي– الحقيقة.

لستُ أدركُ معنى الإحساسِالذي ارتبط بصوت حركة أبي وهو يلجُ الحمام ليتوضأ للفجر مع ذلك النشيد السماويِّ..صوت المؤذن يغمر وجهي بشوق إلى رحمة واسعة..أشعرُ أن ليس ينقذ روحي إلَّا الرجاء..تغمرني رغبةٌ في البكاء..فأبكي دونما سبب !.

رفَّ قلبي حين سمعتُ صوتَ الباب يُقفلُ خلف أبي وهو يغادر إلى المسجد..تحفّزتْ حواسِّي تأمرني بالوضوء لصلاة الفجر..

احتواني شعورٌ غريبٌ حين آويتُ إلى فراشي..هو مزيج من الرضا والاطمئنان والراحة لم أعهدْها كثيراً في الأيام الماضية..رحتُ أقلِّبُ خاطراً حلَّ فجأة على عقلي..لماذا لا أبحثُ عمّن يساعدني في الحصول على أيِّ مخطوط، وثيقة، صورة مرجع نادر أجدُ فيه ما يفيدني..تذكّرتُ أن أحدَ الأساتذة دلّني على شخص من مدينتي قد أجدُ عنده بعضَ ما يعينني، أو قد يدلّني عن معلومة ضئيلة تفتح أمامي صفحات كثيرة في رسالتي.. لكنّني أعرف هذا الرجلَ..والكثيرون غيري يعرفونه..كنتُ أتابعُ أحياناً ما يكتبُ في عموده الأسبوعي بالصحيفة كلما سنحتْ لي الفرصة، وأنه يتوفّر على مساحة من الشهرة في الوسط الثقافي بالمدينة، ولستُ على علم بقدرته على مساعدتي لعدم تخصصه في التاريخ،خاصةً وأن الموضوعَ أكاديميٌّ بحت لا يحتمل أفكاراً أدبيةً تعتمد الإنشائيةَ والتدخّلَ البلاغيّ!..وقرَّ قراري أن أتّصلَ به وأطلبَ مساعدته على قدر استطاعته،لعله يعرف مرجعاً أو مخطوطاً هنا أو هناك..أو أحداً يحتفظ بشيءٍ أجد فيه ضالّتي..مؤمَّلةً ألاَّ يردَّني..

تسلّل رضا غامرٌ إلى قلبي حين هتف صوتٌ في داخلي أنِّي قد أجده.. عندها فقط غمرني نومٌ حقيقي لم يزرْ عَينيَّ منذ أيام..نومٌ لم يقطعْه فزع!.

تنفّس الصباح مطراً..تفائلت..صحوتُ أكثرَ انشراحاً..أفتحُ النافذة.. تهزّني فرحةٌ لم يبرحْ ظلُّها يكتنفُ حواسّي وملامحي..لعلَّ مصدرَها تلك

المآذن التي تعانق البنفسج في السماءالصادحة بذاك النشيد العظيم..كأنها تغيب في حلم ما..أو كأنها بذلك العناق تعيش حالة وله أسطوريٍّ..لكنّني متأكّدةٌ أنَّني قاب خطوةٍ أو أدنى من أملٍ ما انفكَّ يستعمرُ أحلامي حين نمتُ..

انتظرتُ أبي حتى عاد بعد الظهر..لم أمهل قيلولتَه بعد الغداء..رجَوتُه أن يذهب إلى مكتب الصحيفة ليسأل عن رقم الأستاذ محمود الذي يعملُ بها..انصاعتْ أبوَّتُه لرغباتي..فقد وعدني أن يقفَ معي لآخر مشواري، ولا يستطيع التخلّي عن وعده..لم يستغرق الأمرُ كثيرَ وقت حتى عاد المسكين ومعه رقم هاتف الأستاذ محمود فاضل الكاتب بالصحيفة وعضو هيأة تحريرها..وعليَّ أن أكملَ الباقي..

وقد كان !..

(٢٠)

كلما أطبق الشوقُ قبضتَه على روحه..لجأ محمود إلى مكانٍ قصيٍّ في مكتبته العتيقة..تجوس يدُه داخل ركنٍ مهمل تتكدّس فيه الأوراق والصحف القديمة وشهادات التكريم الباهتة والدوريات والمطبوعات..يخرج ألبوم الصور..ينفخ عنه الغبار..يتصفحَّه بتحنان..الصور ذكريات تأخذ شكلَ الحب..

عيناه تتابعان أصابعَه وهي تقلّبُ صفحات ألبوم الصور العتيق الذي يضم اللحظاتِ الأروعَ والأكثرَ إدهاشاً في حياته..شوقٌ جارف شدَّه إلى تلك الأيام المليئة بالمرح..الخاليةِ من الهموم..لم تتسرب من ثقوب ذاكرته المكتظّة..ما زالت عالقة في ذلك الماضي بالرغم من تدافع الأحداث في رأسه..لم تقدر مجريات الأحداث على إخراجها منها..يهزُّه شوقٌ غامر لتلك الأماكن التي كان هواؤها سهلَ الاستنشاق..لم يكن يحسَب أنها تمرُّ بهذه السرعة..ضجّتْ بداخله كلماتُ أغنية لمغنيّة يونانية عجوز تقول بعضُ ما علق في رأسه :

(ما تغيَّر شيءٌ سوى أننا الآن بين تجاعيدنا..

أمسِ كنَّا جمرتين بغير رماد ..

أمسِ كنَّا وكنّا ..

وها نحن عبر مرور السنين غمامةُ غروب تضمُّ غمامة..)

– لكن إذا لم يكن هناك شيءٌ قيّم نتذكره فما نفعُ الصور؟! حدّث بذلك نفسه..

لحظتها كلُّ حنين الدنيا حلَّ دفعةً واحدةً على شرفة قلبه..انتابه إحساسٌ بالقهر وهو يتوقّف عند صورة أحدثتْ إعصاراً في كيانه.. صورة كانت تجمعه بتانيا في منتجع جبلي مترامي الأطراف يرتاده هواة التزلُّج يقع في أقصى الشمال من أثينا..

رجع بذاكرته إلى أيَّامه غيرِ الآبهة..حيث العربدة والانفلات لا يحدُّه قانونٌ ولا عُرف ولا طقوس..كان ذلك عندما حلَّ يناير بثلوجه ونثار بَرَده مثل نُدف الصوف التي يبثُها الهضابَ والسهولَ ويعمّم بها رؤوسَ الجبال، رتَّب لها الشتاء هذه الرحلةَ الشائقة إلى هذه التخوم المجلّلة بالبياض..

البياضُ يؤثِّثُ كلَّ شيء..يعكس حِزمَ النهار الساقطة من علوِّها على البساط الأبيض، يبهرُ العيونَ فلا تقوى حدقاتُها على إطالة النظر في ذلك الأفق الناصع..لا شيء يحدُّ من هذه النصاعة اللامعة إلا أشجار الصنوبر التي احتفظتْ بأوراقها الإبرية أو أشجار التفاح الممتدة في هذا البراح.. الشتاءُ قشّر أوراقَها وتركها جذوعاً وأغصاناً عارية..تتربّصُ بها كتل الجليد

وتظل تعلوها حتى أوبة شمس الربيع الكبيرة من رحلتها الكونية..الرذاذُ الناعمُ يُلبس المكانَ أثواباً بيضاء تضاهي فساتين الزفاف..لا حياةَ في هذا العراء الأبيض إلا حياةُ المتعة والفرح وكسرُ المألوف..البرْدُ الذي يتذمَّرون منه في علب المدينة الإسمنتية الجميعُ هنا يطلبونه حثيثاً..يتوافدون عليه جماعات وفرادى..لا يتقُّونه ولا يحتاطون له، بل يتقاذفون كرات الثلج فيما بينهم ويدسونها لبعضهم في ثنايا أثوابهم..

لجهله بالتزلُّج وقواعده لم يكن بإمكانه الابتعاد كثيراً عن محيط صالة المنتجع أو مجاراة المتزلجين الذين يرتادون تلك الأماكنَ وتغيِّبهم التلال والمنحدرات بعيداً لمعرفتهم كيفية التزلّج والدروب التي ينبغي أن يسلكوها بمرونة..فاكتفى بمتابعة اللاهثين عبر ذلك المنحدر..تسبقهم صيحاتهم المتوحشة المجنونة..لكن تانيا أشارتْ عليه أن يستأجرَ مزلاج (سكِّي) ويتعلمَ المشي به على الجليد..استغرق وضعُ السَّكي في قدميه وقتاً قبل أن يقوم به لمرات عديدة..يحسُّ أنه يجر بين قدميه تلاًّ هائلاً من الجليد..كلما قام من مقامه تفسخت رجلاه فاتجهت كل واحدة منهما في مكان ويقع متذمِّراً..

أما تانيا فلم تُبالِ بما يحدثُ معه..كانت تعرفُ أن عنادَه سيقوده إلى معاودة التحدي..لكنه عندما يستطيع السيطرة على المزلاج في قدميه لا يقدر على المشي به على صفحة الجليد القاسية..تانيا كانت في كل مرة وهي تطوف بالمزلاج مثل فراشة تصيح بجواره أن ينهضَ ويلحق بها..وعبثاً كان يحاول..

يقف ليسقط..ثم يتحامل على نفسه فيقف لكن ليسقط..

لم يدم صفاء السماء غير قليل، إذ كانت السحب تعشِّش فيها..ما لبث المطرُ أن نثر مباهجَه في تلك السهوب..ومع أول زخات الكرم السماوي لاذا بأقرب كشك يمتلئ بالمرتادين..يعدُّ شطائرَ (السوفلاكي)[1] ويقدم الأوزو[2]ذا النكهة الكمّونية وشرابَ الشوكولاطة الساخن رفقة صوت اليوناني الاسكندراني (ديمس روسُّس) الحالم..عند الوصيد يربض بائعُ الكستناء المشوية على موقد الفحم..أنقذه انهمارُ خيوط الثلج والمطر من حرج التزلّج على الجليد الذي سيستغرقه وقتاً طويلاً كي يتمكن من مجاراة تانيا..فهو بالكاد يستطيع المشي بحذائه العادي على الإسفلت.

تلك كانت آخرَ أيامه مع تانيا..ببريق عينيها..لمعان وجنتيها..تانيا عندما تبتسم..عندما تغضب..عندما تبكي..عندما تمشي..ولا يظنُّ أنه سيحب مرةً أخرى بعدها!..لقد ذهبت بذلك المرح..بذلك النشاط..بذلك الجنون..ذهبتْ بعيداً وراء جدر بعيدة ولن يراها ثانيةً. لكن ليس دائماً يكون الحبُّ كاملاً..هكذا كان يقول لنفسه مهدهداً لها..

تمعَّن في الصورة..تحدّث إليها:

" تانيا : كلما قاربتُ على النسيان رأيتُ شيئاً يذكِّرني بك..السعادةُ فقدتها في مكانٍ ما..إن لم تكوني معي فالأوقات الجميلة لا أريدها..قد يقول العالمُ إنكِ رحلتِ لكنَّكِ هنا..أنتِ هنا في كل مكان منِّي..فتلك العينُ التي رحلتْ

(١) شطائر اشتهرتْ بها اليونان تشبه شطائر الشاورما المعروفة.

(٢) شراب كحول شعبي يسمّى في العربية بالعرق .

لا تدري أنها أخذتْ حياتي معها..من دونك..أعاني وحدةً تفتِّتُ قلبي حتى ولو كنتُ محاطاً بالناس..بعدكِ سنواتُ الوحدة جاءت متلاحقة لتصنع سجنيَ الانفراديَّ الذي لم أتوقع أن أقضيَه داخلَ وطن مسيَّج بالقضبان.. مليءٍ بالأنين والحزن..وطنٍ لا أريد أن أخسرَ فيه ما يمكن أن يكونَ لي..

وهذا أنا بعدك..تلك حكاية جعلتْ المرارةَ تجتاح حلقي..حكايةٌ لا يحتويها أيُّ عدد من الصفحات..كل ما أعرفه أنها كانت الأسوأ بعدك..فإلى متى أستطيع كبتَ الصبر الذي يتقلَّب داخلي..

انتهتْ علاقاتي واحدة تلو الأخرى..لكن كان ثمة تانيا..وكم عام سوف يمضي ريثما تحضرني سعادةٌ تتوزع في خلاياي كتلك التي اختبأتْ هناك.. لكنَّ الأمرَ لا يتعلق بالسعادة..بل بالحياة..حياة أردتُ أن أعيشَها..

فمنذ وعيت وأنا أبحث عن مخلوقةٍ تتمكن من الشجار معي وتنهيه في كل مرة..وحين وجدتُها شيدتُ لها صومعةً..فرشتُها بترانيم البوح..أحطتُها بسياج الكتمان..لم أحذر من خطاي بجوارها ولم أحترس من الوقوع في غرامها "..

سحب يدَه من فوق الصورة..أقفل الألبوم..شرد ببصره بعيداً..تمتم في حرقة : لعلَّ في القادم ما يُطمئن..أحياناً لا نعرفُ في الحياة أيَّ جسرٍ نسلكه وأيَّ جسرٍ ننسفُه..

تحركتْ ملامحُ وجهه بابتسامة سريعاً ما تداعتْ حين تذكَّر تلك اللحظة..فإذا بالماضي ينزل دموعاً أنهكتْ عينيه..

(٢١)

خائفة!..إحساسٌ بالضياع يعاودني وأنا أركب السيارة بجانب والدي..
أحتاج لأملٍ من أي نوع يدفعني للمضي قدماً !

أصعد الدرج..تتلعثم خطواتي..لسببٍ ما لا أجد تفسيراً لتلك الأحاسيس التي تسلّقتْني..لم أتوقّع أن توقعَني هذه الرسالةُ في مأزق كهذا..
أسألُ نفسي : هل ما أقوم به شيءٌ صحيح؟!

أبي لمس ارتباكي..

-"علي كل حال..كلّا وجوهنا ما انريدوا انخللوهن عنده "!!..عبارة أفلتها أبي من صدره وهو يتلمَّس بخطواته درجات السُّلّم..تسيَّجتُ بثقة مفاجئة باغتتْني لمواجهة الموقف..

ما شجّعني أيضاً على خوض المغامرة أنه بدا راضياً عن مقابلتي ومناقشة فكرة البحث وكيفية مساعدته لي..حدث ذلك عندما اتصلتُ به وحدَّدْت معه موعداً ..

في الطريق باغتني أبي بسؤالي عن الثمن الذي قد يطلبه الرجل الذي سنقابله مقابل مساعدتي..لكنه وقبل أن أجيب ضرب بيده على صدره وأعلن استعداده لدفع ما يطلبه :

- " ياخذ اللي ياخذه وحياة بوك "..ضحكتُ كما لم أضحك منذ زمن.. قلتُ له إن هذا ليس درساً خصوصياً يحدّده ثمن..إنه تطوُّع وخدمة مجّانية.. فقط ادعُ اللهَ أن يكون لديه ما أحتاجه والوقت الذي يسمح لنا به..ابتسم أبي في ودّ..اختفى فجأةً كلُّ شقائه من تجاعيد وجهه..وتمتم بالدعاء.

الوجهُ مألوفٌ..يشبه إلى حدٍّ بعيد صورتَه في العمود الصحفيِّ الذي يكتبه..العينان كما عهدهُما..لكن فيهما شيءٌ ناقص، ضائع، مسلوب..

هو ذاتُه بكل تفاصيله عدا شيءٍ واحد، هو طيفُ طفل حين يطلق ابتسامتَه المخبوءةَ تحت شفتيه..غريبٌ أمرُ هؤلاء الكتّابِ!..لا يقدرون على إخفاء اعتياديتهم حتى وهم في أعلى مراتب الشهرة !.

تهاطل رعبُ قلبي..أحسستُ بهيبة تشبه تلك التي يحسُّها الزائر للمعابد العظيمة أو الآثار المعمارية التي يقف المرء حيالَها منبهراً مشدوها..وإحساس أغرب غمرني لم أتمكّن من التخلّص منه..يذكّرني بأيام طفولتي، حين كان أبي يقودني إلى قسم الصحة المدرسية،حيث ستغرز الممرضة إبرةً مؤلمة في ذراعي أو فخذي..على أنّني تركتُ للدهشة وحدها أن تكمل ما يختلج في نفسي من ذهول واستسلمتُ لما سيحدث !..

في صمتٍ مددْتُ يدي أصافحُه..جلستُ قبالتَه بجوار أبي مثل تلميذة..أصارعُ فضولاً استبدَّ بي..لأول وهلة قرأتُ في وجهه صعوبةَ مهمَّتي..حاولتُ التسلّلَ إلى حدقتي عينيه..لم يخذلني..ابتسم في عيني..ربّتَ عليهما بنظرة مشفقة..هدّأَ أنفاسيَ المبعثرةَ في صدري، فتوقّف عن العلوِّ والهبوط..نسمةٌ واهنة هبّتْ..حركتْ أغصاناً في داخلي..ارتبكتُ..عاودني الإحساسُ بالضياع..أنقذ أبي الموقفَ عندما دشَّن حديثَه مع الأستاذ محمود .

– هذي بنتي هدى اللي اتَّصلتْ بيك أمس..اشطر وحدة في عيالي..لخرين بسلامتهم ما فيهم حدٌ كمّل قرايته..الا هي ربي يحفظها..من صغرها تحب القراية وناجحة فيها ومتعلقه بيها..

تخطّاني بنظرة لا مبالية..فيما واصل أبي حديثَه..

– سلْتك بالله يا استاد كان عندك كيف تساعدها ساعدها..لها ايَّام حايسة اتدوّر علي من يساعدها..!

شعرتُ بوجهي ينسلخُ..كنتُ أفضّل حديثاً خالياً من عباراته المتوسلة المستجدية..لكنَّ أبي كان يريد التبسّطَ معه في الحديث ..

– اسمها هدى..انا قبل نبّي انسمِّيها مبروكة علي اسم امي..لكن خالها قال سمُّوها هدى !..

وما علاقة هذا الرجل باسمي وما اقترحه عليك خالي يا باتي؟!..أتضاءلُ..أذوب في مقعدي!..هل هذا وقت الحديث عن سبب تسميتي هدى ؟!

يرفع رأسَه بعد حين..يتأملني كما لو أنه يكتشف وجودي..تُدهشني عيناه الطافحتان هدوءًا..أحاول قطعَ أو اختصارَ حديث أبي وأدخلَ في حوار مباشر معه..وقبل أن أعثرَ على صوتي واصل أبي وبحماس :

– جيل هالوقت لا تعرف كيف تساعده ولا اتْزوّزه ولا اتّفاهم معاه!..

على وقع هذا التصريح السَّافر التقت عيناه بعينيِّ في لحظة خاطفة قبل أن تتحولا من جديد إلى وجه أبي الذي استأنس المكانَ وحنَّ إلى عادته في الحديث فاستطرد :

– لا تاخذ منهم لا حقّ ولا باطل!..لكن البنات خير م العيال في القراية وحتى ف العمل..

وأتدخّل في الحديث قبل أن يتشعبَ ويحيدَ عن مساره فيضيعَ الوقت..تملّكتُ نفسي..كان يجالسُني قلقٌ أخذتُ أرتّبُه :

– أستاذ محمود أنا أعدّ لرسالة ماجستير في التاريخ كما أخبرتك أمس..وأحتاج إلى مخطوطات إن وُجدتْ أو مراجع مهمة إذا كانت بحوزتك أو بحوزة أحدٍ تعرفه..أي وثيقة صورة معلومة قد أستفيد منها..

تحفّز أبي لمعرفة ردّ الأستاذ محمود..فقال مشجّعاً :

– انشالله ما يقصِّرش الاستاذ محمود..

– أنتِ تحتاجين إلى الكثير من هذه..مخطوطات ووثائق وصور نادرة ومراجع أجنبية كُتبتْ في مجال رسالتك وتسجيلات مع المسنّين الكبار والرواة الذين عاشوا الفترة الزمنية التي تغطيها رسالتك..وحتى خرائط إن لزم الأمر..لشحِّ المصادر والمراجع..

أدهشتْني إحاطتُه بمتطلبات البحث..وكيف أنه أضاف إليها التسجيلات مع المسنّين..طمأنني حديثُه..حين تحدّث بلغة الواثق مما يقول..زال حاجزٌ كنتُ أتوهمُ وجودَه..تشجّعتُ أكثر..

– وهل أجدُ ؟.... فقاطعني :

– سنجدُ إن شاء الله..أمَّا عن المراجع فإن عندي منها بعضَ ما يرضيك..وأعرفُ صديقاً يحتفظ ببعض الوثائق الاجتماعية المهمة أرجو أن يعيرَنا إياها..وعندما تحتاجين لتسجيل لقاءات مع كبار الرواة والمسنّين فسأكونُ تحت أمرك وأمر الحاج منصور..

تهلّل وجهي فرحاً..كدتُ أقفز من مكاني أصافحه مرة أخرى..

– شكراً أستاذ محمود..شكراً باتي..

نظر إليَّ الاثنان بغرابة!..لستُ أدري لماذا شكرتُ والدي معه..ألعله أهداني هذه الفرصةَ العظيمة؟..ربّما .!

من بعدها اشتعلتْ حمّى الكلام بيننا..سالتْ بأفواهنا أحاديثُ أخرى..كانت عباراتهُ مثلَ ريحٍ تمخر مسامعَي..استسلمتُ لحديثه عن التاريخ وعن اللغة والفن وعن كل شيءٍ تقريباً..

ها قد عثرتُ على رجلٍ يعرف كيف يتحدّث إلى فتاة..خِلته خلالها أنه – ومنذ اتصالي به بالأمس– يُحضِّر لما سيقوله لي..فقد كان حديثُه ينساب في تواصل كأنه يقرأه من ورقة أمامه..وكان عليَّ أن أومئَ برأسي موافقة..وهل أملك غيرَ ذلك؟..فاتفقنا على متابعة لقاءاتنا يومين في الأسبوع وزيارته

صحبة أحدٍ من أهلي..وأني سأطلعُه على ما كتبتُ ونناقشه سويةً..وأنه سيحضرُ لي في زيارتي القادمة بعضَ ما لديه من مراجعَ دوَّنها في ورقة أمامه..

وقف بعدها لمصافحتنا، شاكراً لنا زيارته ومعتذراً عن عدم وجود من يضيّفنا لعدم وجود العاملين بالصحيفة بالفترة المسائية، ثم أردف مبتسماً:

– في المرة القادمة ستعدّين أنتِ القهوة في البوفيه..هل تجيدين إعدادها؟

" أجيد إعداد كلِّ شيء في سبيل اجتياز هذه العقبة "..قلتُها في نفسي وأنا ابتسم ابتسامة راضية غمرتْني كلَّني..

كدتُ أقفز من مكاني وأقبّل يدَه وأقول له : إنّني لن أثقَ بأفضلَ منك..

ولن أرضى بأقلَّ منك!..فمشواري الذي كان في أوَّله تخطّى أولى عتباته بسلام..أو هكذا بدا لي..وإن تحققتْ أحلامي فسأكون محظوظةً جداً..

(٢٢)

وضع الدكتور ناجي كومةَ أوراق أمامه على الطاولة..اتكأ بظهره على مقعده يرتشف القهوةَ ويدخّن سيجارتَه بتلذّذ..تفرّس في الأوراق قبل أن يدني إليه (الحاسوب) ويشرعَ في طباعة أوراق محمود فاضل التي تجمعّتْ لديه..

" كان قد أقبل يناير حين افترقنا..كنتَ تستعدُّ للسفر إلى مصر لحضور معرض القاهرة للكتاب..قبلها كنتَ حدّثتني عن غادة السّمان التي ملأتْك.. وكوليت خوري ومَي زيادة وأحلام مستغانمي وفضيلة الفاروق وكذلك عن جين يير وهانرييت ستاو..كأنك تزيّن لي هاته الرائعات اللائي يجدن صناعة الحرف ويمتهنه باقتدار!..وعدتني بإحضار ما تجده من آثارهنَّ.. مجموعة من الكتب تهديها إليَّ..لكنّك كنتَ تراوغنا جميعنا بغيابك..

كان عليك أن تعلمَني أنك على وشك الاختفاء..هكذا أنتَ، دائماً تركض في الحياة من يوم لآخر..ممَّ تهرب..لم نكن ندري أنك كنتَ تهرب منّا جميعاً بقلبك المريض إلى المشافي البعيدة..تخاف علينا منك..أهلِك وأصدقائك وأنا..كنتَ تعلم أن حياتَنا صارتْ مدجّجة بالفجائع،فلم تشأ زيادةَ حدّتِها

حولنا..كنتَ تمرض بعيداً عنا وتُشفى بعيداً عنا..ولا تعود إلينا إلا وقد استقرّتْ نبضاتُ قلبك في صدرك صحبةَ ابتسامتك التي خلقك الله بها.. اتضح لنا أنك كنتَ تمارسُ حياتَك مثلَ عمل سريّ..تغطّيها بغطاء سميك لا يقدر الآخرون على اختراقه..لم تكن تدري أنك منحتنا جميعاً حزناً دفيناً لم يتخلَّ عنا..بعيداً عنك عشنا حياةً أكثر قسوة من أي حياة.

يا أجملَ الحاضرين في قلبي..أفتقدك أيها الغائب..في غيبتك يا سيدَ قلبي حادتْ دنياي عن مسارها بزاوية أكثرَ حدة..صار كلُّ شيء أكثرَ قسوة أيضاً..أصبحت الطرق المؤدية إلى الحياة الاعتيادية موحلة..أضحتْ الأيامُ موجعة..دقائقها ثقيلة..

(ثمة طريقة واحدة للنجاح، هي الحب)..هكذا كنتَ تقولَ لي..

لكنَّني صرتُ أخجل من أن أحلم بالحب أو حتى أفتحَ حديثاً عابراً عنه.. كيف لي ذلك والوطن مصابٌ بالإرهاق !..حين صار يشيّع أبناءَه كل يوم.. كانتْ أخبارُ الحرب في تشاد تزوّدنا بالفاجعة تلو الفاجعة.

من أجل مَن يموت هؤلاء الرجال؟..أمِنْ أجل وطنٍ لا يرونه إلا في الكوابيس؟..أفلت الصبرُ من قبضتهم..حطَّ الرعبُ على كواهلهم..مطاردة التلاميذ من شارعٍ لشارع..وحصارهم في مدارسهم وملاعبهم وشحنهم في حافلات لزجهم بهم في معسكرات التجنيد الإجباري ونقلهم إلى مجاهل صحراء أو أدغال تشاد !..

لا يزال حديث الناس بأصوات خافتة عن ديكتاتور البلاد..الأيام المؤلمة تعبرها فواجعُ الاعتقالات وحشر الرجال في الزنازين وموتهم فيها..تناقلتْ الأفواه أسماءَ الذين نثروا رائحةَ الحبِّ والوفاء ومضوا في طريق الأبدية..كثر الموتُ حتى صارت سرادقات العزاء في كل شارع والبيوت تضجّ بالنواح والنحيب..

أوقات يملؤها هديرُ الجرّافات الصفراء المتوحشة وغبار هدم البيوت فوق رؤوس ساكنيها..يغمرها دخانُ أجواف الأمهات والزوجات المحترقة..الخوفُ روَّض الناسَ على أن يألفوه ويألفهم..صرنا نعيش حياةً أخرى خاوية غير الحياةَ التي فتحنا عليها عيوننا !.

حسناً..من أين أبدأ حين أريد قولَ كلِّ شيء..

بالنسبة لي كنتُ مشروعَ كائنٍ مختلف..لكنني لم أصبح كذلك تماماً بسبب الظروف..قلتُ لك مرة..هل تذكرُ؟..لم يتحقق من هذا المشروع غير جزءٍ يسير منه عندما خسرتُ الفتاةَ التي أرادها رجالُ العائلة..هم أيضاً خسروها عندما وضعوا – جميعاً – أرجلَهم في طريقها إلى الكلية..وتلك حكايةٌ دامية لم أخُض تفاصيلَها الدقيقةَ بعد..ما زالتْ دامية كما بدأت..لم تندمل ولم يخفت ضجيجها في رأسي..حكاية معركةٍ خاضتها فتاةٌ مهيضة الجناح وقفتْ وحدها في مهب رياحهم جميعاً..لكن هزائمي لا تبدو عليَّ..جعلتها خاصةً بيني وبين ذاتي..

تلك الأيام توفِّي خالي الذي قضى عمراً صعباً على كرسيٍّ متحرك..وفاته فطرتْ قلبي..طوال أيّام العزاء لم أغادر بيتَ خالي ولم أنقطعْ عن زيارته حتى بعد أن غادره الجميع..شعرتُ أن كلَّ الجدران تستجوبني..وصل الأمرُ باتهامي أني كنتُ سبباً في وفاته !..لم يقتله سوى قراري الخطير بدخولي الكلية!.هذا ما تشيعه نساء العائلة الموتورات..

والدي وافق قلبُه فقط على دخولي الكلية..أمّا عقلُه..أمّا سطوةُ العائلة..أمّا رأيُ بقية رجال العائلة فلم يكن ذلك في صفِّي..

قد تفهمُني إذا سردتُ لك وجعي كلَّه..تفاصيل المأساة..وقد لا تفهمني..لكني أكون قد وجدتُ مبررا لنفسي لأنني فعلتُ ذلك بمحض عنادي..هذا العناد الذي تدخّل كثيراً في علاقتي مع رجال عائلتي ومع الناس ومعي، وفي علاقتي مع الكتابة ومعانقة عذابها الجميل مُذ عمَّدَتْني كلماتُك المشجعة كاتبة..

قلتُ لك إنَّي كنتُ مشروع حياةٍ أخرى لم تتحقق على الإطلاق..لأنني خسرتُني ذات عناد..عنادٍ جعل العالمَ كلَّه عدوّاً لي..

وقلتُ لك أني كنتُ مختلفة..ولأنني كذلك فقد صرتُ أكتبُ كل ما يعنُّ في خاطري..ألجأ إلى الورق حين أفتقد من ألجأ إليه في هذا الكون الصغير المشحون الذي يحيط بي..

وعلى ذكر الاختلاف، أذكر أيّام كنتُ صبية أن عمتي (نزهة)كانت قد فرغت من غسل فُرُش البيت وشرعتْ تُفرد بأناة كيسَ القماش الكبير الذي انتهتْ من خياطته لتحشرَ فيه بلطف مربَّع الإسفنج الكبير، ثم تلقم الإبرة

بخيط سميك وتقفل فتحة القماش بخياطته..تلتقط بعدها قطعةً أخرى وتحشر فيها إسفنجة غيرها..عمتي (امّ العز) كانت تجلس بجوارها وقد استحال شعر رأسها إلى كومة منفوشة من القطن الأبيض تتسرّب من تحت المنديل..قالت تهمس لها إن عناداً غريباً يركبني..وهذا الذي سيجرُّني إلى متاعب مع الرجال..عمتي نزهة التي ظلّتْ في صمت تضع كلَّ (شلتة)[1] بجوار الأخرى حتى فرغتْ منها جميعها..ظننتُ أنَّها تجاهلتْ موضوعَ عنادي..لكنها قالت وهي تطرح شلتة خاطتْها جانباً : " ما زال فيها الخير.. العناد مش عيب! "..لكن عمتي ام العز قالت في إصرار: " إنها ليست مثلَ بناتنا "..

منذُها..عرفتُ أن الاختلاف ليس في عقلي وحسب!..لكنه أيضاً في شكلي وتضاريسي ولون عينيَّ..وهي إنما تقول ذلك لأن أمي ليست من العائلة..بل غريبة..ترجع أصولها إلى أقصى الجبل الغربي..والدتي كانت مختلفةً تماماً عنهنَّ..

هل حدّثتُك عن أمي ؟!..ألستَ تريدني أن أهذي ؟!..

حسناً..أمّي كانت بربرية..بيضاء من(كاباو)..طويلة وجميلة..نحيفة وعيناها زرقاوان صافيتان مثل لون سماء الصيف.. كانت قليلةَ الكلام.. جدُّها كانت تربطه علائقُ تجارية مع أهل الشرق..فكان يقضي معظمَ أيام السنة بينهم..ثم طاب له المقامُ هنا بعد خلاف مع عائلته البربر كما تقول أمي

(١) الشَّلتة قطعة صغيرة من الفُرُش أو الطنافس التي يتألف منها قطع الصالون الأرضي.

فاستقر بعائلته واستوطنتْ المدينةَ بعد أن طاف مدنَ وقرى الجبل الأخضر..
تزوَّجها والدي بعد أن طلّق زوجتَه الأولى ابنة عمّه التي لم تنجب له..

نساءُ العائلة كنّ ينتقمن من أمي البربرية..كنَّ يعاقبْنها بشكل ما لأنها كانت سبباً في طلاق إحداهن وتفريقها عن زوجها..لكن ولا واحدة منهن تستطيع التجرّؤ أمام عمتي نزهة على قول شيء عن أمي..

لم أكن أنا وحدي من يختلف عن أفراد العائلة..بل وحتى أبي..حين فضّل أمي عن ابنة عمه وتزوجها رغم معارضة الجميع..فيَّ شيءٌ من أمي ومن عمتي نزهة وشيءٌ من والدي.. وأشياء من الأخريات بنسبٍ أدنى !

لكنك لن تستطيع فهم شيء من هذه الثرثرة إذا لم أحدِّثْكَ عن أفراد عائلتي وعن طفولتي..عن بيت العائلة وغرفه الكثيرة..كيف كنا نعيش..
غرفتي كثيرة الخبايا والعرائس والأسرار..

(الحاج فرج)..هكذا كان الجميع يناديه..هو كبير العائلة، له من السلطة ما يعجز أهلُ البيت عن مجابهتها أو معاندته..فبالإضافة إلى سنِّه..فقد أتيح له تعلُّمُ القليلِ من القراءة..حتى وإن لم يستطع الكتابةَ كما يجب..إلا أنه كان ألمعيّاً..استطاعَ حفظَ بعضٍ من قصار السُّور وبعض الأحاديث وأحكام العبادات..ساعده في ذلك ترددُّه المستمر على المسجد واقترابه من إمام المسجد ومداومته على الأذكار والأوراد بزاوية بن عيسى بالشارع المجاور..
وفوق هذا فقد كانت نساء العائلة وحتى شيوخها يلجؤون إليه ليُرقِي لهم مريضاً أَصابتْه عينٌ أو طائفٌ من المس أو رعشةٌ غريبة حلَّتْ بجسده..

هو زوج عمتي نزهة وابن عمها (ابن عم أبي)..ظلّ لوقت طويل لم يتزوج..لكنه رضي بعمتي نزهة ورضيَتْ به بالرغم من فارق العمر بينهما وتهامس النساء حولها..لكن لأنه كان طويلاً فارعَ الجسم أحمرَ البشرة أنيقاً، فقد اقترنتْ به عن رضا وسط حسد الكثيرات من صبايا العائلة اللاتي كنَّ يمدُدْن عيونَهنَّ نحو هذا الرجل الوسيم دافئ الابتسامة على غير عادة رجال العائلة الآخرين..

نزهة لم تنجب منه..لكن لا أحدَ في العائلة استطاع معرفةَ العلة في ذلك.. لم يتزوج غيرَها وهي لم تطلب منه الطلاق لتنجب من غيره..بقي سرُّ عدم الإنجاب بينهما فقط..اكتفيا بالحياة مع بعضهما بدون (وجع رأس)..

أجملُ وأنظف مكان هو بيت عمتي نزهة..وطعامُها هو الأحلى..ثلَّاجتُها عامرةٌ على الدوام بأغرب وأغلى الفواكه والمرطبات والحلويات..كنّا نجد فيها السمكَ والدجاج واللحم..وحين يعزّ (القديد وعصبان الشمس والزعتر والقريصة)[1] فلا نجده إلا عندها..كان بيتُها مثلَ متجر عتيق يوفّر هذه النواقص..

وفوق كل هذا فهي مسقطُ رأس الودِّ كلِّه !..

الحاج فرج كان ذا شخصية قوية وصوتٍ أقوى..يخيّل إلى أنه وُلد هكذا بشيخوخته ووقاره وشيبه الذي يجلِّلُ فودَيْه..إذ يصعب تصوّرُ رجل بكل تلك الهيبة أنه كان طفلاً ذات يوم..وما زاد في ذاك الوقار أنَّ قلبَه قد تعلّق

(١) أكلات شعبية ليبية مشهورة.

بالمسجد فلم يكن ليفارقه إلا بعد أن غدرتْ به ركبتاه عند عتبات أرذل العمر، ولم تعودا تقويان على حَمْل جسده الطويل الثقيل..فكان – عدا يوم الجمعة –يؤدِّي صلواتِه في المربوعة..وكان في كل مرة يقول في أسى: " التصلاية اللي مش ف الجامع ما هيش تصلاية..انشالله ربي يقبلها مني " !..كنتُ أحبه جداً..وأحب ذلك الماضي بالرغم من ألوانه الداكنة..

وأحدِّثُك عن مرتع الطفولة والصبا..البيت..عريشته بعناقيدها الكحلية ذات الغبرة المحببة..السور الخلفي..شجرة التين.. التوتة العجوز..اللوزة.. الليمونة القمرية..الرمانة الشائكة.

وحَمَامُ أخوتي الذين يقضون وقتاً وهم يتشاجرون عنده أطولَ مما يقضونه معنا..كانوا يعرفون نوعَكلِّ حمامة باسمها وجنسَها..يتفقَّدون كلَّ طائر لم يعُد من أوبته المسائية..ويتتبّعون مكان إقامته وإحضاره في أغلب الأحيان.. حين كان يحطُّ على أبراج أخرى ..كان الصبيان الآخرون يضعون الحب والسكر كي يهوي إليه، ثم ينتفون بعضَ ريشاتٍ من أجنحته ويضعونه في برج آخر ويظلُّ حبيسَ ذلك المكان حتى يألفَه..إخوتي في أغلب الأحيان كانوا يتتبّعون مكان إقامته ويحضرونه..ولم يكنُ الأمر يخلو من شجار بينهم وبين الآخرين..لكنه ينتهي في كل مرة دون خسائر..

كان الحمام بالكثرة التي ظننتُ معها أن معظمَ حمام العالم من سلالته!.. ذلك كان ذؤابةَ القلب يا سيدَ القلب.

هناك غيرُ بعيد بيت كاملة..ينفتح الباب كلَّ صباح لتخرج منه صبية واسعةُ العينين فارعةُ الطول..يرزح جسمُها الضئيلُ تحت ثقل حقيبتها..تشير إليَّ من بعيد..ننطلق ركضاً..

تتفلّتُ السنوات ولم تتوقف..لم أعُد قادرة على استرجاع خطوط حكاية كثيرة المنحنيات ساهمتُ فيها وأنهيتُها بيدي..بدأتْ حين قرّر الجميعُ مواجهتي..

حدث ذلك ذات ليلة..

دخل عمّي شعيب على والدي يتطاير الشرر من خلف نظارته السميكة كعقب زجاجة..اختلى به في المربوعة..حدّثني حدسي أن أمراً ما سيحدث لي أو بجواري،فسبقته إلى ركن السقيفة المظلم أسترق السمعَ دون أن يراني أحد..سأله :

– هل صحيح ما سمعت ؟!

كان أبي قد ضايقه كثيراً انتشارُ خبر دخولي الكلية في أوساط العائلة..أومأ إليه بغير اكتراث..

–كل بنات الكلية يعُدْن حَبالى..هل ستنتظر حتى تأتيَك ابنتُك بالعار ؟..

سمعتُ والدي يردُّ عليه غاضباً :

– هذا أمرٌ لا يخصّك..

– ومن يخصُّ إذن إن لم يخصّني ؟!

– قلتُ لك لا شأن لك بها..عليك ببناتك..

صارتْ نبرة الحوار بينهما تعلو وتهبط..كل منهما كان مصرّاً على رأيه..لم يسلّم أحدهما للآخر..هرولتُ لإحضار القهوة..في الباب قابلني عمّي شعيب بنظرة نارية..خرج على إثرها مغاضباً..

اجتاحني اضطرابٌ وغضبٌ شديدان..وضعتُ أصابعي على موضع قلبي أهدئه..أخبرتُ أمي بما حدث..بدا على ملامحها خوف..قالت عيونُها أكثر مما قالته شهقتُها..

بعد أن هدأتُ قالت لي في انكسار :

– إنك تواجهين رجالَ العائلة..وأشدَّهم على الإطلاق هذا الأعمى شعيب..

– لا أخافُه..قلتُ بصوت متهدّج : أبي في صفِّي..

– أبوكِ لن يصمدَ طويلاً أمام تعنُّتهم..هزَّتْ بها رأسَها في يأس.

– لقد سبق أن وقف في مجابهتهم حين تزوجك..ألم يحدث ذلك؟!

– هذا حدث حينما كان شاباً قوياً يعتمد على عناده وغروره..لكنه الآن لم يعد قادراً على فعل ذلك..الكل سيقفون ضدكما..وأنتِ من تكونُ ضحيةَ هذه المجابهة..

تبّاً لهؤلاء المسنِّين..إنهم يزعمون أنهم يعلمون كلَّ شيء ويعرفون مصالحَنا أكثرَ منَّا..يظنُّون أنهم يتخذون قراراتٍ أفضلَ من قراراتنا..لكنّني

كنتُ أعتمدُ على قوة لا يمكنُ أن تُقهر..والدي وحبِّه لي..كنتُ متأكدةً أنه لهذا السبب ستمرُّ هذه الأزمة بسلام وبسرعة..

الحاج فرج كان يتعاطف معي من بعيد..عن كثب كان يراقب ما يحدث، في انتظار انفراجاً لأزمة الكليَّة التي افتعلها عمي شعيب يسانده بعضُ رجال العائلة الذين يأتمرون بإمرة زوجاتهم الحاقدات عليَّ وعلى أمي – وتلافياً لأي عطب وشرخ في سَتر العائلة – أشار الحاج فرج على أبي وبقية الرجال أن أتزوَّجَ من أحد شباب العائلة..وترك لي فرصةَ الخيار بين الأمرين موارَبة .

ظنّتْ صبايا العائلة أنِّني لن أرفضَ هذه الفرصةَ التي قدّمها لي مُقدَّم العائلة على طبق من ذهب..إذ عليَّ فقط أن أشير بإصبعي لهذا الشاب أو ذاك أو ذاك فيتزوجني صاغراً..وإلاَّ فسيتركونني وما أفكر فيه..لكنِّي لم أعبأ بذلك الاقتراح..حزمتُ حاجياتي ويمَّمتُ صوبَ الكلية..كنتُ على يقين أنهم سيصابون بالدهشة..

لا تعرف مدى الشجاعة التي أملكها لأفعل ذلك..لكنّي قمتُ بالأمر..لم أصدّق أنّي فعلتُ ما أريد !..

(٢٣)

حضرتْ هدى إلى المكتب يصحبها أخوها أسامة ذو الخمسة عشر عاماً.. طرقتْ الباب طرقاً خفيفاً ودخلتْ مباشرةً دون أن تنتظر ردّاً..لكنها تلكأت حين رأت محمود مندمجاً في حديث مع إحداهن..إنها إحدى موظفات الصحيفة..عرفتْ ذلك من خلال توجيهاته لها بإعادة طبع بعض العبارات التي مرَّ عليها بالقلم وعلّم عليها..تنحنحتْ لتزيلَ ما استبدَّ من حرج..

ما أن هلَّتْ عند الباب حتى أنهى حديثَه مع الموظفة وهبَّ يغادر مقعدَه ليستقبلها..حين غادرتْ الموظفة المكتبَ تبادلتْ نظرات باردة مع هدى التي ظلتْ واقفة أسيرةَ لحظات الحرج الذي سبَّبه دخولُها المفاجئ.. لكنَّ فمَها الصغير بدا كما لو أنها تخبئ بداخله ابتسامة.. عيناها اللتان لم تصدقا ما حولهما شاركتا بإيماءة صامتة..

تقدَّم منها، يسبقه جذل مفعم..تصافحا..أصابعهما تتسابق.. عاد إلى مقعده منشرحاً..رحبتْ بها عيناه اللتان بدتا تائهتين في ملامحها.. أثار فيها شعوراً لا يوصف..ارتبكتْ كلماتها..جلستْ قبالته يفصلها عنه المكتبُ العريض..سيَّجتْها كلماتُه المرحبة بشيءٍ من الثقة أزالتْ عنها بعضَ ما

اعتراها من توتّر..تمتمتْ بكلمات قليلة غير منتظمة..وإنقاذاً للموقف غادر محمود المكتب لدقائق كانت كافية لتستردَّ بعضَ هدوئها..فيما جلس أسامة بجوارها تستكشف عيناه المكان..لا يكفُّ عن الحركة..شرع يقلِّب في غير اكتراث نسخَ الصحف المبعثرة أمامه على المنضدة الصغيرة عند المكتب ولم يذعن لأوامر أخته بالكفِّ عن عبثه بما أمامه..

عاد محمود ثم لحقتْ به إحدى العاملات بعد لحظات تحمل القهوة والماء..وضعت السفرة في صمت وذهبتْ..فيما ظلَّ هو يجيل بصرَه خلسةً بين هدى وشقيقها أسامة الذي وجد في تقاسيم وجهه تشابهاً بينهما..

" فليحيا غموض عينيك المشوِّق..فليحيا السحر الكستنائي فيهما..فلتحيا الغيومُ البنيَّة في خصلات الشعر المنبثة تحت المنديل..فلتحيا طلَّتكِ البهية "..

كاد أن يعلن أمامها هذه العبارة وهو يتناول فنجانه ويضع السفرة أمامها على الطاولة الصغيرة..

– هل تشربين القهوة..أم أطلب لك شاياً؟

– لا فرق..

– هل أستطيع إشعال سيجارة ؟..قال بدبلوماسية ..

– لا بأس..أغلب رجال أسرتي يدخنون..

– والصغير..ما اسمُه ؟

– أسامة .. أخي ..

– عرفت..لاحظتُ الشبهَ بينكما..

اختصرتْ ضحكةً صغيرة..ثم واجهته بما تبقّى منها..

– لقد رفض المجيء معي..لولا تهديد أهلي له..إنه أحدُأشهرِشياطين الحي..أخذناه عنوةً من مباراة حامية في الشارع..

– هيا اشرب قهوتَك أيها الحارس الصغير..في المرة القادمة سأحضر لك معي شوكولاطة..وجّه كلامَه إلى أسامة الذي ما زال يعبث بعينيه في ما حوله..

– حسناً هدى..أحضرتُ لكِ بعض ما ظننتُ أنه يفيدنا في البحث..

"يفيدنا"!..

هبطتْ الكلمةُ على قلبها مثلَ غيمة يفوح منها شذى يبعث على الانتشاء..شمَّتْ بهذه الغيمة رائحةً افتقدتْها منذ زمن..

أردف في حميمية :

– هذا معجم البلدان لياقوت الحموي، إن كنتِ ستمهدين لنبذة موجزة عن المدينة..رفعتْ إليه عينين متحمِّستين :

– مؤكّد..

استجابتْ عيناه وقال بنفس الحماس :

– تعلمين أن الحموي ذكر مدينتَكِ أيضاً عندما ذكر مكة المكرمة والمدينة

المنوَّرة والقدس ودمشق ومراكش وقرطاج وطرابلس بالإضافة لأشهر البلاد التي كتبَ عنها..ثم أخرج حزمةَ أوراق وقال في هدوء :

– وهذه نسخةٌ مصوَّرة من كتاب الطيّب الأشهب.لمعتْ عيناها فرحاً وأكملت :

– برقة العربية الأمس واليوم !..سمعت عن هذا الكتاب وبحثتُ عنه في مكتبة الجامعة ولم أجده..إنه مصدرٌ مهم في بحثي لقد اختصرتَ لي الكثير من مشواري..شكراً لك..

– الأشهب تناول تاريخَ مدن برقة بصفة عامة ومدينتك بصفة خاصة باعتبارها إحدى أهمِّ مدن الإقليم في تلك الفترة إضافة إلى حياته فيها واتخاذها سكناً زمناً فأفردَ لها صفحات رائعة..وهذا كتاب عن أيام الإدارة البريطانية يتوفَّر على صفحات مهمة قد ترجعين إليها..وهذه وثائق إيطالية مترجمة إلى العربية..وإليك نسخة فريدة من دراسة اجتماعية ميدانية وضعتها الجامعة الليبية في منتصف الستينيات عن مدينتك،ستجدين فيها أرقاماً تسرُّك..وهذه مجموعة كتب أخرى ستجدين فيها بعض ما يساعدك..لا تكترثي بحجمها..لخِّصي منها ما يفيدك في بحثك..وإن لم تجدي فيها مبتغاك فثمة متعة في قراءتها.. مدَّ يدَه يناولها كيسَ الكتب..وأضاف :

– وستجدين أيضاً كتاب عن معتقل العقيلة كتبه إبراهيم الغماري الذي كان من بين المعتقلين..وهو أيضاً أحد المصادر المهمة..ونسخة مصورة من كتاب الطاهر الزاوي المسمَّى معجم البلدان الليبية..وآخر عن المواقع والوقائع الليبية لعبد السلام شلُّوف..هل ينقصك شيءٌ آخر؟..

كادتْ تقفُ من مكانها تصافحه وتشكر صنيعه.لولا أنه أستطرد في حزم:

– علينا معرفةُ أهمِّ وأبرز المؤثرات في مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية والتعرض لها..ردَّتْ هدى بحماس مماثل:

– صحيح ..

– وهذا يحتِّمُ عليك أن تفتّشي عن رسائل الماجستير التي أُعدَّتْ عن المدينة إن وُجدتْ،حتى غير المنشورة منها..فهي تُعدُّ رافداً مهماً في بحثك.. أليس كذلك ؟..

– ومن يقول غير ذلك أيها الأستاذ ؟..ما تقوله الآن قد أستغرقُ وقتاً طويلاً ومن آخرين كثيرين لحصولي عليه..أشكرك..ولكن هل لي بسؤال ؟.

– ابتسم في هدوء وقال:سنجد وقتاً فيما بعد للأسئلة..

– هو سؤال واحد لا ثاني له..

– تفضلي..

– هل تخصَّصتَ في التاريخ ؟..

– لا ..

– لكن ما تقوله.....

قاطعها بابتسامة أوسع :

– ما أقوله هو نتاجُ قراءة متواصلة للتاريخ..التاريخُ لا يستغني عنه أيُّ قارئ..

صمتَ لثوانٍ ثم نظر إلى ساعته وقال وهو يصنع ابتسامةً دبلوماسية على شفتيه..سيكون عليك الاطّلاعُ على كل هذه الكتب وتدوين ما ترينه مناسباً لبحثك..في موعدنا القادم سنرى ما نتج عن هذا الاطلاع..عليَّ أن أرى ذلك مكتوباً..

فهمتْ هدى أن الأستاذ أنهى حصَّتَه معها..وأن وقتَه المتبقّي لم يعُد وقْفاً عليها وحدها..وقفتْ تتناول كيسَ الكتب وتعلق حقيبتَها على كتفها وتهمُّ بالمغادرة..قبل أن تمدُّ يدَها مصافحة رفعتْ إليه عينين اجتمع فيهما كل امتنان تعرفه..

– لا يمكنني التقدُّم بدون مساعدتك..قالت في ارتباك..

– كان بإمكانك أن تقولي : يمكنني التقدُّم بمساعدتك..أليس هذا أفضل؟..ردَّ وابتسامة عريضة تعمُّ ملامحَه..

– لا فرق..الأمر سيَّان..أجابتْ في حزم..

– لا..ليس كما تظنين..يمكن لأي إنسان التقدُّم بمساعدة الآخرين..فتفرُّدُنا لا يغنينا عن الآخرين..

أحسّتْ الأنثى داخلَها أن عينيه قابلتا امتنان عينيها بصخبٍ مغاير..لكنها لم تأبه لحظتها..قالت في خَفَر :

– أشكرك أستاذي..أستطيع أن أقولَ بكل ثقة إنَّني محظوظة..لقد وضعك الحظُّ في طريقي..

– هذا من دواعي سروري أيضاً..على الرُّحب والسعة..

صافحَتْه..الثواني الخاطفة التي مرَّت على كفه وهي تحضن أنامَله صعُب التمييز بين أصابعها وأصابعه..كانتْ كفيلةً ببعث شعورٍ غريبٍ تخلّله لحظتها..

أسامة الذي كان يتململ طوال اللقاء ما أن رآها تتأهّب للمغادرة حتى وقف يحثها بعينيه وحركاته على المغادرة..في طريق عودتها هي وأسامة بدتْ لها المدينةُ أكثرَ ألفةً..تسير في جذل كأنها تطرق دروبَها أولَ مرة..اختلطتْ الشوارع تلتحم بالمساكن..بوجوه الناس..يؤنس خطواتِها وقعُ كلماته الحانية التي أغدقها عليها خلال لقائه بها..

في ذلك اليوم تنفَّس قلبُها سعادةً غيرَ مألوفة..تفكر طوال الطريق بسحر كلمات ذلك الرجل..لم يذهب من خيالها كل الوقت..

لايمكن لهذا الرجل أن يكون من خارج التاريخ..ما أحضرَه لها من كتب وما كان يقوله لها لم يكن ليخلو من منهج رصين قلَّ مرورها به خلال دراستها للدبلوم..وما كان يفرّقه بينه وبين أساتذة التاريخ في الجامعة هو تلك المرونةُ وإحاطتُه بكثير من المعلومات التاريخية وسعةُ الصدر التي تعوز الكثيرين ممَّن علّموها ..

ثمة تساؤل ينتفض في صدرها..ترى هل كل ذلك كان من أجلها؟..لم تكُن هيأتُه التي قابلني بها هي ذاتَ الهيأة السابقة..ولا ذاتَ العطر..ولا حتى تسريحةَ شعره التي اختلفت..كان أكثرَ رقةً ورومانسية..سيطرتُه على كلماته

وطريقةُ نطقه لها كانت تشبه طريقةَ الممثلين..لكنها لم تستغرب ذلك،فقد عرفتْ عنه اشتغاله بالمسرح ومتابعته اللصيقة له..إيماءاتُه تحرِّك أسئلةً كامنةً في الثنايا الخفية منها..ذلك الرجل الذي يفتك بـــــ...يفتكُ بماذا؟!..

شعرتْ بالتواء جوارحها إلى درجة أربكت خارطة مشاعرها..لم يكن ارتباكها أمام ذاك الرجل إحساساً بنقص في نفسها وجمالها وكفاءاتها..لكنه كان نوعاً من خشية الالتقاء بنجم ظنَّتْ أنه قد يحرقها وهجُه الثقافي والفني..

تنهّدتْ : " إذا قضيتُ معكَ الوقتَ لثلاث دقائقَ أخرى سأقع في حبِّك!"..لا أظنُّ أن هذه الأوهامَ التي احتلَّتْها على مباغتة ستُحدث شيئاً مهماً بينها وبينه..ما أدركتْه فقط أنه يحوز على الكثير من إعجابها به..وأنّها في غاية الفرح بهذه المصادفة العجيبة، وأن الأخبارَ السعيدة حين تأتي،تاتي جميعُها كما يقول المثل الهندي..

اختصر هذا المنولوج المسافةَ إلى البيت غيرَ آبهة للحارس الصغير الذي يرافقها..

كان أول ما فعلتْه هدى عصر ذلك اليوم أنها اعتكفت في حجرتها التي تشاركها فيها أختها الصغيرة..أغلقتْها عليها وطرحتْ أمامها في فوضى ما أحضرته من كتب..طفقتْ لبعض الوقت ترنو إليها في رهبة وتلكؤ، لكنها ما لبثتْ أن انكبَّت تقلِّبها ولكن هذه المرة بشهية وفرح..

(٢٤)

قبل أن يغادر محمود فاضل مكتبه على عجل، عرّج على مكتب السكرتيرة وألقى إليها حزمة من الأوامر والملاحظات..ثم غيَّبه الباب الكبير..

كان يمنِّي نفسَه براحة مستقطعة بعد ليلة طويلة قضاها حتى مطلع الفجر رفقة طقم التحرير في إخراج العدد المقبل من الصحيفة..لكنه لم ينعم بالراحة التي ينشدها..فقد أمضى معظمَ وقته يفكر في هذه الفتاة رائعة الحضور.. أشعلت قلبه كالمصباح طوال الليل..حرَّكتْ فيه مشاعرَ كان يظنُّ أنها لا وجود لها في حياته بهذا اللقاء غيرِ المدبَّر..

تعجَّب من نفسه..كيف انقضت كل هذه السنوات من عمره دون أن يشعرَ بالمرأة في حياته على هذا النحو الذي يحسه الآن ؟

لقد كان له زميلات في العمل وفي الصحيفة وفي المسرح وعالم الفن.. وكانت هناك (عائشة) الكاتبةُ الجريئةُ التي كانت تكنُّ إعجاباً شديداً بكتاباته ويرى فيها قلماً ذكياً قريباً من قلبه..لكن أياً منهن لم تشعره بوجودها كامرأة.. لم تلهب عاطفتَه على هذا النحو وبهذه السرعة العجيبة الغريبة..

ربما كان ذلك راجعاً إلى خمود عاطفته واستحواذ الكتاب وعالمه المتشعب والدراسات المبعثرة وانشغاله بالمسرح والفن على تفكيره..

أو ربما لأنه لم يلتق في حياته بعد تانيا بفتاة لها كل هذه الفتنة وهذا السحر اللذين تبدو عليهما هدى.

مرَّ عليه وقتٌ أحسَّ فيه بميل إلى عائشة خاصةً مع كل ما منحته له من اهتمام بكتاباته ولم توفر مناسبة للإشادة به وبما يكتب..إضافة إلى خفة روحها وابتسامتها اللصيقة بشفتيها على الدوام،حتى وصل به الأمر أنه كان يردِّدُ لنفسه أنه إذا فكر يوماً في الزواج مرة أخرى فإن عائشة ستكون هي المرشحةَ لكي تصبحَ الزوجةَ الثانية إذا رضيت..

لكنه لم يخطِّط للوقوع في الحب مرةً أخرى..لا يريد الوقوعَ في الحب ثانيةً، لأن المصيرَ قد سَخَرَ من حبه ذات مرة..فأدار له ظهرَه..لم يكن واثقاً أنه سيحب مرة أخرى..لكن قلبه انزلق من يده مثلَ الرمل !..

فلأول مرة في حياته المزدحمة بالمسرح والفن والدراسات الأدبية والصحفية والحفلات الموسيقية ومعارض الكتاب يكتشف أن هذه الحياةَ يمكن أن يكون لها لون وطعم آخر..

لأول مرة يجد نفسَه مأخوذاً على هذا النحو تجاه امرأة قرعتْ بداخله أجراساً صامتة..امرأة لها نفس المقاسات التي كانت ترتسم في عقله منذ كان مراهقاً يرتاد صالات السينما ويتابع الأفلام بشغف مجنون..هذا الجمالُ لا

يخطئ هدفه أبداً..هاتان العينان المتاهتان بدأتا تشغلانه برغم المسافة بينهما..أدخلتا كيانه في وجدٍ لم يبلغ درجتَه من ذي قبل..منذ تانيا المسافرة فيه ولن تعود..

وهذا يعني أن هناك فارقاً بين أن يشعر المرء بالتقدير والامتنان تجاه امرأة تمنحه رعايتَها ودفءَ مشاعرها، وبين أن يفتن بفتاة واقعٌ تحت تأثير سحرها..هذا الأمر الذي أفضى إلى سيلٍ من الأحداث المدهشة بدا كمزحة..هو الحب إذن الذي لا يمكن التنبؤ به..وعليه أن يقرَّ لآخر مرة أنه واقع في الحب..

في الموعد التالي لم يكن محمود يتابع ما يدور في الندوة الأدبية التي يقيمها لفيف من المهتمين بالشأن الثقافي بالمدينة..بل بدا عاجزاً عن التركيز في ما يدور من حديث..فقد كانت صورة هدى ماثلةً أمامه بكل إيماءاتها الساحرة..أحسَّ بشيءٍ من الخجل تجاه نفسه..فها هو الكاتب الصحفي والمخرج المسرحي بعد هذا المشوار يسلم نفسَه لمشاعرَ مراهقة تدفعه إلى التعلق بفتاة التقى بها مصادفةً منذ أيام قليلة، وإلى الحدِّ الذي يجعله شارداً عاجزاً عن التركيز في ندوة أدبية يهمُّه كل حرف يقال خلالها..

ترى ماذا يقول عنه هؤلاء الذين جاؤوا يشاركونه تلك الندوة !..لو عرفوا أنه بعيدٌ عنهم الآن وعن نظرياتهم وتحليلاتهم وآرائهم الأدبية..وأنه منشغل بوجه جذاب لفتاة يتراقص أمام عينيه..ولا يستطيع أن يبعدَها عن تفكيره..

قال يحدِّث نفسه :

– يا لك من غِرٍّ ساذج يختفي خلف أديب صحفي ..

لكن صوتاً جاء من أعماقه ليردَّ هذا الاتهام :

– بل قل : يفتقد حبّاً حُرم منه سنوات غارقٌ إلى أذنيك في الدراما والفن والدراسات والكتب والندوات تلاحقها في كل مكان..تستنزف جهدَك وجيبَك وأعصابَك..إن افتقادَك للحب هو الذي جعل قلبَك يخفق بين ضلوعك وقد أيقظتْه تلك الالتفاتةُ الساحرة..ذلك الوجهُ الفاتن الذي وضعه القدرُ في طريقك ..

وتنبه على صوت مدير الندوة وهو يكرّر له النداء :

– أستاذ محمود !..

– نعم ..

– لقد سألتك رأيَك عما قيل عن الخطاب الإعلامي وأثره في مسار الصحافة..

– لم أنتبه..أعتذر..يبدو أنني سرحت وابتعدتُ عنكم كثيراً..

استقبلتهما السكرتيرة بابتسامة لزجة وهي تسبقهما إلى مكتب الكبير وتركتهما تنتظران..ثم عادت بفنجاني قهوة..وضعتهما في صمت..وقبل أن تغادر سألتها هدى عن الأستاذ محمود..تفحَّصتْها بنظرة فارغة..أجابتها أنه يحضر ندوة بالمركز الثقافي..لكنها لم تجبها إن كان سيتأخر أم لا..وانصرفت إلى مكتبها المجاور..

نظرت هدى إلى ساعتها وإلى أمينة وعلى وجهها ملامح القلق..استبدَّ بها غضب حاولتْ جاهدةً أن تخفيه عن أمينة التي بدا عليها التململُ أيضاً..

لقد كانت تأمل أن تجده ينتظرها..كيف له أن يحرجَها أمام صديقتها التي لا يملأ عينها أحد..وقد أحضرتْها خصِّيصاً لتراه..

ملأت رأسَ صديقتها به..حدَّثتْها عنه وعن عموده الصحفي الشهير وبما لديه من كفاءة في الحديث عن التاريخ والجغرافيا وكثير من المعارف، وبما يملكه من مراجعَ مهمَّة تساعدها في بحثها..خاصة وأن أمينة ستقدم هي الأخرى لرسالة ماجستير مماثلة تناقش مقترحَها قريباً..

لماذا تأخر؟..وهل سيحضر أو سيعدُّ الأمرَ معها قد انتهى عند حدِّ إعطائها الكتب وحثها على قراءتها وتدوين ما يمكن تدوينه منها في أوراقها الخاصة ؟!.

إن حدسَ الأنثى يقودها إلى ذلك الأثر الذي تركتْه في نفسه بعد لقاءاتهما القصيرة معاً..ولا يمكن أن تخيبَ ثقتُها في إحساسها بذلك وما رأته في عينيه وتعبيرات وجهه..هل كان هذا الأثرُ كافياً إلى الحدِّ الذي يدفعه إلى الالتزام بموعده معها..أم أنه مجرَّد تأثير عابر انتهى بانتهاء هذه اللقاءات المبتسرة ؟..

هي أيضاً ليستْ متأكدةً أنها ستحب مرةً أخرى بعد عشق تهشّم وتجربةٍ كانت قاسية..لكن كل هذا الذي يحدث محض خداع..ليس حبَّاً من كليهما..وكما يقول صادق النيهوم[1] : (لم يحدث شيء..ولم يكفّ شيءٌ عن الحدوث)!..

نعم..لقد قرأَتْ في عينيه شيئاً يخصُّها حين كان يتأملها بتلذُّذ.. لكن ثمة

---

(١)كاتب وأديب ليبي راحل .

ما يومئ لإحساسها أنه يخفي ألماً ما..بل لعله خائفٌ من النار التي أشعلها قلبُه في صدره..حديثُه..ارتباكُه..نظراتُه التي يهرب بها بعيداً عنها..رجفُة نبرته..كل تلك العلامات وشتْ لها بأنها في حضرة رجلٍ يمكن تصنيفه بأنه عاشقٌ قديم أوغل في عشقٍ، تفاصيلِه ما زالتْ تسكن أوصالَه..رجلٍ ما زال يفتخر بما أنجز من عشق وما حطَّم!..هكذا حدَّثتْها فطرة الأنثى..

لو فعل ذلك قبل أو بعد قدوم أمينة معها لهان الأمرُ قليلاً..لكن أن يخذلها أمامها، فهذا ما لم تستطع احتماله..

" لماذا تأخَّرتَ ؟..أخشى أن تفوتني أشياءٌ كثيرة عندما تتأخر عليَّ!..حين التقيتُك رأيتُ عالماً آخر لأول مرة "..قالت ذلك في نفسها..

عبرتْ لحظاتٌ قاسية عبَّر الصمتُ فيها عن كل شيء..نظرتْ هدى في استسلام إلى أمينة التي لوتُ جانباً من فمها وهي تدير خاتماً في إصبعها في إشارة إلى نفاد صبرها..

– هل سيأتي أستاذُك ؟..قالت أمينة في صوت فيه من السخرية أكثر مما فيه من التساؤل..

– لستُ أدري..لعلَّ مانعاً أخَّره..كنتُ أجده في انتظاري..

ردَّتْ أمينة :

– ألم تقل السكرتيرة أنه يحضر ندوة ؟..هل علينا أن ننتظره حتى يفرغ منها..

- بل علينا أن نغادر..

- ألا يمكن أن تتَّصلي به..لعلّه في الطريق..سألتها أمينة تستفزُّها..

- لا داعي..هيّا..

رمتْ بتلك العبارة ووقفتْ..

- حسناً..انتظري دقيقة حتى أكملَ قهوتي..أجابتْ أمينة في برود.. ومدّتْ يدَها للفنجان وفي عينيها نظرةٌ عابثة..

شعرتْ هدى بأن أمينة نالت منها على نحو سافر..لكنها لا تملك حيال ذلك شيئاً..فما حدث جديرٌ بالسخرية والإهانة..وعليها أن تتحمَّل تبعة ذلك..استوطنها غضبٌ عارم..ارتجفتْ شفتاها..احمرَّت بشرةُ وجهها غيظاً..غاب صوتُها في حلقها..وزاد غضبها وهي ترى أمينة ترتشف القهوةَ بطريقة مستفزة ..

هذا ما كان يجب أن يحدث!..أن يخذلها الأستاذ محمود ويخلفَ وعده أمام صديقتها أمينة..بل هذا ما لم يكن عليه أن يحدث أمامها..ليتها لم تخبرْها!.. لو جاءت بمفردها لكان ذلك أفضل لكرامتها ومشاعرها..أدارت وجهها بغيظ يعربد في أعماقها..

وبينما هي كذلك إذ سمعت بابَ المكتب الكبير يُفتح..رائحةُ عطره تتمدَّدُ في المكان..صوتُه يهلُّ على السكرتيرة بالتحية والسؤال عن العدد الجديد..كادتْ تندفع نحو الباب تستقبله مرحبةً كأنه ضيفُها..كادت أن تقول له معاتبة لماذا تأخرتْ يا رجل!..تبادلتْ للحظة النظرات مع أمينة التي

تحول وجهها إلى حجر..غمرها إحراج مفاجئ..استعادتْ وضعَهاالسابق..رجعتْ إلى مقعدها تبتسم وشفتاها تتحركان..

حين أطلَّ..وجهُه كان في كامل أناقته..في كامل ابتسامته..في أكمل معنوياته..في كامل شهيته لاستقبال ضيوفه..وقفتْ الفتاتان تستقبلانه..توقّف قلبُه لثوانٍ..سبَح في وجهيهما لمحةَ بصر ثم تقدّم يصافحهما معتذراً عن تأخره..عاتبته عينا هدى في ودّ..اتخذ مكانه خلف مكتبه..جاس بصرُه المكانَ لبرهة قبل أن يسأل :

– أين الحارسُ الصغير ؟

– لقد تمَّ استبداله بحارس أفضل..أجابت هدى وهي تستعيد ابتسامةَ شفتيها..وأشارتْ إلى أمينة.

– كان يجب لفتاة مثلك أن يكون لها أكثر من حارس !..

لم يرَ بُشرةَ وجهها أكثرَ حمرةً من تلك اللحظة..ابتسمت في خجل..أظهرت له جمالَ فمها الصغير..نظرتْ إلى وجهه بامتنان..لم تنطق..لم تدرك لحظتَها أن تلك الصورة قد حوَّلتْ وِجهةَ قلبه المرهق وجهةً مختلفة..

– هذه أمينة صديقتي..

– أهلاً أمينة..قابلها بها بابتسامة مرحِّبة..

ردَّتْ أمينة في اقتضاب..الآن تذكَّرتْ أين رأت هذا الوجه..لقد مرَّ عليها مرة أو مرتين حين كانتْ تطالع الصحيفة..لم تكن تهتم كثيراً بقراءة الصحف..لكنَّ ذاكرتَها استدعتْ هذه الصورة..هذا هو إذن الأستاذ محمود الذي امتلأت به هدى منصور!.

قطعتْ هدى أفكارها وهي تقدّمها له :

– صديقتي أمينة هي أيضاً طالبة دراسات عليا في التاريخ..

– عظيم !..في أي أقسام التاريخ ؟..القديم أو الحديث أو المعاصر.. استفسر في هدوء..

تبادلتْ الصديقتان النظر..فيما علا قسماتِ هدى بعضُ زهوٍ أمام أمينة.. فأقسام التاريخ وحُقَبه لا يعرفها إلا دارسُ التاريخ..

لم يخلُ من تحدٍّ قالت أمينة في صوت واثق :

– تاريخ معاصر..التاريخُ الحديث طويلٌ ومتشعَّب يرهق الباحث..أما القديم فهو أكثر تعقيداً ولا يروقني البحث فيه..

– هذا جيَّد..على الباحث أن يبحث في ما يروق له..أحترمُ جدّاً التاريخَ وأهلَه..ولا غنىً عنه لأي مثقّف..أهلاً آنسة أمينة..هل شربتما شيئاً أم أطلب لكما؟..

سبقتها أمينة بالردّ :

– شكراً ..قدَّمتْ لنا الأخت القهوة..

– أعتذر مرةً أخرى..لقد تورَّطتُ في ندوة طويلة لم أستطع التخلَّصَ منها بسهولة..

– لا بأس..

ساد صمتٌ غريب..

– " أمسكَ بكفي..أبقاها هنيهة..تداخلتْ أصابعُنا..نشوةٌ لذيذة سرتْ من أصابعه.." قالت هدى في نفسها..

– " شعرتُ بمدى فرحها بي..ملمسُ يدِها له نبضٌ مختلف..شددْتُ على يدها أكثر..قالت لها أصابعي ما لم تستطع ترجمَتَه"..قال محمود في نفسه ..

– " أحرك أصابعي لأتخيَّل مكان كل واحدٍ منها..ينظر إليَّ خفية.. تتضاعف بداخلي غبطةٌ تستقر على ملامح وجهي"..قالت هدى في نفسها..

– " قبل أن تنفرطَ كأن أصابعَنا تواعدت على الالتقاء ثانيةً "..قال محمود في نفسه..

– " أحضرتُ قلبي معي..قلبي الذي أعرفه..ما حدث شيء لا يمكن إدراكه..التقت عيوننا فرحاً..كدتُ أقول لك أنظر إلى عينيَّ..لا تصدَّقني إن كانتْ عيناي تكذبان !.. "..قالت هدى ..

– " المسافة البعيدة بيني وبين عينيك ما زالتْ تشغلني..منذ حين.. منذ تانيا وأنا أبحث عن مواصفات صُنعتْ في ليبيا..لم أعرفْ إن تفتّحتْ مشاعري لغيرها..وفرقٌ كبير بين أن أُحبَّك لأنك جميلة، وجميلة لأني أحبُّك..لكنه فعلُ نظراتك وتلك الابتسامة التي تدلقينها بدلال..صوتك.. قسماتك..ماذا تريدين منِّي؟.أخشى ألَّا تجدي ما تبحثين عنه لديَّ..أتمنَّى ألّا يكون ذلك قصةَ حب..فليس لدَيَّ شيءٌ أعطيه لأحد..ولا حتى الحب "..قال محمود في نفسه..

كأنه سمع همسَ صوتِها : لكنَّك أنتَ من يلاحقني !

ثم ....

– حسناً..هل أنجزتِ شيئاً ؟..توجّه بسؤاله لهدى فيما علِقتْ عيناه بوجهها الصبوح..

كانت تنتظر سؤالَه..تناولت أوراقاً من حقيبتها..ناولتْها له في صمت.. مرَّ على الورق بعينيه..استحسن خطَّها..قرأ الأسطرَ الأولى مهمهماً..خطرتْ له فكرة..أعاد إليها الورق..طلب منها أن تقرأ هي عليه..أراد أن يختبرَ تعبيرَها من خلال الجمل والمقاطع..فهي علامات الترقيم التي لا تُكتبُ بل تُنطق..

بسطتْ أوراقَها وطفقتْ تقرأ بتمعّن :

تعدُّ دراسةُ المجتمع وثقافته من حيث تناول تفاصيل الحياة وطبيعة سير وأنماط الحياة فيها والظروف المؤثرة عليها في فترة تاريخية معيَّنة من القضايا المهمة الجديرة بالبحث والدراسة، حيث اعتبر(جون توش) في كتابه (المنهج في دراسة التاريخ) أن دراسةَ المجتمع أهمُّ المواضيع الرئيسية والمهمَّة التي يُعوَّل عليها في الكتابة التاريخية، وأحدُ الأصناف التي أصبحت جزءاً راسخاً من مظاهر البحث العلمي مع نهاية القرن التاسع عشر، إضافةً إلى التحول الذي صار أكثر أهمية في مجال الدراسات التاريخية أثناء القرن العشرين..وهو التحوّل من دراسة الأفراد إلى دراسة المجتمعات من خلال تتبع سلسلة سير الأحداث العامة، والتي من خلالها تكون إنجازات أو انتكاسات الأفراد أكثر وضوحاً..

صوتُها الطفلُ يتغلغل في كل خلية منه..يهدهده برفق..يحسُّه دافئاً متدفّقاً..فكان يستزيدها لتقرأ أكثر كي ينسكبَ في روحه..ولعلها هي أيضاً أحسّتْ لحظتها بما يسري في شرايينه من وجْد فازداد صوتُها تألقاً كما لم يكن من قبل..الأنثى في أعلى مراتبها تُمارسُ الآن على أوسع نطاق !.

توقّفتْ عن القراءة لتقيس حرارةَ قلبه وحالة هيامه..واتتها جرأةٌ خرقاء حين باغتتْه بسؤالٍ فيه من الكثير من الخبث :

– هل تسمعني؟!..لعلك سرحت!..

أعاده سؤالُها إلى سابق وقاره..بعد أن كادتْ مشاعره تفضحه..استعاد وضعه السابق..ردَّ متصَّنعاً :

– لا لم أسرح..كنتُ أتابعك..أكملي..

– ما رأيك ؟

– مقدمة جيدة..لغة سلسة بعيدة عن الإنشاء..فالكتابة للتاريخ تختلف عن الكتابة للأدب أو الفقه أو الفلسفة أو القانون..أعني أن لكل علم أسلوبَه..ما رأيك..؟قذف بالعبارة في عيني أمينة التي ارتبكتْ..

تبادلتْ الفتاتان النظر في ابتسام..لكن اختلفت ترجمة الابتسامتين!..ابتسامة زهو تصدر عن هدى..وابتسامة إذعان تصدر عن رفيقتها..

وكلا الفتاتين كانتا تدركان معنى تلك النظرة بما تكمن في كل منهما من

أنثى!..

و....توالت اللقاءات..تعاقبت المواعيد..الاتصالات..سيلٌ من الأحداث وقع..نمتْ عاطفةٌ طالتْ كلَّ شيء..كلٌّ منهما أحسَّ بألفة لم يحسّها مع سواه..كان الحب قد بدأ لتوه..أسلمتْ له جوارحَها..فأهداها قلبَه..

ما هذه الأوقات السعيدة ؟..ماذا يمكن للحياة أن تفعلَ به مجدَّداً ؟..كان يشتاق إليها على الدوام..حينما يكون برفقة أحدٍ ما لا يرى سواها..بل يراها في كل الوجوه..وعندما يكونا معاً يحتار كيف ينظر إليها..يفتقدها وهي بجواره..

يوماً بعد يوم تغرق عيناها في دوائر شعور غير مرئي..ما ذلك الشيء الذي يسكنها..يغرقها..يجعلها ضائعةً وهي تجلس قبالته..تبدو مندهشة كلما تحدَّث معها..يزداد صفاءُ عينيها اتساعاً..يطيل النظرَ في كستناء عينيها الصافي..ترمش جفونها.. تنكسر نظراتُها من جديد..تبتلع كلماتها ..

قادها ذلك إلى أن تكتشف سرّاً تخفيه عن أمينة..سرَّ مشاعرها تجاه محمود..فذاك سرُّها الخاص الذي لم تخطَّط لإخفائه..وهل لأمينة أسرارٌ لا تعرفها ؟!..لا شكَّ أن لكلٍّ منهما أسرارُه الخاصة!..هذا ما ستوطِّن عليه نفسها من اليوم..أن يكون بداخلها صندوق بدون باب فيُفتح !.

وسارت الأمور في رسالة الماجستير كما ينبغي..كثرت الزيارات الميدانية لبعض المواقع التي تدعم البحث..تنوَّعت التسجيلات مع كبار المسنّين وازدادت الأشرطة يوماً عن يوم..وكانت تدفع بها إلى الدكتور المشرف الذي

كان يبدي القليل جداً من التعديلات الطفيفة..

صار على هدى أن تقرأ كثيراً من المذكرات وتراجع الكتبَ بكثير من الدقة، وتقف على الملاحظات اللغوية والبلاغية التي كانت تتلقَّاها من أستاذها محمود،هذه نواصب الفعل المضارع..وتلك الأفعال الخمسة المتأثرة بثبوت النون أو بحذفها..وذاك جمعُ المذكر السالم والتكسير..وهذا معطوف على ما قبله وهذه أنواع اللام النافية..وتلك حروف العلة وكيف تُحذف.. وتلك أدوات الشرط..

وتخلَّصتْ من الكثير من الأخطاء الإملائية التي كانت شائعة في أوساط طلبة الجامعة..وإلى ذلك كانت تجد الوقتَ لتقرأَ بعض ما يغدقه عليها من روايات ودواوين وكتب شهيرة في الفكر والتراث والتاريخ لم تمرُّ عليها أثناء دراستها الجامعية ولا تجده في مكتبتها العتيدة!..بل لم تكن تكترث بها حتى وإن رأتها على أرفف المكتبة.. وأكثر من ذلك فقد ازدادت تعلقاً بهذا الرجل ليس بما يحمل في رأسه من معلومات متنوعة..بل إنه كان يجيد مداعبةَ يدها بين يده مثلما تفعل أمها حين كانت طفلة..أين كان هذا الرجل الذي منح وصولُه إليها الحياةَ لجسدها الخاوي من الروح ؟..

(٢٥)

لم أكنْ أدري أن ثمة روحاً خفيةً كانت تسخر منِّي..وأن حياتي كانت عنقودَ وهم..كل شيء تحوَّل إلى ذكريات مشوَّشة وبعيدة..وصارت ذكرياتٍ بلهاءَ يحلو لي أحياناً أن أستعيدها..

أعود بذاكرتي إلى أيام خلتْ،حين كنتُ أسير ومحمود في أروقة المكتبة..وكيف كان يحضن أصابعي بيده فيهدئ من رجفتها قليلاً..لم يكن أحد يعرف تلك المشاعر التي تنمو بداخلنا، وإن كنتُ أظنُّ بأن أمِّي يقودُها حدسُها إلى معرفة هذا الانقلاب الحاد في حياتي..لكنها كانت تكتفي بالتمتمة بعبارات مبهمة كلما حضرتْ أمامها سيرةُ الأستاذ محمود وتردُّدي عليه بالمكتب..كنتُ أحسُّها تتابع المشهد بقلق الأم بالرغم من مرافقة أسامة أو أبي أو أمينة لي بطريقة لصيقة وحرصي الشديد على كتمان ما حلَّ بقلبي عن الجميع، حتى عن أمينة رفيقة العمر..تلك أيام حفلتْ بكل جميل ورائع ومدهش..

ما يزيد على سنتين لم أنقطع عنه ولم يخلف لي موعداً..سنتين حبّ..تاريخ..متابعة..تصحيح..تصويب..تعليم..ودّ عجيب يتهاطل مثلَ المطر..

إعتقد كلٌّ منَّا أن الليل لم يُخلق للنوم فقط..كنا نخصصه للرسائل النصية..نظل على تواصل وتوادٍّ حتى يباغتَنا الصباح..أمَّا النهار فكنّا نقضيه في رسالة الماجستير وشجونها..

وعندما كان محمود خلالها يحدِّثني بشوق بالغ عن رفيقته الفرنسية..كنتُ أتقبّل ذلك بنفسٍ راضية مطمئنة..رغم إصراري على عدم ترك ذكريات الآخرين تؤثر بي..لكنْ أنا من فاز بقلبه الآن ولا أحد غيري يملأه بعدها..لقد أصبحت تانيا أثراً بعد عين..وغادرتْ - إلى الأبد - غرفاتِ قلبه..وليس مَن يشغلها سواي..ظننتُ أنّني استحوذتُ على قلب محمود وحزتُه بالكامل، ولا يمكن له أن يخذلَني..لم يكن في حساباتي أنَّني سأخسر هذه المواقع المتقدمة في حياته..

لكن من تكون عائشة هذه؟..وكيف لها أن تستأثر بكثير من حفاوة محمود كلما حضرت لزيارته..لقد وقر في ذهني أنها كانت تتعمَّد هذا التردُّد أثناء وجودي معه في المكتب بعد أن عرفتْ مواعيد زياراتي المعتادة..تجرأتُ مرةً وسألتُه عنها فأجابني أنها شاعرة وكاتبةٌ صحفية لامعة مثقفة وكتاباتها على جانب كبير من النضج والجرأة..ويكاد يستطرد في سرد سيرتها الإبداعية وإعجابه بها، لولا أنه يلاحظ ضيقي من متابعته فيتوقف عند هذا الحدّ..

و....تكررّتْ زياراتُها لنا..ضقتُ ذرعاً بها..ما عدتُ أطيق وجودَها ليس في المكتب فقط،بل في حياتي كلها..ليس خلال البحث، بل حتى بعده وإلى الأبد..هذا ما أملتْه عليَّ المرأةُ الغيورةُ التي تسكنني..

مرة باغتتْنا أنا ومحمود رفقة أسامة الصغير..جلستْ بطريقة استفزازية وطفقت تلوِّح بأهمية مكانتها عند محمود..في محاولةً لإثارتي..كانت تشمخ بأنفها وتتكلم بفوقية مقيتة،متجاهلة وجودي..تأتي عائشة فقط لزرع الحقد في صدري..هذا ما كنتُ أُحسّه عند كل زيارة..

في المرة الأولى التي قدَّمني إليها محمود..نظرتْ إليَّ بعينين متفحِّصتين..حيّتْني بجفاء ونبرة استخفاف قالت من جانب فمها :

– هذه إذن تلميذتك !..صاحبةُ الماجستير التي حدَّثتْني عنها..ليتها تستطيع الاستفادة منك..

– إنها تتقدَّم بسرعة..اهتمامها بالرسالة جعل منها باحثةً جيدة وقارئة ذكية..قال محمود.

– أرجو ألاَّ يضيع جهدُك معها سدىً!..

ابتسم محمود في خجل..وسرَّب عينيه خفيةً إلى وجهي دون أن يعلِّقَ على عائشة..

– لو كنتُ مكانك لحفظتُ كلَّ كلمة يقولها..ولو استطعت لسحبتُ منه المعلومات مثلما أسحب الدم بالحقنة من الوريد..لا تضيِّعي الفرصة أيتها الطالبة..أضافتْ عائشة في تعالٍ ..

رميتُها بنظرة رمادية تُخفي طبقات كثيفة من الحنق..اكتفيتُ بالصمت..لكنها لم تكتفِ بإثارة غضبي، بل تبسَّطتْ في الحديث مع محمود..وشرعت تروي له حكايات مختلطة سمجة، فيما ظلّت الضحكات بينهما تتناسل في المكان..كأن الأمرَ ينمُّ عن قصديَّة مخَطَّطٍ لها..

وإمعاناً في نرفزتي أخرجتْ أوراقاً من حقيبتها واستأذنتْني لعرض بعض قصائدها الشعرية لتعرضها على زميلها محمود..

– هل أستطيع أن أستأذنَكِ في تأجيل درس التاريخ قليلاً لعرض مخطوط ديواني الجديد على أستاذي محمود..هو أيضاً أستاذي مثلما هو أستاذك !..أليس كذلك؟!.

قذفت عائشة بهذه العبارة نحوي مثل رشة رصاص طائش في كل الأنحاء..قلبي كاد يغادر صدري..أنزف جوفي قطعة قطعة..وددتُ أن ألطمَها على وجهها وأغرسُ يديَّ في شعرها المجنون أقطعه نتفاً صغيرة.. وما أغاظني أن محمود كان يتواطأ معها ضدي..هذا ما قرأته في تعابير وجهه التي تجمّدتْ فجأة..

تلك اللطمةُ الأخيرة كانت أكثرَ عنفاً عليَّ..أحس بهامحمود.. إحراج فجٌّ غطَّى ملامحَه..دسَّ وجهه بين يديه..بلعَ لسانه..عاد ليحدِّقَ فيَّ من جديد وفي عينيه اعتذار مرتبك..

قلت وأنا أحاول السيطرة على مشاعري وأجمع ما اضطرب منها :

– لا بأس..أنا أيضاً يجب أن أغادر..أشعر بصداعٍ يطرق رأسي بحدة. أستأذنكما..

جمعت أوراقي..قمت من مكاني..وقف أسامة ليسبقني إلى الباب.. وقف محمود معتذراً..أفرد ذراعيه..اعترضني..

– ماذا حصل؟..هل أنتِ بخير؟..

– لا شيء..إنه الصداع..لا قدرةَ لي على دفعه إلا بالاستلقاء على السرير..
سأحضر في موعدنا القادم..

غادرتُ المكان على عجل..كنتُ أستعجل الخروج خيفةأن تداهمني موجة غضب أقذف عباراتها في وجه هذه المتعجرفة..لماذا تصرِّين على إهانتي على هذا النحو؟..هل هي الغيرة؟!..بل لعله الحسد؟!..هل هو التآمر على القلوب البريئة؟!..

لكنَّني أملك شيئاً لا يمكنك الحصول عليه يا عائشة..إنها كرامتي..وعليَّ أن أستعيدَها..

نزلتُ الدرجَ بسرعة..قلبي ينفطر أسىً..أنفاسي مذعورة..كلها صارتْ شهيقاً..وما يخرج منها خلسةً ينسكب ساخناً على شفتي..يبتلعني الشارع..
أسامة تقطّعتْ أنفاسه خلفي..بالكاد كان يلاحقني..هُيئ لي أنه كان يقول لي شيئاً لا أسمعه..الطرق موحشة..والنهار انطفأ في عيني..

(٢٦)

هذا ما كان من أمرها مع محمود..أمَّا ما كان من أمر محمود فقد مرَّت أيامٌ ثقيلة لم يلتقِ خلالها بهدى..على أعتاب قلبه كان ينتظرها على الضفة الأخرى لأحلامه..مخذولاً مشتّتاً،كأنه يئس تماماً من مجيئها..كأن مرورها به لا يزيد عن نسمة صيف يتنهَّد بها البحر..تذهب ولا تعود ثم لا يبقى منها أيُّ أثر..

لم يعُد يعاوده النوم..كان يصحو ويقيم في أرقه..لم يجدْ سبباً واضحاً لهذا الانقطاع..وجد نفسَه يرغب في رؤيتها..حاول الاتصالَ بها مراراً، لكنه في كل مرة كان يصدمه هاتفُها المقفل..ألهذا الحدِّ جارحٌ غيابها؟..ألهذا الحدّ تحمل إليه هذا الكومَ من الحقد والجحود؟..ألهذا الحدّ تقابلُ مشاعرَه بهذا الصدُّود؟..

لكنه حين اتصل بها مجدَّداً كاد قلبُه يطير فرحاً ويقفز من مكانه حين تناهى إليه صوت جرس الموبايل وهو يرن..انتظر صوتَها يهلُّ..لكن دون جدوى..اتصل أخرى وأخرى..لعلها لم تكن بجوار الموبايل!..لعله على وضع الصامت..لعل أحداً بجوارها يمنع وجودُه من الردّ..كل ذلك دار في ذهنه خلال ذلك..

ظلَّ لوقتٍ طويل ينتظر ردّاً منها..قلّب الجهاز بين يديه..تأكد أنه يعمل على وضعه الطبيعي..حدجه بنظرة يائسة..فتح آخر رسالة بعث بها إليها..زرع فيها عينيه..مرَّ على حروفها..طفق يقرأ في صوت مسموع كأنه يناجيها :

" قرأت آلافَ الكتب..ظننتُ أن الحبَّ خارجَ الكتب مثلما هو داخلَها..أحببتُ وانتظرتُ عندما مضى رجوعه إليَّ تماماً مثلما يحدث في الكتب..كم انتظرت..لم يعُد، ولم يعُد..لم أعُد قادراً على أسى انتظاره..لم أعُد قادراً على الرجوع بعده إلى الكتب.."

ثم قلّب بصرَه في رسالة أخرى سابقة وراح يتهجَّاها :

" غبتي ليش، ولَمْنْ خلليتيني..لنار الشوق..والا لْدمع عيني!..لستُ أدري !.."

ما زالتْ تلازمه لثغةُ صوتها..ما زال يلازمه طيفُ يدها الذي حلَّ في كفِّه..يقرأ ما تركتْه له في أوراقه التي ظلتْ مطويَّةً منذ غيابها..يُدني منه شفتيه..رائحةٌ ملأى مساءات..ابتسامات..وشوشات..تغمره عصفةٌ من وجد لا حدَّ لها..لبرهة يخشى فضَّها..يرهبُ فتحَ أحزانه..تداخله جرأةٌ مباغتة فيترنَّم بحروفها..

" أصابعُكَ التي تسلَّلتْ إلى يدي..صوتُك الدفيءُ الذي أحاطني برهبة هي مراجعي المهمة التي ألجأ إليها في رسالتي..ليس من سببٍ كي أراكَ أو أدنو منك..إنك الآن في كل شيء!"..

هذا بعضُ ما أودعتْ في بريدِه من دفءٍ ذاتَ دفء!..

كان آخر عهدٍ لها برسائله تلك التي تلقتها قبل موعدها بيومين..حين اعتذر لها عن عدم تمكُّنه من مقابلتها بسبب سفره المفاجئ إلى طرابلس لحضور مهرجان أدبيٍّ دُعي إليه على نحو مباغت..خذلها هذا المهرجان الثقيل الذي قام دون استئذان في هذا الوقت بالذات وحال بينها وبين حبيب القلب..

وكان عليها أن تنتظر قدومه..صارتْ تحنُّ إليه..تبحثُ عنه في الأماكن التي كانا فيها معاً..تشتاق إلى ذلك المقعد الأثير قبالته..حتى القهوة التي كانت تحتسيها معه لها مذاق مختلف..باتتْ تدرك أن حبَّها له لا يقلُّ أهميَّةً عن رسالة الماجستير !..

(٢٧)

واصل الدكتور ناجي لملمةَ أوراق محمود وشرع في طباعتها بشهية:

" ليتك تعرف أنّي قبلك كنت استغرق عمراً لأقول جملة من كلمتين.. كنتَ في البدء تقولَ القليلَ من الكلام..بينما أقولُ البعضَ منه..كان في مجمله عن الزهور والأحلام والقلوب..

بالرغم من جراحي السرِّية التي لا تندمل إلاّ إنني كنتُ متشبِّثةً بأوهام الرومانسية..مقبلةً على الحياة كجرادة..كنتُ أحبُّك (كبر البحر وبُعد السما)..

تأكّد لي أن الحبَّ رعشةٌ خفيفة..صرخةٌ صغيرة..حلم للحظة..هو طريقٌ واقع بين العين والشِّفة..وأن القلب يثب من مكانه دونما سببٌ ظاهر.. وعلمتُ بما يدع لا مجالاً للارتياب أن الحبَّ ليس عملاً مضنياً..لكنه حبٌّ والسلام!..

انتهى الأمسُ..لم يعِدْني الغد بشيء..لكنِّي وفي أوجِ انهياري..لم أصرِّحْ بضعفي..تخيُّلتك أمامي..بجواري..تشدُّ أزري.. بجوارك تظهر قدراتي المحدودة..تلقي قصائدَ عينيكَ عليَّ..أطمئنُ إليك..

أحب دائماً تلك المسافةَ بيننا..مسافةَ الحرقة..مسافةَ اللا لمس..مسافةَ الطهر..كنتَ تحوم حول الحِمى دون التوغُّل فيه .

أتذكَّر يوم خلَونا ببعض في حديقة نمرح في ظلال الأشجار..حدَّثتْني نفسي أن أقتربَ أكثر..ألتصق..أحسُّ بلهيب الجسد يكاد يحترق..كانت الرغبة ذئباً يعوي في الجسد..ينهشه..يكاد يفتك به..وحين خارتْ قواي كنتَ أنتَ الأقوى..رأيتُك يومَها من طرف خفيٍّ تهيم بي..تلتهمني عيناك.. ثم تتراجع..طأطأتَ رأسَك..قلت فيخفوت :

– ليس هذا من حقنا !

– أتخشى الناس ؟

– بلى! ..لكنِّي أخشى اللهَ أكثر !..

كنتَ دائماً تهزم رغباتي. تنتصر عليَّ بإيمانك..وحين أحسستَ بخيبة أنوثتيبجوارك طمأنْتَني بكلماتك المشجعة..قلتَ لي إن الرغبةَ ليستْوحدها التي تجذبني إليك، بل إنني لا أرى في الوجود سواكِ..وقلتَ أيضا : ربما ما في قلبي يعادل أضعافَ إحساسكِ هذا..

حسناً..دعك من قلبي..سأحدِّثك عن أمر جلل حدث في حيّنا.. حكاية تحدث في كل مرة وفي كل زمان..ولن يتوقف الناس عن سردها إلى أن تقوم الساعة..لكن لأنها حدثتْ في حيِّنا المكتظ بالثرثرة..الشهير بقص الأثر وتسقُّطِ الأخبار!..تطيش فيه الحكايات بعضُها في العلن وأكثرُها في السرِّ..

سكانُ حيِّنا الموتورِ يترصدون كلَّ حجر ترميه الأقدار في بحيرة الإشاعات الراكدة..الشامتونَ حاضرون بالجملة..وعند كل منعطف كانت الإشاعة.. كانت الكراهية..كانت النميمة..

لا أطيل عليك..الحكاية باختصار أن كاملة جارتي منذ الأزل عاد والدُها إلى البيت دون وجهه تلك الليلة!..حدث ذلك عندما تم استدعاؤه على عجل للمستشفى..لم يحتمل الخبرَ الذي كان كطلقةٍ أصابته في مقتل..

- هل هي ابنتك؟..

- نعم ..

- إنها حامل !..

- حامل ؟!..

- وقِّع هنا !..

قرّب إليه مسؤولُ الأمن بالمستشفى أوراقاً وظل يهذي للعجوز لكن عباراته ضلتْ طريقَها إلى أذنه..تلاشت..اختلَّ توازنه..أظلم المكان أمامه.. لم تستعمرْ سمعه سوى كلمة واحدة..حامل!..

ابنته كاملة حامل..هذا يعني أن خطيئةَ أحدهِم تتخلَّقُ في أحشائها..لم ينطق بكلمة..استند لأقرب مقعد..ثم ولّى يلتمس طريق عودته بصعوبة..

ليلَتها دخل البيتَ خلسة..في المربوعة استلقى على الفراش بدون نوم.. المسكين لم يحتمل مواجهةَ الأسئلة ذات الأسنان الحادة.. انتحر وترك لعائلته العار..

كاملة أخفتْ العلاقة..لكنها لم تستطع أن تخفي النتيجة..فتاةً كالحلم كانت..أجمل ما يلفتني إليها عيناها اللتان كانتا مسيَّجتين على الدوام بحزن نبيل..ولصوتها الهامس لمسةٌ أخرى..كنتُ أتأملّهما حين نتحدث..ولا أعرف عبر سنيٍّ رفقَتنا أن لَديها بطلاً تعلق به قلبُها..وهذا كان مبعثَ استغرابي !..حين كنتُ أمازحها وأقول لها :أبقِ شخصاً ما في قلبك..وكوني ضيفاً في قلبه..كانت تهزُّ كتفيها في صمت..وتقلب شفتيها ولا تردّ !.

أشهرُ حكاية تلك الأيام كانت حكايةَ كاملة التي أشعلتْ في جسدها النار..أرادتْ أن تموت كي ينساها الناس وتخلِّص أهلَها من العار..هكذا ظنَّتْ..لكنها لم تُمتْ..لم تتمكَّن من مغادرة دنيانا..قرابة ثلاثة أشهر قضتْها على سرير بالمستشفى دون أن يتبرع أحدٌ من عائلتها أو حيِّها لزيارتها والاطمئنان عليها..حتى أمها التي كانت تهمي دموعاً وحزناً وتذوي في صمتها..خافتْ أن يراها الناس بجوار ابنتها التي شوَّهَها العارُ والحريق الذي أتى على جانب كبير من وجهها وأكل معظمَ شعر رأسها الجميل..لم يبقَ منها سوى عينين واسعتين.أوسع من المألوف بسبب نحول جسمها وجفاف وجهها !..

" يممتُ صوب كاملة..لا أعرف في تلك الناحية غيرَ بيتها الذي لا يبعد كثيراً عن المقبرة..

وسط تلك الوجوه التي يعلوها القهرُ والحزن والعار..جئتُ أزورها بعد ولادتها جنينها ميِّتاً..تستقبلني أمها بكثير من الحزن.. تحضنني بقوة.. تشهق..تنتحب على كتفي مثل صبية..تقودني إلى غرفة كاملة..تغادر الحجرةَ وتتركنا وحدنا..

نفسي تدفعني للبكاء..تماسكتُ..تلوَّنتْ عتمة الحجرة بالصمت..
اضطرب قلبي..تحفّز بكل ما أوتي من قهر..

صوتُها يتدفق من أعماق الحجرة..استطعتُ أن ألمسَ الحزنَ جاثماً عليه..
تناديني أن أدنو، فأدنو..تَبادرَ إلى ذهني أن أواسيها بكلمتين لعلّي أخفف من وطأة القهر عليها..لكنني لم أتمكن..أعجز عن الكلام..ليس لعدم وجوده، بل لعدم ما يناسب الموقف!.

ما زالت تؤلمها وتؤلمني حكايةُ عذريتها التي قطفها ذاك المهووس ومضى هارباً تحت وطأة الشعور بالخطيئة..فظاعة ما أقدم عليه ذكّرتْه كلَّ دقيقة بضعفه فهرب للعاصمة بحجة الدراسة التي لم تكن يوماً تهمُّه..هرب من خطيئته..لم يقدر على البقاء لمواجهتها..فابتلعته المدينة الكبيرة..

لحظةٌ من الصمت قبل أن تميِّزَ بصعوبة شبحَ ابتسامتي تغزو وجهي..
اقتربتُ أتكئُ على خجلي..نظرتُ إلى عينيها الداكنتين أُربِّتُ عليهما بعينيَّ..

جثوتُ بجانب سريرها..اندفعت أصابعي لتحط على ركبتيها..ثم تتسلَّقُ ذراعيها المنسدلتين بجوارها..انطلقتْ مني الكلمات بينما يداي تضغطان بقوة على يديها..أضع ابتسامةً مواسيةً على وجهي وأنا أرصد تسلُّل نظراتها المطمئنة إليَّ..سألتْني عنك في انكسار..كانت تعرف أن ما بيننا شَيئاً كبيراً وجديراً بالسؤال عنه..طمأنتُها عنك وعنِّي وقلتُ لها معاتبة:

– كنتُ أودُّ أن تبقى الوعودُ التي وعدتني إيَّاها..

ازورَّتْ بوجهها عني..ومشروع شهقة تتمدَّدُ في حلقها..أضغط على كفها..أهمس :

– ألم تعديني بأن تنسَي ما حدث ؟..أم أن الوعودَ وُجدتْ لتُنكَث؟!

– أنا في حِلٍّ من أي وعد..سأتخلى عن عادتي بالبقاء حيةً..لن أبقى حِملاً على أحد !..

– لا تقولي هذا ..

– إنه فصلي الأخير يا عزيزتي..علينا أن نقرَّأن ذلك مرتبطٌ بالقدر!

– حسناً..ما دام الأمر هكذا اتركي كلَّ شيءٍ للقدر وسيكون بخير..قلت لها ذلك وأنا غير مقتنعة بما تفوهتُ به..

أحسستُ لحظتها أني لستُ الأمثلَ لإسداء النصح..هي أيضاً أحسَّتْ ببرودة كلماتي تصفع مشاعرها.. تطيل النظرَ في عيني..تزدريني بابتسامة فارغة..تشيح بوجهها عنِّي..

– أحمد اللهَ أنه أسقطَ من بطني هذه الخطيئة..لا أستطيع تخيُّلَ حملِ هذا الكائن البريء في حضني..قالت كاملة في صوت واهن مشروخ..

– الحمد لله..قضاء أهونُ من قضاء..أستطيع احتمال أي شيء إلا رؤيتك حزينة..

أقترب منها أكثر..أبتلعُ بؤسي..يحاول صمتي أن يتحدّث..

–كيف تشعرين؟..

– إن كنتِ تسمِّين هذا حياةً فأنا أعيش بسلام..جثةً حية!..

– أنا أيضاً أقاوم رغبةَ الحديث يا كاملة..طالتْ فترةُالصمت..صارت زمناً مملًّا..لستِ وحدَك الحزينة..أريني قلباً ليس به أحزان..

ابتسمتْ كاملة ابتسامة حمَّلتْها كلَّ شقاء الدنيا وقالت في سخرية :

" وهاتلي قلب لا داب ولا حبّ ولا انجرح ولا شاف حرمان "!..أليستْ هذه الأغنية لأم كلثوم ؟..

– نعم ..أجبتها وأنا أضحك أجاملها !..

وكان ثمة فارق بين معرفة الدرب والسير فيه..هذا ما أدركتُه متأخراً.. مثلما تأكَّد لي أن أيَّ انتقام لن يكون قاسياً علينا مثل الندم..ولا أحدَ يستطيع أن يعذِّبَنا كما نعذِّب أنفسَنا..تلك هي تركيبتنا التي خُلقنا بها يا سيدي..ولا فكاكَ منها..بل لا نريد الفكاك منها !..لكنَّ الأغربَ من كل ذلك أن بعض الرجال لا يستغرقون كثيراً من الوقت ليتحولوا إلى شياطين لئيمة !..

هل تذكُر كتاباً لغابرييل غارسيا ماركيز أهديْته لي مرة؟!..قال ماركيز:" تموت المرأةُ إذا فارقت وجهَها الابتسامة..إذا لم تعُدْ تهتم لجمالها..إذا لم تتمسَّك بأيدي أحدٍ ما بقوة..إذا لم تعُدْ تنتظر عناق أحد..وإذا اعتلتْ وجهَها ابتسامةٌ ساخرة..إذا لم يهزّها حديثُ الحب" نعم..هكذا تموت المرأة ."..

(٢٨)

دون أن يسألَ عن التفاصيل..حضر سعيد على عجل إلى شحات تلبية لدعوة الدكتور ناجي الملحة..وفور وصوله إلى المصحة وجد صديقَه ينتظره بمكتب الطبيب المعالج..وما أن التقى بهما حتى فاجأه الطبيب بوضع صديقهما محمود الحرج..

– لقد اكتشفنا ما كنا نخشاه..نتائج تحاليل المزرعة جاءت على غير ما نرجوا للأسف..قالها الطبيب وفي نبرة صوته رنة حزن عميقة..

تساءل سعيد :

– هل يعني ذلك أن محمود.....فقاطعه الطبيب :

– نعم..هذا ما أعنيه..صديقكم يختبئ في إحدى رئتيه ورم..يحزنني أن أخبرَكما بذلك..

– وهل هو ورم حميد..أم....

– إن كان حميداً أم خبيثاً..لكن يجب الاحتياط له واعتراض امتداده في الرئة كلها..

– وبماذا تشير علينا؟! قال الدكتور ناجي..

– حسب ما تظهره الصورة، الورمُ ما زال في مراحله الأولى..وثمة وقت كافٍ لنقله إلى مصحة خاصة بالأورام..وأنصح بالسفر به خارج البلاد إن سمحت ظروفه الماديَّة..

– هل تقصد أن الوقت ما زال مبكراً لإنقاذ حياته يا دكتور؟..تساءل سعيد..

– أعتقد ذلك..لكنَّ هذا الأمر يبتُّ فيه بشكل دقيق طبيب الأورام..على أن هناك حالات مشابهة تم شفاؤها في مراحلها الأولى..لكنني لا أنصح بتأجيل نقله خارج البلاد إذا سمحتْ ظروفه المادية..تعلمون أن هذا المرض يكلف علاجه الكثير..

التفت دكتور ناجي إلى صديقه سعيد وقال له :

– إن حالة صديقنا تدعو للقلق..علينا أن نسرع بنقله إلى مصر..

سعيد التفت إليه بنظرة مشجعة وشبح ابتسامة تشع من عينيه الدامعتين..

– لا عليك..سنجد حلاً بإذن الله..لا تبتئس..سأجد من يساعدني على جمع مبلغ يمكننا من السفر به إلى هناك..وساعتها لكل حادث حديث..وسيجعلُ الله بعد عسر يسرا..

– ولكن كيف ؟!..ردَّ دكتور ناجي..

– لن يبخل الخيِّرون على محمود فاضل..ولن نعدم وسيلة لإنقاذ حياة هذا الكائن الرائع الذي ملأ حياتَنا أنساً وبهجة..

– هل ستجمع المبلغَ من أصدقائه؟..أنت تعرف أوضاعهم..

– سواءً كانوا أصدقاءَه أم من أهل المدينة..لن يبخلوا عليه..ستتأكد من ذلك..محمود فاضل يقف على مسافة واحدة منهم جميعاً..عاش يقاسمهم الحبَّ والمودة..ما علينا سوى التعجيل بإجراءات نقله كما أشار الطبيب..

سأله الدكتور ناجي:

ولكن كيف؟! وهل لديه ما يكفي لتغطية سفره؟..

– لا أعرف إن كان يدَّخر شيئاً لمثل هذه المفاجأة..كل ما أعرفه عنه أنه لم يكن يهمُّه أن ينتفخَ جيبُه بالمال على قدر ما كان يهمُّه ألا يفرغَ منه تماماً..لم يكن يحرم عائلتَه شيئاً..وطالما كان يردِّد أن العائلة أهمُّ من الطموحات والآمال..لكن دعني أُقنع أسرتَه أولاً ببيع سيارته..ولن يبخلَ عليه أصدقاؤه ببعض مدخراتهم القليلة..

– ومتى سيتم ذلك؟

– حالاً..وبمجرد عودتي إلى اجدابيا..أضاف سعيد في اطمئنان ..

– ثم سنخاطب جهات الاختصاص بعدها لتغطية تكاليف علاجه..لن ندَّخر جهداً ولا نترك باباً إلا ونطرقه في سبيل ذلك..لا أريده أن يموت يا ناجي..هو ما بقي لي من أصدقاء طيبين في المدينة..رفيق درب المعاناة و..تحشرج صوت سعيد وهو يتلو آخر عبارته فشعر بحياء أمام الطبيب الذي أشاح بوجهه عنهما..

– حسناً..هل يمكننا زيارته الآن..وهل تسمح حالته بلقائه؟..سأل الدكتور ناجي الطبيب..

- لا بأس..يمكنكم رؤيته..لكن إن وجدتموه نائماً لا توقظوه..

- وهل يعلم بأمر المزرعة ونتيجة التحليل..

أجاب الطبيب :

- لا..وأرجو ألا تخبروه عن وضعه الصحي ونتيجة المزرعة..

يا لله !..كم تغيّر محمود فاضل،حتى أن من يعرفه لا يكاد يتعرف عليه اليوم..عيناه الحالمتان ترقدان في محجريهما وكأنهما لُفّتا بكفن ناعم شفاف،فيما التصقتْ أهدابُه بعضُها ببعض مثلَ خيوط نسيج متهرئ..اتّكأتْ على وجنتيه الذابلتين مثل حاشيتي ثوب ممزقتين..شفتاه مختّومتان بخاتم سرّيٍّ رهيب..لا يختلج في وجهه شيءٌ بأي حركة، ولا تُموِّه صفرتَهما إلا بقيةٌ هزيلةٌ من دم مهزوم..أنفُه يتطلع إلى سقف الغرفة يعالج الهواءَ ليأخذَ منه نفَساً بطيئاً ويردَّ إليه نفَساً أبطأ..يداه مسبلتان فوق اللحاف بلا قوة ولا حراك..لكنه لا حياةٌ ولا موت..بل كائنٌ معلق بينهما..ولا أحد يدري مقدارَ نصيبه من الاثنين!..

ارتجف سعيد..لم يتمالك نفسه وهو يقف بجوار محمود المُسجّى في صمت..لا يدري ماذا يفعل أو لا ما يقول..فلا الكلامُ ينقاد له..ولا الجرأةُ تستطيع فكَّ عقالَ لسانه..ظل يتمتم بكلام غير مفهوم..ولم تسعفهسوى سورة الفاتحة وبعضُ الأدعية التي علِقتْ بشفتيه ظل يتلوها في خفوت..ثم انهمرت الدموع تسِحُّ من عينيه دونما توقُّف..دونما خجل هذه المرة..

وكأنَّ محمود فاضل كان يسمع دبيبَ تأملاته ويتابع شهقاته المكتومة..فتح عينيه بإجهاد..تقدم صديقه ناجي صوب محمود وأخذ بيده بين يديه..قربها من فمه..طبع عليها قبلة حانية..فركها بلطف ثم ناولها لسعيد الذي هشَّ له واحتضنها بودّ..

محمود – وحين سرَى من كفٍّ صديقه دفءٌ امتدَّ ليشمل جسدَه كلَّه – نقل بصرَه الكليل بينهما..فيما سافرتْعليسطح خده دمعةٌ لتغوص في شعر لحيته..اغتصب ابتسامةً حاول أن يجعلها واسعة قدر ما أتاحه له الوجع.. انحنى سعيد يحضنه وقد بلّلتْ دموعُه كتفَ صديقه..

– أحمد الله أنْ منَّ عليَّ بنعمة يغبطني عليها كثيرون..كلما ألتفتُ أجد يداً حانية وصديقاً يربّت على قلبي..يهدئ من وجعي..أرجو أن تسامحاني على كل ما أسببه لكما من تعب..

– لا تقل هذا يا رجل..أنت أيضاً ستفعل ما نفعله إن كان أحدُنا مكانَك..

– الحمد لله..إنَّ عزاءي الوحيدَ أن الألمَ الذي يفتِكُ بالحياة هو ذاتُه شيءٌمعرّضٌ للموت والانتهاء..فالحياةُ هي الموت والموت هو الحياة..

– دعنا من ذكر الموت وفلسفته الآن..ردَّ ناجي مازحاً..ثم أضاف:

– لقد اقترح علينا بعضُ الأصدقاء سفرَك إلى مصر لاستكمال علاجك هناك..هيا استعد..سنجهز أوراقَك..نعرف أنك تحب مصر..

– وهل ضاقت بي شحات ذرعاً؟!..هل اشتكتْ مصحة المنصورة منّي؟..

تدخَّل سعيد مجيباً:

– أنت تعرف أن مصر سبقتنا في علاج أمراض الصدر وأن لها خبرةً واسعة في هذا المجال..

– ألا يكون لي أن أموتَ هنا؟!..

أجابه سعيد :

– نريدك معافى..اذهب إلى مصر..عالج نفسك، ثم عُد إلينا ومتْ هنا كما تريد !..ولكن مَن قال إنك تموت..إنك ببساطة.....

و....احتفظ سعيد بالكلمة الأخيرة على لسانه..مستبدلاً إيَّاها بضحكة هزيلة حاول أن تكون ظريفة..

– حسناً..لا بأس..

كان في نبرة صوته ما يشي بأنه لم يحسم أمرَه بقبول السفر إلى مصر..لكن لم يكن أمامه بدٌّ من التسليم..

التفت إلى الدكتور ناجي :

–لا يهم أي وجهة سأذهب..فقد عشتُ حصَّتي من الحياة..أمّا الآن فإني أعتمدُ على قلبي وما يندسُّ في غرفاته من حوادث..وإن كُتب لي عمر جديد لا أعدُ قلبي أن أختار له من يسكن إحدى غرفه بحذر..فالحذر هو ألّا يسكنها أحد!..وكم يضايقني أن أبقى على قيد الحياة هكذا دون معنى!.

أمّا أوراقي التي بحوزتك يا ناجي فهي روايتي الأخيرة..وهي أكبر من يحملها سواكما أنت وسعيد..كل ما أرجوه ألاَّ تدعا عيناً غيرَ عيونكما تقع عليهما..ولا يداً غيرَ أيديكما تلمسها أو تمتدَّ إليها..احفظاها في مكان لا ينكشف لأحد غيركما حتى يتم طباعتها، فتصير ملكاً للجميع..

" مخيفة هي الكتابة " كما تقول أحلام مستغانمي.." لأنها تأخذ لنا موعداً مع كلِّ الأشياء التي نخاف أن نواجهها أو نتعمَّقَ في فهمها "..كانت هذه

العبارة تطوف بذهني طوال كتابتي لهذه الرواية لأنها أكثرُ شيء خفتُه..وإذا انقضى الأجلُ ولم أرجع إلَّا في كفن فأرجو أن تُطبعَ هذه الرواية..وأترك لكما اختيار العنوان..هل تعدانني ؟..

هزَّ الاثنان رأسيهما بالموافقة..وقد ران عليهما حزنٌ عميق..

راح محمود يحدّث نفسَه بصوت يعلو ويهبط بقصيدة التصقتْ بحلقه:

" هذا أنا فلتقتلوني.

أمَّا الذي يدعونه ورقاً

فلقد أتتْ ريحٌ إليَّ

حَمَلتْهُ، لم تتركْ معي

إلَّا يديَّ، وفمي

وأحداقي.

حَمَلتْ مع الأوراقِ

أعماقي.

هيا اقتلوني كلكم.

لكنَّكم

لن تستطيعوا قتل أوراقي "..

(٢٩)

مشاجرتُها معه ذاك اليوم على نحو أدى إلى وقوع قطيعة بينهما امتدتْ لأكثر من شهر..ما زالت جُرحاً في ذاكرتها..

فحين جاءت لزيارته تسأله عن أوراقها التي سلَّمتْه إياها لمراجعتها لغوياً وطباعتها بعد ذلك..اعتذر لها محمود بداعي الوقت الذي لم يتوفر له لقراءة الفصل الذي كتبته..فهو قد كان تعهد لها بطباعة أوراقها التي تكتبها في البيت أولاً بأول..وليته لم يكشف لها سبب ذلك..فقد كاشفها أنه كان مشغولاً منذ أيام بقراءة مخطوط لديوان شعر ورَّطته صديقته عائشة الشاعرة بمراجعته وإبداء رأيه في بعض قصائده..عندها أحست هدى أن ثمة شيئاً ثميناً سقط منها بطريقة موجعة..

محمود حاول أن يلطِّف من حدّة عباراته عندما أحس بوقع ذلك على مشاعر هدى التي لم تتمكّن من إخفاء استيائها من ذلك..أدرك أنه أخطأ في حقها حتى وإن كان له عذره..وأنه تورَّط فعلاً في مراجعة ديوان صديقته عائشة التي ألحَّت بصورة غريبة على مراجعته بدقة..ولم يتمكّن حينها من ردِّها..لكنه لم يكن يظن أن تلك الخطوة سيكون تأثيرها بهذا السوء على هدى..

وأقسى شيء أن تكتشف المرأة أنها كانتْ لعبة..وأن مشاعرَها قد مزقتها سكاكين الخداع..وأنها عاشتْ وقتاً طويلاً في ظل كذبة عظيمة اسمها الحب..ومهما بلغ ذكاء المرأة وسعة أفقها وحرصها..إلا أنها قد تقبلُ الكذبَ في الغرام وعبارات الغزل..تصدِّقها..تترجمها داخلها إلى يقين..

- " لا..لن أرضى بالاستكانة لوضعي معه..لن أكون تلميذته الصغيرة المطيعة التي يلهو بمشاعرها..وسأتخلى عن رسالة الماجستير إن كانت ستجر على روحي ويلات لا قبل لي بها ولا قدرة لي على تحملها..هذه أنا منذ مجيئي إلى الدنيا وحتى مغادرتها..لن أساوم على مبادئي التي عاديت العالمَ كله من أجله..هذا ما لا تعرفه يا أستاذ محمود..لستُ أنا التي تتسوّل مشاعرَ العطف..سأدعك مع حبيبة فؤادك الشاعرة عائشة..أما أنا فلستُ التي تقتات على مشاعر الآخرين..ولا أرضى بالفتات !..حان الوقت كي أتنحَّى جانباً "..

ما بارح هذا المونولوج يتردد في رأسها وهي تجلس قبالته صامتاً منكساً رأسَه..لكنها بعد جهد كأنها تضمر شيئاً تخفيه عنه..استطاعت أن تغتصب ابتسامةً لم تستطع إخفاءَ ما أحاطها من تزوير..وقفتْ ثم مدَّت يدها لتتناول أوراقَها من على المكتب..نظر إليها محمود في استغراب..

- دعيها لي..سأراجعها وأطبعها..قال في تودُّد.

قالت بملامح جادة :

– خطر لي أن أضيفَ إليها معلومات حصلتُ عليها من بعض المراجع.. سأدوِّنها وأُرجِعها..أمَّا الآن فعليَّ المغادرة..عن إذنك هيا يا أسامة..سنعرّج على المكتبة قبل فوات الوقت..ثم غادرت دون أن تلتفتَ إليه مودَّعة كما كانت تفعل..

بالرغم من جفاء الحوار الذي دار بينهما..إلا أن مشاعرَها كانت صاخبة..أحسّتْ أنها ستفتقد نظرته الحانية..وأن جاذبية ابتسامته التي ظنت أنها تستطيع مواجهتها والتغلب عليها ما زالت قوية على النحو الذي كانت عليه من قبل..لكنّها استطاعت أن تُبقي مشاعرَها على الحياد..

غادرت المكان وتركتْ محمودَ يأكله قلقٌ استحوذ على كل حواسه.. لم يكن يدري أن هذه اللحظات كانت الأكثر بؤساً في حياته..غادره ذلك الكائن الجميل الذي احتل قلبَه وأمطره بكل سعادة..

وحول فنجاني القهوة جمعتها بأمينة ذلك المساء..لم تستطع هدى التوقّف عن الكلام عن عائشة..كأن ثمة حرباً ضروساً بدأت ولن تتوقف بينهما.. ما انفكت تكيل لها الاتهامات وتصفها بالانتهازية والمكر وأنها لا تتعلق بمحمود بقدر ما تريد إبعادها عنه..

كل ذلك فيما ظلّتْ أمينة تهزُّ رأسَها في صمت دون أن تعلّق بكلمة.. كأنها اتخذتْ دور القاضي بين متخاصمين، مما دعا هدى إلى ضيقها من حياد صديقتها السلبي..لكنَّ أمينة استفزّتها بسؤال مباغت :

– لعلّها تحبه؟!..

– لا يمكن..أجابتْ هدى دون تمهُّل..

– أليس لها حقٌّ في ذلك؟!

– هو لا يحبّها..

– وكيف عرفتِ؟..هل فتشتِ قلبَها ؟..ثم لماذا تحجرين على مشاعرها؟..الحب ليس حكراً على أحد يا عزيزتي..

– لم أقل ذلك..

– بلى..قد قلتِه..

– قلبي يقول لي إنه لا يحبها..

– حسناً هو لا يحبها كما يزعم قلبُك..لكن ما يدريك أنها واقعةٌ في حبه..

– ليكن..هذا لا أهميةَ له..ولماذا لا يكون مكيدةً منها لتبعده عنّي..

– وما علاقتُك أنتِ بذلك؟

– لعله الحسد..

–وهل تحبِّينه أنتِ الأخرى؟!

باغتها سؤال أمينة الماكر..تلعثمت..لم تُحر جواباً..لاذت بصمت أبله..وجدتْه أمينة فرصة لاستفزازها:

– لماذا تصمتين؟..ألستُ صديقتَكِ ورفيقةَ عمرك؟..ألا يحق لي أن أعرفَ إن كنتِ تحبينه أم لا؟..ما من داعي لتحدِّي قلوبنا..فلا أحدَ يمكنه التحكَّمَ بقلبه..أم أنك تفضلين كتمانَ أمور قلبك هذه المرة؟..حسناً..كما تشائين..

اكتفت أمينة بالتوقف عند هذا الحدّ..لكنَّ هدى تدركُ أن صديقتَها ستناضل من أجل أن تعرف جواباً عن سؤالها الفخّ..هل ستقول لها إن كلينا يحب الآخر؟!..هل ستقول لها إن مجرّد ذكر اسم محمود أمامها يشعلُ النارَ في الماء؟..هل ستخبرها أن محمود مثل المطر بالنسبة لها ؟..هل ستقول لها إني عندما أتنفَّسُ أقول اسمَه ؟..كيف قلبي قلق بدونه!..

تذكَّرتْ مثلاً هندياً يقول : " الكذبُ ليس صفةً يتحلَّى بها الجميع..كذلك الصدق ".. قررت حسمَ الأمر بكذبة مؤقتة..

قالت بمرارة :

– صدقيني..ليس هناك أدنى شعور بالحب الذي تقصدينه تجاه الأستاذ محمود..بالنسبة لي لا شيءَ يدعو امرأةً لتُعجبَ برجلٍ سوى تفوقِّه ومستواه الثقافيّ وطريقةِ نظرته للحياة..كل ما في الأمر أنَّني كنتُ معجبةً به يا صديقتي..وأحسبُك أنكِ معجبةٌ مثلي بهذا النوع من الرجال الذين لا نصادفهم دائماً في حياتنا!..

لكنَّ قلبَ أمينة يخبرها أمراً آخر..يقول لها إن ما تتفوه به هدى هو من خارج حدود قلبها..وأن القدر قد وضع أستاذها في إحدى غرف قلبها المنسية..ظلَّتْ لوقتٍ تخترقها بنظرة مستفزّة ثم سألتها بطريقة المحققين :

– ولماذا يضايقُك وجود صديقته الشاعرة في حياته؟..لماذا اعتقدتأن عائشة أصبحتْ عبئاً ثقيلاً عليك ؟..

– كل ما في الأمر أنها قررتْ أن تبدأ مبكراً الحرب معي..أردتُ فقط

معرفةَ ماذا أربح أو أخسر في معركتي معها..عندها سوف لن أندمَ إذا علمتُ النتيجة!..

- " مَنْ قالَّلهْ عزيز يْجيك..ومَنْ قالِّك تْديريله جَرَرْ " [1]

تعمّدتْ أمينة تهجّي كلمات هذه (الغنَّاوة) كأنّها تُمليها على سمع صديقتها هدى..

لقد أرادتْ أن ترى إن كانتْ صديقتها تحترق..وكان لها ما أرادت!.

(١) (أغنية علم) شعبية .

(٣٠)

و....تمر الأيام ثقالاً على محمود فاضل..مساحات القلق تكبر..لم تعُد هدى تأتي..لم تعُد تتواصل معه فتؤنسَ ليلَه..لم تعُد تردُّ على اتصالاته.. وهاهي تقفل هاتفها نهائياً..وكيف سيمرُّ الوقتُ من دونها.. ظل يتصل بها كلما وجد نفسه منفرداً دون الآخرين..لم يكن يدري أن هدى أبدلتْ شفرتَها بشفرة غيرها..وأن لا أملَ في الاتصال بها مجدَّداً..وأن لن يتغلغلَ في سمعه صوتُها الطفل الذي أدمن عليه..

خطرتْ له فكرة..لقد تركتْ له أمينة رقمَ جوالها حين طلبتْ منه أن يدلُّها هي الأخرى على بعض المراجع للبدء في رسالة الماجستير التي تُعدُّ مقترحاً بشأنها..حسناً سيتصل بها مستفهماً عن صديقتها هدى التي انقطعت أخبارها عنه..لكنَّ أمينة وعدته بالمجيء لزيارته ومقابلته..فالأمر لا يحتمل إثارتَه على الهاتف..

جوابُ أمينة انتزعَ قلبَه ووضعه في مكان آخر..خذله بوجع حين أوضحت له أن هدى أبدلتْ شفرتها..وقد أقسمتْ له أنها لا تعرف رقمَها الجديد..

– وماذا عن رسالة الماجستير؟..كيف يمكن لي مساعدتها دون أراها؟

– قالت إنها ستواصل السيرَ فيها بمفردها..أجابت أمينة..

– والفصول التي طبعتها؟!

– على علمي أنها قد أوكلتْ طباعتها لأحد المكاتب الخاصة..

– لكنّي أحتفظ بها على (الفلاش)..قال في حيرة..

– يمكنك نسخها لي على (فلاشي) وسأوصلها إليها..

جزءٌ من قلبه أصبح فارغاً..نزل عليه الخبر كالصاعقة..احتواه وجومٌ فظيع..لم تسعفه الكلمات..حاول عبثاً لَمَّ شتاتها..غاص في كرسيِّه يحدِّق في وجه أمينة الجامد..

– حسناً..كما تشاء..

رشقته أمينة بنظرة فضول..استطاعتْ أن تجسَّ الحزنَ الجاثم على ملامحه كلها..وتأكد لها أن هدى كانت تكذب عليها حين صرّحت لها أن لا شيء بينها وبينه..هاهي تراها في رجفة عينيه ونبرات صوته وتلميحاته التي يحاول إخفاءها بسذاجة !..

– هل ستنسخ لي ما عندك من الرسالة على فلاشي؟. انتشلته من دوّامة بؤسه..

– أكيد..سأفعل حالاً..قال ذلك بصوت حاول أن يجعله هادئاً..

ناولته أمينة الفلاش..غاصت أصابعُه في الجهاز ينسخ لها كل ما تمَّ طباعته من الرسالة..

– أرجو لها التوفيق..بلغيها تحياتي..

– هل يعني ذلك أنك لن تستطيع مساعدتي إن طلبتُ منك ذلك..سألته وفي نبرة صوتها بعضُ غنج..

– سنرى..قالها بإيجاز..

– لن أطلبَ منك سوى بعض المراجع والكتب إن وُجدتْ..

– سأرى كيف أفعل ذلك..أرجو أن أجد الوقتَ الكافي..

لكن أمينة لم تكتفِ بذلك..بل وجدتها فرصةً لإخباره بما هو أقسى من ذلك..فجعته بخبر بائس..أخبرته أن أحدهم عاود التقدم لخطبة هدى !..

– هذا يعني أن هناك محاولة أخرى !..صحيح ؟

– تستطيع قول ذلك ..

– لم أكن أعلم بذلك..

– وهل عليها أن تخبرك ؟!

– لا طبعاً..أقصد هل وافقتْ؟..وهل ستتخلّى عن رسالة الماجستير؟..أم أنها تؤجل الزواج إلى ما بعد مناقشة الرسالة؟!..

– لستُ أدري..لكن ما أعلمه عن هدى أنها متقلبة المزاج..لا يقرُّ لها قرار..لا ترسو على شاطئ معين..هكذا هي منذ عرفتها..نحن صديقتان منذ الصغر..

– هكذا إذن!!..لم تكن صديقتك تخبرني بهذه التفاصيل..

أجابتْ أمينة بلهجة لزجة:

– هي مجرّد طالبة..تأتي إليك كي تساعدَها بما تستطيعه..وهذه تفاصيلُ خاصة لا تخوض فيها لأي أحد..

– نعم..لا ينبغي الخوض في التفاصيل..ردَّ بحزن ..

– بلغيها تحياتي..وأرجو لها التوفيق..

أمينة كانت تدري أن ذلك الخبرَ قد حوَّل مسارَ قلبه إلى وجهة أكثر حزناً وبؤساً..لكنّها – ولغاية أخرى – غيَّرتْ مجرى الحديث :

– ما أخبار الأستاذة عائشة..لم أكن أعلم أنها شاعرة بهذه الروعة..ذكرتْ الصحف أنها كانت في مهرجان الشعر في العاصمة.. فوجدها محمود سانحة كي يغير وجهة الحديث ويخرج من وضع البؤس الذي يغلف المكان..فقال بهدوء مبالغ فيه..

– هي شاعرة رائعة..وقد كنت حاضراً بالمهرجان..

– هل التقيتما هناك؟!

– لقد سافرنا معاً لحضوره..وكانت عائشة نجمةَ المهرجان بلا منازع..

وظل محمود يهذي بكلام عن عائشة لم يكن ليقوله في حضرة هدى..ولم يتوقف عن الكلام عن المهرجان وما دار فيه حتى غادرته أمينة ..

لم يستقر خبر مرافقة محمود لعائشة بالمهرجان الشعري في صدر أمينة سوى مسافة الطريق إلى بيت صديقتها هدى..وما أن التقتها حتى نقلتْ لها تفاصيلَ تلك الرفقة التي جمعت أستاذَها محمود فاضل بالشاعرة الشهيرة ممشوقة القوام جميلة الشعر داكنة العينين عائشة..وتحوَّلتْ المسألة لدى هدى إلى مسألة كرامة ينبغي استردادها والدفاع عنها..

محمود وحالما غادرته أمينة تناول ورقة وقلماً وراح يسطر رسالة.....

(٣١)

حالما حطّتْ الطائرة بمطار برج العرب بالإسكندرية..وجد سعيد وناجي اللذان كانا يرافقان محمود فاضل إلى أرض مصر شخصاً كان في انتظارهم يحمل بين يديه ورقةً كُتب عليها بخط عريض اسم محمود فاضل.. اقتربا منه..صافحهما بحرارة وعرّفهما أنه من طرف الحاج (عبدالله) الذي تبرّع لهم بتذاكر السفر إلى مصر..وحجز لهم على أقرب رحلة متجهةً إلى الإسكندرية..وسلّم لسعيد مظروفاً به مبلغٌ من المال ورسالة توصية لإدارة المستشفى وأرقام موبايل خاصة يمكنهما الاتصال بها لأي طارئ..

تناول الشخص الحقائب ووضعها في سيارته الخاصة..وحالما انتهت إجراءات الدخول غادر الجميع المطار متجهين صوبَ مستشفى (السرايا) المعروف بحي (اسموحة) الشهير بمدينة الإسكندرية..كان ذلك بتوصية من أحد أصدقائهم .

تنفّس سعيد وصديقه الدكتور ناجي الصعداء..وهما يعيشان هذه اللحظات المليئة بالاطمئنان..

- " الطريق أطعمتْ " !..

عبارة جذلى وضعها ناجي في متناول تعليق صديقه سعيد الذي غادره التجهُّم منذ وصوله للمطار واستقبال ذلك المندوب الذي أوصلهما إلى مستشفى السرايا..فردَّ منشرحاً :

- الحمد لله..إن مع العسر يسراً..لم يتركنا الله..لقد دبّر لنا كل هذه التسهيلات..وكلُّ ما أرجوه أن تُتوّجَ هذه الجهود بعودته معافىً إلى أسرته وأصدقائه ووطنه الذي يعشقه..

وحالما أنهيا إجراءات الإقامة بالمستشفى وإيداع مبلغ على الحساب في خزينة المستشفى..غادر سعيد المكان..تاركاً محمود في عهدة صديقه ناجي..ليتفقد الشقةَ التي استأجرها لهم الحاج عبدالله بحي (الأزاريطة) المجاور للبحر..وكان أول ما فعله سعيد عند خروجه من الغرفة التي يرقد بها محمود..هو الاتصال بصديقه القديم (عزّت زغلول) وهو من سكان الإسكندرية وله علاقة بتجارة الكتب وتسويقها..وقد نشأت بينهما صداقة وطيدة منذ كان يزور ليبيا وينشر كتبَه في معارض الكتاب والمناسبات المشابهة التي كان تقام في ليبيا..

قبل مجيئه إلى الإسكندرية كان سعيد قد اتصل به طالباً مساعدته..وقد صادف أن كان بيت ذلك الصديق بذلك الحي الذي تقع فيه الشقة التي استؤجرتْ لهما هو وصديقه ناجي..

أول ما فعله (عزّت زغلول) هو دعوتُهما للعشاء في شقته بعد أن ذهب ليطمئن على صديقهما محمود الذي هدّه السفرُ وطولُ المكوث بصالة الانتظار بالمطار..وقد اندهش زغلول لمرأى محمود بهذه الحالة..فقد تذكّر أنه تعرَّف عليه حين استضافه ذات مرة ببيته عندما حضر إلى المدينة صحبة آخرين للمشاركة في معرض أقامته رابطة الأدباء فيها..وقد أصرَّ محمود فاضل على دعوته لتناول الغداء ضمن رفقة تهتم بالكتاب..وحين رآه عزَّت لم يتمالك من مغالبة دمعة غزتْ عينيه فجأة وهو يشاهد هذا الرجل ممدَّد على فراش الموت.. يتلاشى..يذوي..كأن الموتَ يحترمه فلم يشأْ أن يأخذَه جملة !..

سعيد كان قد اتفق مع أسرة محمود أنه وصديقه ناجي سيرافقانه إلى مصر وحتى إشعار آخر..وإن لزم الأمر سيوكلان لأحد أفراد العائلة مرافقة محمود بالمستشفى لحين شفائه وخروجه منها..

الصديقان جلبا معهما مخطوطَ الرواية التي أكمل محمود فاضل كتابتها بمصحة المنصورة بشحات..وقد اتفق الاثنان على طباعتها بمصر اثناء وجودهما رفقة محمود..وكان رهانهما الوحيد على الصديق عزَّت الذي ساقه القدر في طريقهما حيث وجداه بمصر، لأنه كثيرُ السفر خارج مصر سعياً وراء إقامة معارض كتاب في دول الجوار.

في المساء، وحين اجتمع ثلاثتهم على وجبة العشاء التي دعا إليها عزّت في بيته..راجع الثلاثة الرواية..وسلّما له المخطوطَ على وعد أن يقوم عزّت بتكليف أحد مصمِّمي الأغلفة المشهورين بالإسكندرية لوضع مقترح لغلاف الرواية..ثم استعرض معهما مجموعة من دور النشر المعروفة

لكن ناجي طرح أمراً آخر على عزّت :

– إننا لا نملك المالَ الكافي لسداد قيمة طبع الكتاب..

– ومن طالب بقيمة الطبع الآن ؟..أجاب عزّت في ودّ..ثم أردف :

– سنختار أولاً الدارَ المناسبة لطباعة الرواية وتكلفتها ونتفق على عدد نسخ الرواية وكيفية شحنها..أمّا الدفع فلا تهتمّا به الآن..دعونا نستمتع بوقتنا ودعوا أمرَ الرواية وطباعتها لي..سأتولّى أمرَها من الغد..وأول ما علينا فعله منذ الغد هو اختيار الغلاف المناسب..

لكن عزَّت لم ينتظر إلى الغد، بل تناول نوتة من درج قريب وجعل يقلب أوراقها ويتَّصل بمن يعرفهم من مصمّمي الأغلفة في الإسكندرية.. واستطاع أن يحصل على موعد مع أحدهم في الغد..

انفرجتْ أساريرُ الصديقين عند سماع عزّت وهو يعدهما بكل هذه الخطوات التي سيتخذها حيال ذلك..وسَرَى شيءٌ من الطمأنينة بين الجميع..اشتعلت السجائر..حضر الشاي..امتدّتْ الأيادي ترتشفه في ارتياح ودعة .

(٣٢)

و...طفق الدكتور ناجي يتهجَّى ما خطت يدُ محمود:

" أفتقدك..نردَّدُها كثيراً في بلاهة ولا نختلف في استعمالها بالرغم من شعور كلٍّ منّا إزاءها..على أنَّنا أفقدَنا هذه الجملةَ لذّتها..ولكنّني أقولها لك لأنني لم أجدْ من يعوِّض غيابَك!..وأنني لستُ بخير بعدك..ليس لأنَّك نادرُ الوجود وتبقى مختلفاً بمجرد كونك أنت..بل لأن كلَّ شيءٍ فيَّ يرفض أن يكونَ بخير في غيابك..لساني يرفض قولَ ذلك - وهرباً من السؤال- أقول إنّني بخير..فلماذا أكون بخير ؟!.

لماذا اخترتَ الغيابَ حين كنتُ في حاجتك؟..لماذا تركتَ علامات الاستفهام تلحق تساؤلاتي ؟..غيابُك جعلني أكبرَ من عمري..بل إن كلَّ شيء في داخلي صار هرماً..بلا سبب لا أعرف كيف تبعثرتْ أحلامي..لأنني أنا من جعلتُك محورَ حياتي..جعلتك كلَّ شيءٍ في حياتي..

لكنَّك علَّمتني ألّا أتعلّق بأحدٍ مهما كان قريباً أو بعيداً منّي..ألَّا أجعلَه يتملَّكَني..لأنه سيأتي يوم ويرحل..ماذا أفعل حينها؟..هل أبكي؟..هل ألومُ نفسي؟..لا أجوبةَ لديَّ..الأجوبة كانت لديك أنت..أنت فقط كنت تستطيع الإجابة عنها !.

مؤخراً اكتشفتُ أنَّك بدأتَ تتغيَّر..لم تعد مثل قبل..اكتشفتُ أنَّك تحاول الابتعاد عنِّي..(عنَّا جميعاً)..تقول الشائعات التي تسرّبتْ لنا من المقرَّبين منك، ولم أكن أصدِّقها أنك تعالجُ قلبَك المتعبَ هناك في المشافي البعيدة..بعيداً عن خوفنا ولهفتنا..عن متناول خطواتنا..كنتَ تقبعُ الشهر والشهرين..تعود لتعاود الغياب من جديد..وحين كنّا نطوِّقك بأسئلتنا البلهاء كان جوابُك واحداً لا يتغير..المشاغل..ملاحقة الندوات ومعارض الكتب..والسياحة الثقافية..بل تجرأتَ مرة بالبوح في عيني أنك تحب امرأةً هناك تشدُّ الرحال إليها !..

كنتَ تعتقدُ – واهماً – أنَّك بهذا السيناريو تستطيعَ إخمادَ جذوة اشتياقنا إليك وغض الطرف عن حاجتنا لك..اعتقدتَ يا غائبي أنك حين تغيب عن عيوننا تنجح في فك ارتباط مشاعرنا بك..

وهل صحيح أن البعيدَ عن العين بعيدٌ عن الخاطر كما يُذاع ؟!..مَنْيؤكِّد صحةَ هذه المقولة..ومَن قال أنها أتتْ من السماء ؟..وكيف لهذه الكلمة أن تشتَّتَ حياةً كاملةً بكل تفاصيلها وتقلبَ موازينَ كثيرة عند سماعها؟..بل كيف لها أن تحرك الكمَّ الهاطلَ من المشاعر والأحاسيس واللوعة في داخلنا؟.. وحتى إن صحَّت هذه المقولة..فهي من المحال أن تَصدُق في حالك أنتَ.. هذا ما يجب أن أصدِّقه بيني وبين نفسي..ومَن غيرَ ذلك البعيد الذي أذاب القلبَ شوقاً ؟!..

دعني أصارحْك أنّني حاولت العيشَ بدونك..وتقبُّلَ فكرة غيابك..
وأن أمضِ قُدماً وأتقبل الواقعَ وأتأقلم معه..وأدَعْ الغيابَ يفعل بي ما يشاء..
كنتُ أظنّه علاجاً ناجعاً..لكنني كنت كل يوم أجد حالي أسوأ من اليوم
الذي قبله..فكلما ظننتُ أنّي شُفيتُ من فكرة غيابك..يأتي طيفُك ليفسد عليَّ
(كورس) علاجي!..

لستُ أدري مَن أشار عليَّ أن أُحبطَ مؤامرةَ الذكريات التي تدور في
رؤوسنا ولم نستطع نزعها منها..مَن رمى برأسي هذه الفكرة الغريبة!..كنتُ
كلُّ ما أتذكَّرُ شيئاً اكتشفُ أنه كان معك أنت..وماذا ستكون ذكرياتي بعدك
وأنت لستَ فيها؟..وماذا تكون بدونك..بل ماذا سأتذكَّرُ في قابل أيامي
؟..هل سيكون لي شيئاً منها !؟..

في كل مرة كان ذاك الكائن المرح يباغتني بابتسامته فائقةِ اللطف..
يحتويني بها..ذاك العطوف الذي يوقفني على عتبة قلبه..الودودُ ذو
الشخصية المتفتحة..المتفهمة..يوجهني..يعلمني..يفكُّ ضيقَ روحي..يزيح
عنها ستائرَ الحزن القاتم..

لا أدري ماذا أفعل..كلُّ ما أعلم أني أريد أن أكتب..أن يفترشَ قلمي
الأوراقَوأنهمرَ في الكتابة وأتورَّطَ فيها كما كنتَ تنصحني..أريد أن أنسجمَ
في عالمها وأدخلَه وأختبئفيه..ولا أحدَ يخرجني منه..أريد عالماً فارغاً لا
يوجد فيه أحدٌ سواي..هادئاً..منظَّماً..مرتَّباً خالياً من ضجيج الآخرين..
أريد روحي التي تهتُ عنها وتاهت عنّي يومَ رحيلك..

أتذكَّرُ حديثي معك..أتدري أيَّ يوم كان؟!..

يومَها اختلجتْ أعماقي..ارتجفت دقّاتُ قلبي وأنا أقرأ اسمَك تعلّق على حروفٍ بعثرتُها على صفحات جريدتك بغير اكتراث..لم أعرفْ أنها بهذا الحظ من التميُّز..أعيدُ قراءةَ الجملة مراتٍ ومرات فيغتالني الحنينُ إليك حدَّ الثمالة.. يعيدني لذكرى أولِ حروفٍ تهديها إلى قلبي..

نقشتُها على جدار قلبي..تشبَّعتْ بها روحي دهراً..حروفُك أضاءت قدرَ ما أحرقتْ..أحيتْ قدرَ ما أماتتْ..أهدتْني الطريق يوماً وأضاعتْني عمراً بين غياهب قلبك..

كان ذلك يوم أعطيتك أوراقي لتطَّلعَ عليها وتقول فيها رأيَك..كيف أرجعتها إليَّ وقلتَ لتمازحَني إنها غيرُ جديرة بالقراءة..وأن ما أكتبُ هو عبث لا طائل منه..طأطأتُ رأسي حرجاً في حنق..لكنَّك وقبل أن أعاتبَك على هجومك المباغت أطفأتَ جذوة الغضب داخلي بابتسامتك الشافية الحانية حين صافحتْ عيناك عينيَّ بودٍّ غريب..قذفتْ في سمعي كلاماً هو السحرُ بعينه..

- لا تبتئسي!..أنتِ كاتبة جاهزة..وأطمئنُّ كثيراً لما تكتبين..ولولا أني أعرف إبداعَكِ وأتابعه حرفاً بحرف لقلتُ إنه نسخٌ ولصق..وأنكِ تسطين على إنتاج غيركِ..أو تعيدين إنتاجه على أقلِّ تقدير..أشكر تلك الظروفَ المدهشةَ التي عرّفتْني على إبداعكِ..

ولمزيد من تشجيعك قلتَ إنك تتمنّى أن تقرأ إنتاجي الأدبي مطبوعاً في كتابٍ يتداوله الجميع..قلتُ لك: يكفي أن تقرأني أنتَ..لا أزال أحفظ عن ظهر قلب عبارتك التي رميتها في رأسي ذات بهجة : " نحن نقرأ لنبتعد عن نقطة الجهل..لا لنصل إلى نقطة العلم " ..

أفتقدك يا سيِّدَ الكلمات !

وها هي بقية أوراقي التي كتبتُها بعيداً عن عينيك..دسستُها خلسةً عن الجميع..لم أُرد أن يطَّلعْ عليها سواك..في انتظار أن تمسحَها عيناك أنتَ أولاً..سأقرؤها عليك حين أستأنس أنها تقترب من حجمك..حين أحسُّك بالجوار..

وقعت عيني على عباراتي الأخيرة..أدنيتُ وجهي منها..قرأتُ للمرة الأولى منذ كتبتها :

(...كان هنالك حائط..كانت هنالك امرأة، وكان هنالك شاب ميِّت..محفوفاً بجنازة بهيَّة مهيبة..لكنه لم يجد بين جموع المشيِّعين أحداً يرثيه يومَ مماته غير شظايا شهقات خجولة..مات..قصة تنتهي...).

أخذتْني رجفة قوية..رميتُ الأوراقَ داخل صندوقي..ارتميت لاهثةً على الفراش منقطعة الأنفاس..

ولم تأتِ..

أحسستُ أن ثمة شيئاً ثميناً فُقد منّي..أتدري ما هو؟..إنه نَفَسي الذي أستنشقه..وأنا في غيابك أختنق..تذبل صرختي..تضيع في وادٍ لا قرار له.. أريد غائبي لأقول له إني أنا أيضاً أحتضر وإنَّ كلَّ شيء فيَّ ميِّت، إلا جسدي!..

ليس الأمر أني أحاول التعرف عليك..إنما وكأنني أتذكّرُك من مكان ما.. وكأنني عرفتك في مكان آخر وزمن آخر لأعودَ وألتقيك الآن..وكأننا خلقنا منذ الأزل لنكمل بعضنَا البعض..كجذور الأشجار وأغصانها..كشمس الصباح وغروبها..كالبحر وموجه..كالمطر وحباته المؤنسة..أحاول أن ألمسَك بيدك لعلَّني آخذني إلى نفسي من جديد وألتقي روحي التي لم تمسك جسدي يوماً..وها نحن اليوم كجسد عادت إليه روحه..

أكبر أعدائي شعوري بالعجز..تتضاءل الدنيا بعيني ويضيق فكري وتتجمد الكلمات وتختنق عندما أقف عاجزة..كأنني في صحراء منقطعة وحدي..فهل شعرَ أحدٌ بقهر العجز مثلي؟..''

(٣٣)

أشارت هدى إلى سائق التاكسي بالتوقف عند الرصيف الذي يطوِّق ذلك المبنى المهيب..أحسّتْ بقلبها يخفق بقوة كلما ازدادتْ خطواتها اقتراباً منه..فهذا المكان ظلَّ محفوراً في قلبها وذاكرتها لم تمحُه السنون..لم تتغلّبْ عليه قسوة الفراق..وحالما ترجلت منها صارت تتأمّل المكان حولها بنظرة يمتزج فيها الحزن والاشتياق..بينما حدّقتْ فيها أمينة وفي عينيها ما ينمُّ عن عدم رضا..

– لكننا لم نصل بعدُ إلى المكان المُراد..قالت أمينة في استغراب.

– أعرف ذلك..أجابت هدى في هدوء..فسألتها صديقتها بضيق:

– إذن ما الداعي للتوقف هنا ؟..

– ألا تشتاقين لهذا المكان؟..قالت هدى وهي تنظر إلى المبنى بتحنان .

ردّتْ أمينة بامتعاض :

– لا أظنُّ أنّني يمكن أن أفتقده في يوم من الأيام..

– لماذا تبدين هذه الكراهية له ؟.. سألتْها هدى..

– من الغريب أن تسأليني أنتِ بالذات عن ذلك..

– وما الغريب في ذلك؟

– لأنه كان يتعيَّن عليكِ أن تكوني أول من يعرف الإجابة..

ردّت هدى في هدوء:

– ما أعرفه هو أن هذا المكانَ هو الذي شهد بداية تعلقي بالكتاب ثم نشأت بيني وبينه علاقة حميمة ما زالت تنمو حتى اليوم..كان جسراً قوياً أوصلني إلى الجامعة..كنتُ طالبة في الماجستير..ألجأ إليه..أبحث فيه عن أهم مراجعي..أسجل ما أستطيع تسجيله، وأصوِّر ما أقدر على تصويره..صرتُ بعدها أستاذة في الجامعة..عشتُ في جنباته أجمل لحظاتي يا أمينة..

لكن أمينة قالت بلهجة ساخرة :

– وهو المكان الذي كنتِ تزوريه رفقة الإنسان الذي خان مشاعرَكِ وتخلّى عنك..

– أحياناً أحسّكِ وكأنكِ تتحاملين عليه !.

قالت أمينة سريعاً وهي تحاول التظاهر بالدهشة :

– أنا !..ولماذا أتحامل عليه؟..بل ربما أتحامل عليه من أجل ما فعله معك وتخلِّيه عنك في أهم الظروف..ولابدّ أن أغضب لك يا عزيزتي..

– أمينة..لقد قلت لك من قبل إنني لا أرغب في سماع هذا الحديث..

ردَّتْ هدى بانفعال :

– إذا كان حديثي عن هذا الأمر يؤلمكِ إلى هذا الحد..لماذا جئتِ إلى هنا إذن ؟..لماذا تسعين وراء ذكرياتكِ المريرة هنا؟..

– أنا لا أسعى وراء شيء سوى حبي لهذا المكان وروعته وقدسيته في نفسي..أعتقد أن من حقّي أن أستردَّ بعضَ ذكرياتي عنه..وهو الذي كان أحدَ الجسور التي عبرتُها نحو الجامعة..إنه عبق المكان يا أمينة.

– أتخدعينني أم تخدعين نفسَكِ؟..ألم تكوني ترفضين مصاحبتي إليه حين كنّا نأتي إلى بنغازي وأبحث عن كتاب فيه أجدُ فيه شيئاً لرسالتي أنا الأخرى..ما سرُّ هذا الحبُّ المفاجئ لهذا المكان وروعته وقدسيته؟!..ما الذي طرأ الآن ؟!

– أعرف ما ترمين إليه..لا تكوني سخيفة..أتظنِّين أني سأقع في حبه لو كنتُ أعلم أن ذلك يحدث؟..على أية حال..أظنُّ أننا لن نلتقي مرةً أخرى ..

– أتمنَّى ذلك..ردَّت أمينة في استسلام..

أحنتْ هدى رأسَها في صمت..التفتتْ إلى صديقتها بعينين يملؤهما التحسُّر..اقتربت أمينة منها..أخذتْ يدَها بين يديها..ثم مسحت وجهَها بلطف..وقالت في دعة:

– أعرفُ أنه ليس بوسعي أن أحدِّثكِ على هذا النحو..ولكن لأني صديقتك القديمة التي شاركتْك طفولتكِ وصباك وظلّت على إخلاصها لكِ..اسمعي كلامي..دعكِ من الماضي..أسقطيه من ذكرياتك تماماً..أنتِ الآن أستاذة جامعية وفوق هذا فأنتِ زوجة..

– نعم تزوّجت..لكني لم أستطع أن أكون زوجة..أتدرين يا أمينة ؟..إن أتعسَ النساء امرأةٌ يمتلكها رجلان..زوجٌ يمتلك جسدَها وحبيبٌ يمتلك قلبَها..لا هي قادرةٌ أن تسعُدَ بأحضان زوجها، ولا هي تطالُ أحضان حبيبها..جسداً بلا قلب في مكان..وقلباً بلا جسد في مكان..مسكينةُ تلك المرأة التي لم تتزوّجْ مَن تحبّ ولا أحبّتْ مَن تزوجتْ !..

– الله الله !..صرتِ فيلسوفة يا هدى..هذه آثار محمود ظهرتْ على تفكيرك..

– حقاً ؟!..

– نعم..لكن أرجو أن تعودي إلى حياتك التي اخترتها وتأقلمتِ معها..إنني أحاول أن أسدي إليك النصيحة..ألم تقولي إن محمود فاضل ما هو إلا خيبة من خيباتي؟..

– أتظنّين أنني يمكنني أن أنجح في ذلك؟..أنا أشكُّ..

ابتسمتْ في مرارة..

لماذا عادتْ إلى هنا مرةً أخرى ؟..

أمِن أجل زيارة دار الكتب حقّاً..أم من أجل أن تثبتَ لنفسها أنها تستطيع أن تتغلّب على ذكريات حبٍّ قديم عاشته في ماضي أيامها؟..وأنها يمكنها أن تتعايش مع حاضر جديد بلا حساسية، أم أنها تحاول أن تخدعَ نفسها..وكل ما تهدف إليه من هذه الزيارة هو أن تكون قريبةً من محمود..الحبيب الذي تخلّى عن حبها ذات يوم..وضحى بكل المشاعر العميقة التي جمعت بينهما أو التي كانت تظن أنه يبادلها إيَّاها..وأنه مخلص لها حقاً..

بالرغم من كل المقاومة والجهد اللذين كانت تبذلهما إلا أنها أدركتْ أنها لم تستطع أن تنتزعه تماماً من قلبها وعقلها..فقد جعلها ذلك تشعر بأنها ليستْ وفيةً تماماً للشخص الذي تزوجته..

صحيح أنها لم تلتقِ بمحمود أو تراه منذ أن افترقا ذلك اليوم..ولم تحاول مطلقاً..لكنها لم تستطع أن تمحُوَه من ذكرياتها التي كانت تعاودها من حين لآخر..لم تتمكن من صدِّ حنينها إليه بالرغم من كل مشاعر الغضب والألم التي عاشتها بعد تخلّيه عنها!.

كانت تتصور أنها قادرةٌ على إبعاده عن حياتها ومشاعرها تماماً بعد فترة من الوقت..وأن الأيام كفيلة بذلك..وأنها بعد زواجها تستطيع أن تودِّع هذه الفترة الأليمة وتلقي بهذه الصلة التي تربطها بمحمود وراء ظهرها..

لكنها لم تنجح في ذلك على النحو الذي تصورته..لم تنجح في أن تحبَّ زوجَها على النحو الذي يعوِّضها وينسيها حبها لمحمود..بالرغم من المحاولات الصعبة التي بذلتها لتهيئة الظروف الملائمة لتكون حياتها معه هانئةً مطمئنة إلى حدٍّ معقول..لكنها أبداً لم تكن زوجةً محبة..

كان هذا الإخلاصُ والوفاء على الدوام مبعثَ قلق وألم أيضاً كلما استرجعتْ ذكرياتها القديمة مع محمود..وكلما أدركتْ أنه كان هو الحبَّ الحقيقيَّ في حياتها..لقد كانت تجربةُ زواج هدى مليئةً بالثقوب..وهذا الفشل كان مصدرَ راحة عظيمة تغمر أمينة كلما شاهدتْ هدى تذوي حتى دون أن تشتكي لها..

والآن جاءتْ إلى هنا؟..أتريد أن تزيد النار اشتعالاً في جوانحها ؟..أم تريد أن تثبتَ أنها قد تمكنتْ من إطفائها..وأن جذوة اللهب التي أحرقتْ صدرَها قد أصبحت خامدة؟..

تنبّهتْ هدى على صوت صديقتها أمينة وهي تدعوها إلى مغادرة المكان وعدم إضاعة الوقت في الوقوف أمامه !..

(٣٤)

هم ذاتُهم..نفسُ الأقارب والجيران..كلا لا شيء تغيّر في حيّنا.. ذات الجموع تصرخ..تهمس..تتحفَّز..تتراصّ في توتّر في انتظار تلك اللحظة التي ينبثق فيها الدم القاني!..لا فرقَ سوى الزمن الذي يتحرك في مكانه ولا يغادره..لم يسافر بعيداً عنّا..

ذات الطقوس..القدورُ المنصوبة وألسنةُ اللهب تلعق الدهانَ المتقاطرَ منها..الدخانُ المتصاعد..الغرفُ المختنقةُ بالنسوة والأطفال المنهكين..عبق البخور والعطور الرخيصة..الفاصوخ..الحلتيت..رائحة العرق الحامض وروائح أخرى خانقة..ضجيج الصبية المزعج الممزوج بالزغاريد اللاهثة لعجائز الحي..جوقة مغنيات العائلة تتفنّنُ في الردِّ على جوقة أهل العريس..بـــ(القذاذير)[1] المفخّخة .. أصوات مشروخة ممجوجة مكررة منذ آلاف السنين..

(١) القذاذير (جمع قذّارة) وهي نوع من الغناء الشعبي في مناسبات خاصة .

أعمامي يقفون نفس الوقفة أمام المنزل وبعض أبنائهم يتنافخون شرفاً غير بعيد منهم..يتأهبون لتنفيذ أوامر الموت في أي لحظة..يموتون أو يُميتون..
البعض الآخر من أقاربي يتعاقبون على مراقبة القدور وسؤال كبار نساء العائلة عما ينقص ليسترقوا النظرات للنسوة المنهمكات في إعداد الوليمة..

كانت الجموع تقف في انتظار ما يحدث..تتلهّف لشيء مبهم..لكن في عيونهم ثمة ترقُّب للدمّ..

وأنا صبية مراهقة كانت أقصى أمنياتي أن أتزوج كي أرتدي الحُليَّ وأضعَ كثيراً من الأصباغ على وجهي..لكن اكتشفت أنها أحلام مراهقة وأن مجرّد التخطيط للزفاف أمرٌ مقرف..

استدارتْ الجموع حولي..تزاحمت..كانوا يدفعونني تجاه الزغاريد المتقطّعة والروائح النفّاذة..أرسلوني للمزيِّن..جئتُ منه جثةً مزَّينة..خلعَتْ النسوةُ ثيابي، ألبسْنني بعدها ثوباً أبيضَ..ضحكن..زغردن..

حين كان الحزنُ يجثم عليَّ استطعت أن أميِّز من بين الجموع الصاخبة عيني أمّي اللتين شاختا فجأة..كلما امتلأتا بما يكفي من الدموع انكفأت إلى الأسفل تمسحهما بكمها بعيداً عن العيون..عرفَتْ أنني أراقبها مثلما كانت تراقبني..تَبادَلنا لغةً هي الأوضح منذ معرفتنا ببعض..كنتُ أستنجد بأمومتها..بحنانها..كِدتُ أقول لها : أرجوكِ أوقفي هذه المهزلة..وكأنها تقول لي من بين الجموع : آالآن يا هدى ؟!..لا يمكن إيقافها..ترشقني

بنظرة عاتبة..تومئُ لي بالصبر..أُغمضُ عيني..أَعضُّ على شفتي السفلي قهراً..أضيعُ في جوقة الصخب..لم يخطر ببالها أنها تعدُّني لذاك الغريب وليمة يقشرِّها في حجرته البائسة..

" سلّم هلْها اللي ربَّوها..للناس الزّينين عطَوها "[1]..

يا لهذا الشعار المستهلك الأجوف..مسكينة أمي!..مسكينة جدتي!.. مسكينة أم جدَّتي أيضاً..كيف مرّتْ هذه النغمة عليهن منذ زمن طويل.. ليتهم اكتفوا بوأدنا كما كان يفعل أسلافهم الجاهليون..فخدعة التربية الحسنة وتسليمها لأحسن الناس فيما بعد لم تعُد تنطلي على أغبى واحدة منهنَّ..لم يبقَ منها سوى ما تردِّده الشفاه في أغاني (الغيطة) سيئة النظم والمعنى او تتفوه به عجوز آيلة للانتهاءفي (قذَّارة) تسلّقتْ سمعي حينها في إلحاح :

" مبروك يا عزيز عليك..أدراجَك اللي راقيلهن "[2]..

من يسمع ذلك يظنُّ أن طرفَي هذا العرس التاريخيّ هما كليوباترا وعشيقها أنطونيو..أو أثينا يزفها حرّاس الأوليمب إلى زيوس ربُّ المؤلَّهين أو ربما سْفَيرة عزيزة تُزفُّ إلى أميرها يونس الهلالي..أو لعلهما أميران من ذوي الدم الأزرق ربطتْ بينهما أواصر المصاهرة !..

المسافة القليلة بين منزل العريس ومنزل أهلي زمنٌ آخر..انطلقتْ بنا السيارات..جثة مبعثرة أقاد إلى مجهول..تنعق بمزاميرها الصاخبة..أحدى

---

(١) من أغاني الأفراح الشعبية.

(٢) (غناوة علم شعبية)..

عجائز العائلة تدفعني إلى موكب العرس..سيارة العروس التي أستقّلها صحبةَ عمّتي وبنتيها كانت في المقدمة..وفيما كانت السيارة تبتعد عن بيتنا كان ثمة كتلة سوداء تناديني للهرب من الجموع الصارخة والزغاريد التي تحوَلتْ إلى أنين في أذني..

– دم البكارة مميّز..تماماً مثل دم الشاة المذبوحة..لا شيء يدعو للخوف والقلق..هي لحظات يسيرة وينتهي كلُّ شيء !.

همستْ إحداهنَّ في أذني وهي توصيني وتمدُّ يدها برفق إلى فخذي !..

تلك الليلة الملَّطخة بالدموع..أجلس في غرفتي شحيحةِ الضوء لوقت غير محدود..في انتظار تلك اللحظة الأكثر إيلاما في حياتي..بكيت.. شعرتُ بإهانة تعمُّني..تحولت إلى نقطة ضئيلة..

توقف اندفاعُ الجموع أمام غرفتي..وجدتُّني في تلك الحجرة وحيدةً دون رفيقاتي..انتهتْ آخرُ كلمات التعويذة..

أحدُهم يخطف المنديلَ الملطّخَ بالدم..دمِ الشاة المذبوحة..يركض تجاه النسوة ويرميه بينهن..اتجهت معظم النسوةِ نحو أمي يحضننها.. أطلّتْ بعض نساء أهل العريس من الغرف المظلمة والنوافذ..

تعالت الزغاريد تشرخ طبلة أذني..تناهى إليَّ صوت البنادق كأنها تُفرغُ رصاصها في صدري..ارتميت في أحضان إحداهن هلعاً..أمسكتُ بطرف أمّي..تلقّفتني إحداهنَّ وربّتتْ على كتفي..الزعيق ظلَّ يدقُّ في رأسي ويتعالى.

ومنذ تلك اللحظة صرتُ زوجة..وكان القسم والنصيب اللذان كانت جدّاتنا يتشبثن به ويدعين حفيداتهن للتمسُّك به والإذعان له إلى أن تفنى الدنيا !.

ذكرى ذاك اليوم تدفّقتْ تلك اللحظة..كان ذلك يوماً حاسماً في حياتي..

عدتُ يومَها..أتأبّط شرَّ قلقي..يأكلني العجز والقهر والإحباط..وقبل أن أدلفَ إلى حجرتي أواري حزني وقهري..اعترضتْ أمي طريقي وقد علَّقت على فمها ابتسامة مرتبكة..أخذتْ بذراعي..قدَّمتْني إلى لفيف من النسوة اتخذن مكاناً في صدر الصالة.. تقدمتُ صوبهنَّ أصافحهن..كنتُ قد التقيتُ بعضَهن فيما سبق..وفيما شرعتْ بعضُهنَّ يتأملنني بنظرة متفحصة.. كانت الأخريات يُمطرنني بعبارات المديح والإطراء..أدركتُ أن أمراً خطيراً اتخذته العائلة في حقي..هذه هي المحاولة الثانية التي يعاود فيها قريب العائلة الكرَّةَ لطلب يدي، وكنت في المرة الأولى قد رفضتُ مجرّد مناقشة الفكرة من أساسها بحجة مواصلة الماجستير..كان ذلك حين اعتقدتُ واهمةً أني التقيتُ فارساً سيأتي ليختطفني على فرسه البيضاء ويأخذني إلى عوالمه الرحبة.. فارسي الذي وعدني أنه سيبقى يحبُّني..

" أيها الليل..يارفيقَ القمر..لماذا تأتي إليَّ بائساً ؟..صديقُك القمر المراوغ تركني وحيدة ".. على حين غرّة احتلت رأسي هذه الكلماتُ التي لا أعرف أين صادفتُها ..

بلهاء كطائر بوم جلستُ بينهنَّ أقطرُ سذاجةً وبؤساً..دون وعي أستسلم مثل دجاجة أنهكها الهروب..لم أعُدْ قادرةً على عقد اتفاقات جديدة مع قلبي الذي خذلته الخيبات المتوالية التي حلَّت بغُرفه..لكن ثمة صوت يتردّد في داخلي أن أحتالَ على قلبي لأعيش مثل الآخرين، وإن قُدِّر له أن يُبقي شخصاً ما فليكن ضيفاً عليه !..

كان عليَّ أن أرفضَ عرضَ أمّي للمرة الثانية والثالثة والرابعة..ولا أكترثُ لتوسُّلاتها التي تحاصرني كلما انفردنا ببعض بعيداً عن العائلة..كانت تسرد على سمعي مواصفات هذا القريب الطيِّب الذي لا يدخِّن ولا يعاقر الخمر ولا يسهر خارج البيت..لم يسافر خارج البلاد مرةً في حياته ..كان يمشي بجوار الحائط..لا ينظر لامرأة ولا ينظر إليه أحد كما تصفه أمي..كأنَّني سأقترن بصحابيٍّ من عصر النبوَّة أو أحد حواريِّي المسيح !..

ما فتئت المسكينة تفرد أوراقَ اعتماده وتنشر سيرته الذاتية !..اعتقدتْ أنها تقدِّم لابنتها خدمةً جليلة باختيار زوج بهذه الميزات الخرافية !..ومَن قال لها إني أريد رجلاً بهذه المواصفات؟!..ولم أدرِ أيضاً سرَّ إصراره على معاودة الكرة مرة أخرى..إلا بعد أن اكتشفتُ أنه تدبيرُ أمي..

توقفتْ مشاعري كلها أمام معنى أن تكون الفتاة (زكيبة ملح) !.. بالنسبة لنا كان ذلك البارحة..لأننا كنّا نستظل برجالنا ونفضلهم على ظل الحائط.. وسيكون ذلك غداً..لأننا ما زلنا في نظرهم قاصرات عن اختيار ما يصلح لنا كما ينبغي !.

كانت خيالات أيام مضتْ تتزاحم في رأسي..أسترجعُ الموقف..أتذكّر .. وافقت على الزواج منه ليس للميزات التي صبَّتْها أمّي في رأسي وإذعانه لطلبي على مواصلة دراستي العليا..بل انتقاماً من أيامي المهدورة التي كنتُ أعيشُها في انتظار الذي لم يأتِ ولا يأتي!..هم يقولون إن جميعَ نساء العالم تتشابه في ذلك المكان !..وهذا يؤدي بالنتيجة إلى القول إن جميع رجال العالم ينسحبُ عليهم هذا القول..ورجلٌ يريد الاقتران بي لمواصفاتي..أفضل بكثير من رجلٍ أحببتُه أكثر مما ينبغي فيتجاسر على التنكيل بمشاعري وقطع أواصر الحب الذي كنتُ أدَّخرُه له..وما جدوى أن أضعَ مشاعري في قلبٍ مثقوب..!

سأتزوجُ هذا الذي وقف ببابي يطرقه مرةً تلو مرة..فقط لأنه يستأنس لقربي بجواره !.ها هو ذا رجل أرادني زوجة..أتزوجه على غير إرادتي.. وجدتُ يدَه تفكُّ قيودَ جسدي بلين..حتى وإن لم تتمكن من قيود قلبي.. لكن هذا ما توهمته ذات تهور !..

(٣٥)

ازدحم المكان بالحاضرين حتى ضاق بهم..احتلَّ أفرادُ أسرتها وأقاربها معظمَ المقاعد الخلفية للقاعة..فيما اتخذ زوجها مقعداً في الصفوف الأولى..هيأة الممتحنين تصدرت المسرح..ساد الهرج والصخب المكانَ لوقتٍ كافٍ ثم ران الصمت حين أعلن رئيس اللجنة دعوة الطالبة هدى منصور للمنصة الخاصة لبدء مناقشة رسالتها لنيل الماجستير في التاريخ..

نهضتْ متحاملةً على ارتباكها..مع دنوِّها من المنصة بخطوات متعثِّرة بالكاب الأسود وقلنسوة التخرج المعتادة..ضجّتْ القاعة بالتصفيق، فيما علتْ من الخلف زغرودة زاعقة زادت من ربكة هدى..رويداً رويداً تبعثرتْ الأصوات..خفتت..تركتْها وحيدة في مواجهة اللجنة..عرقٌ لزج شعرت به يغزو جسدها ويبلل ثيابها غير الظاهرة..جفَّ لعابها..ارتجفت يداها..أحسَّتْ أن قدميها قد تخذلانها في أي لحظة..لكنها تماسكتْ حين لمحتْ وجه أبيها من بين الوجوه في الخلف..حانت منها التفاتة إلى زوجها..رماها بنظرة باهتة..ردَّتْ عليه بنظرة فيها الكثير من التحدي..

للحظات حزينة افتقدتْ أخاها عقيلة..تمنَّت أن يكون من بين الحاضرين..فقد غَيبه السجن الذي يقضي فيه عقوبة تمتد إلى ثلاث سنوات.. ودَّتْ لو تهدي إليه لحظات تفوُّقِها عليه..ليس تحدِّياً أو شماتة، بل لتُريه مدى الفارق بين عزيمتها وإصرارها وبين تخاذله وسيره في غَيِّه الذي قاده إلى العربدة وتعاطي المخدرات والاتجار فيها وانتهائه قابعاً بأحد عنابر السجن..

صمتت لحظة تستجمع فيها أنفاسَها..تختلس النظر لمن في آخر الصالة.. تستنجد بأحد ما..تتوسَّل جرعة جرأة..تبحث عن مفقود غائب ينقذها من لجة هذا الارتباك العظيم الذي رماها في وسطه..هو الوحيدُ القادر على فعل ذلك..لا أحد سواه يفكُّ شفرةَ هذه اللحظة ويعيد ترتيب فوضى حواسِّها.. رجتْه بينها وبين نفسها أن يحضر..لكنه لم يفعل..لقد غاب عن مناسبة مهمة بالنسبة لها..أضاعتْه وأضاعها ولا يمكن لها استرجاعه..

وجدتْ نفسَها ترغب في رؤيته بين الحاضرين..كما لو أنّ عذابها قد تلاشى فجأة..لكن لن تسمح لنفسها أن تراه..لقد صممت أن تنزعه من حياتها إلى الأبد..وعليها ألا تتخلى عن تصميمها..لديها زوج..ولديها فوق ذلك حياتها..

حين طلبتْ منها اللجنة قراءةَ شيءٍ من الأوراق أمامها..اختارتْ أن تقرأ ما جاء في المقدمة لتذكر ما كابدته في سبيل ذلك البحث المضني الذي استغرق من عمرها ما يزيد على عامين ونصف..وسط شح كبير في المعلومات والوثائق والصور..وزمن الحرب وانتشار الأمية وانحسار الذين

يمكنهم الكتابة أو التأريخ لدقائق حياتهم خلال الفترة التي يتحدَّث عنها البحث..ثم عرّجت على شكر كل من قدّم لها يد العون والمساعدة وذكرتهم بالاسم..لكنّها تخطَّتْ اسم محمود فاضل..لم تكن تراه لحظتها، بل كانت ترى تلك الشاعرة المتعجرفة التي انتصرت عليها واستطاعت أن تأخذه منها بعيداً..كأنها تنتقم منهما معاً..ثم بدأ سيلُ الاستجوابات والبحث المجهري في أوراقها من قبل لجنة الفحص..وقد استنزفها ذلك وقتٌ طويل كانت تقطعه بتناول الماء..لكنَّ حدة الاستجواب خفَّ حين مال الدكتور المشرف على الرسالة على أذن الممتحن الخارجي القادم من العاصمة وكان أكثر الممتحنين ضراوة وتدقيقاً..وأسرَّ له أن طالبتَه مرهقة من السفر ولا تقوى على الوقوف كثيراً..فتوقّفَ عن تشريح الرسالة ومتنها وحواشيها..لكنه لم يخفِ استغرابه من الاختلاف الشاسع بين فصولها الأولى وفصلها الختامي الذي بدا مهلهلاً كثيرَ الثقوب !..

أدركتْ هدى عندها كم كانت مخطئة حين اعتقدتْ أنها قد تنجز شيئاً دون مساعدة محمود فاضل..وها هو الفراغ الهائل بين ما كتبته بمشورته وما استطاعت كتابته بمفردها فصار مثارَ استغراب وتساؤل اللجنة !..

قبل ذلك بليلة تلقى محمود رسالة على موبايله من أمينة تعلمه فيها أن هدى منصور ستناقش رسالتها غداً..وأن زوجها وكثيراً من أسرتها سيحضرون حفلَ التخرج..قرأ المسج ببرود..لم يأبه للأمر ولم يكترث ولا يجب أن يكترث..فلم تعُد تهمُّه كثيراً أخبارَ هدى منصور التي تجاوزها قلبُه

لمسافات طويلة وأسقطها من حساباته..ما استطاع فعله من أجلها قد فعله حبّاً في العلم وتلبيةً لرغبة والدها الطيب..وهذا يكفي..أمّا حضور المناقشة فهذا أمر بعيد الاحتمال..هكذا ظنَّ حين قرأ الرسالة وأقفل الموبايل..

تذكر ذلك اليوم الذي تزوجتْ فيه..كيف وقف متوارياً بسيارته غيرَ بعيد..يرقب لحظةَ زفافها..انكفأ ينتحب في صمت..منتظراً انطلاق الموكب.

كانت هذه اللحظة هي أقسى لحظة عاشها منذ زمن..يومَها عاد ليقضي ليلةً أليمةً فقد فيها كلَّ أحلامه العريضة والحب الكبير الذي جمع بينهما حيث نُسجتْ خيوطه الأولى منذ أكثر من عامين..وأن قلبه تمزق بلا رحمة ولا هوادة..فقد الثقةَ بكل المشاعر العظيمة وكل معاني الحب والوفاء التي قضى عمرَه يقرأ عنها في الكتب ويسوِّق لها في كتاباته ومنشوراته!..كان زواجُ هدى بمثابة صدمة قوية زلزلت حياتَه بأسرها..

عادتْ ذاكرته تستعيد أحداثَ ليلته الأخيرة..تلك الليلة الطويلة لم ينمها كما ينبغي..كان نوماً تزوره الكوابيس ويقطعه الفزع..

ظنَّ محمود فاضل أنه نسي أمرَ هدى بالكامل..وأنَّ الماضي ولَّى وليس هناك من وسيلة للسيطرة عليه !..تقلَّب في فراشه كثيراً..ظل يقلِّب الموبايل بين يديه يتهجَّى رسالة أمينة..لا يدري ماذا يفعل!..يتجاذبه أمران أحلاهما مرٌّ..هل سيذهب أم ينسى الأمرَ برمته..لكنه استسلم للنوم حين قرّر أن يذهب للاطمئنان عن تلميذته وليرى ثمرةَ ما استنزفه من جهد ووقت وبحث مضنٍ..وليكن ما يكون !.

في الأثناء كان محمود ينهب المسافة بين اجدابيا وبنغازي لحضور مناقشة رسالة الماجستير..ولم ينسَ أن يشتريَ باقةَ ورد..أرفق معها ورقةً صغيرة كتب عليها عبارة واحدة تقول (مبروك) ..

وصل متأخراً..بحثتْ عيناه عن مكان قصيٍّ يتوارى فيه..ولم يحضر سوى الجزء الأخير من المناقشة..حيث قرّرتْ اللجنة في نهايتها منحَ الطالبة هدى منصور رسالة الماجستير في التاريخ مع بعض التوصيات المعتادة..

ارتجّتْ القاعة بالتصفيق..علتْ زغاريد نساء العائلة..غادر معظم الحضور مقاعدَهم لينهالوا على هدى بالتهنئة..وقد كان والدُها أولَ القافزين على المنصة يحضن ابنتَه وقد امتلأت عيناه بالدموع..

في ذلك اليوم شاهدتْ هدى تخرُّجَ والدها وهو يضمها إلى صدره بتحنان وقد غادرته ثرثرته لحظتها..لم تجد سوى ذراعيه يربت بهما على ابنته الأثيرة (اهديوة) وخالجتها ذكرى ذلك اليوم حين قدّمها لمحمود وهو يوصيه أن يفعلَ جهدّه..لأنها عنده أذكى أولاده..

رأت الحماسَ في أعين الجميع عدا زوجها الذي ظل على حياديته كأن شيئاً لا يحدث حوله !..لم تتمكن من قراءة ما كان يدور في رأسه ساعتها..لكنها لم تشأ أن تفوّت على نفسها فرحة اللحظة..

وفيما كان صخب الفرحة يسود المكانَ وأفرادُ العائلة يقدمون المرطبات والحلويات للجميع..استغلَّ محمود حالةَ الهرج والفوضى فاقترب من أسامة الصغير وسلّمه باقة الورد طالباً منه في همس أن يعطيها لهدى شخصياً..ثم

– وقبل – أن ينتظمَ عِقْدُ الحاضرين من جديد انسلَّ من المكان دون أن يفطن له أحد !..

توقَّفتْ هدى عند تلك الذكرى المريرة..وهي تحضن باقة الورد وتمسحُ بعينيها تلك العبارة الوحيدة التي أرسلها محمود بعد هذا الغياب الطويل.. كيف عَلِم بموعد المناقشة ؟..أما كفاه أن يتخلَّى عنها في رسالتها حتى يأتي لينكأَ جراحها ؟!..من أخبره بذلك؟..هل هو والدها الذي ما برح يتردَّدُ عليه من حين لآخر ؟..لكنه هو الآخر لم يكن يعلم على وجه الدقّة الموعد.. فقد أخبره أهلي قبل يوم الذهاب إلى بنغازي بيوم واحد !..هل كان يتسقّطُ أخباري طوال مدة انقطاعنا عن بعض؟..هل كان يدسُّ عليَّ من يأتيه بأخباري؟!..وأين أمينة؟! لماذا لم تأتي..ألم تعدني بحضور عرس تخرُّجي؟..

عديدُ التساؤلات تخترق رأسَها مثل مسامير طوال عودتها مع أسرتها إلى اجدابيا !..لكن لا ينبغي أن يُفسد عليها أمرٌ عارض كهذا بهجةَ الفرحة بالنجاح والتفوُّق..وماذا لو لم يساعدني محمود..ماذا لو لم تحضر رفيقة عمرها أمينة ؟..ما الذي حدث؟!..لم يحدث إلا ما أردتُه..

أغمضتْ هدى عينيها على ابتسامة ظلتْ تتسع وهي تضع رأسَها على كتف عمّتها..لكنَّ قبضتها لم تتراخى عن باقة الورد..

مرةً أخرى تواردت الذكريات فجأة على عقلها وأفكارها..عندما كانت أمُّها تلح عليها بضرورة الموافقة على القبول بالزواج من قريبها وتحاصرها بكل الوعود والأماني التي ظلتْ تردُّدها على أذنيها..ظل قلبُها متمسكاً

بمحمود الذي قررت أن تمنحه فرصةً أخيرة قبل أن تذعن لحصار أمها التي عرفتْ أنها تحبه، لأنها تبتسم كلما تحدثتْ عنه أو جاءت سيرتُه في حديث عابر..

أرسلتْ إليه رسالةً مع أمينة تدعوه فيه للقائها وتخبره فيها أنها مستعدة لفتح صفحة جديدة معه..وإلا فإنها ستضطر للزواج من ذاك الخطيب الذي يطرق بابَها باستمرار..لكن أمينة عادت لتخبرها بأنه يرجو لها حياةً سعيدة مع زوجها الجديد..وأنه قد أخرجها من حياتها تماماً..ولم يعُد مستعدّاً لأن يربط مصيرَه بمصيرها مرةً أخرى..أغمضتْ عينيها من فرط إحساس بألمٍ عنيفٍ طوّق روحَها تلك اللحظة التي أخبرتها فيها صديقتها أمينة..

(٣٦)

في الإسكندرية قضى سعيد وناجي أيّاماً في رحلات مكوكية بين المطبعة والشقة لمراجعة ملازم (بروفة) الرواية بعد أن اتفقا مع عزّت على حجمها وإخراجها وشكل الورق واختيار غلافها الذي أعدّه أحد مصمّمي الأغلفة المعروفين واختيار اسمها الذي اقترحه لها ناجي..

وحين عرض عليهما عزّت تكلفة النسخة الواحدة لاذ الصديقان بالصمت..فما معهما من مال لا يكاد يكفي تكاليف علاج محمود.. فكيف بمبلغ إضافي لطبع روايته !..

– لا تفكرا في تكاليف الطباعة يا سادة !..

قالها عزّت في هدوء حين قرأ تلك الحيرة في أعينهما..واستطرد:

– سأتكفّل بسداد القيمة للمطبعة..فقط عليكما أن تبلغاني بعدد نسخ الرواية..وحالما تجهز ستكون معبأة في صناديق الكرتون وجاهزة للشحن إلى ليبيا..ما رأيكما ؟..

التفتَ سعيد إلى ناجي وقد اجتاحتهما ابتسامة أضاءت وجهيهما..فقال ناجي :

– نعم ولكن كيف نستطيع سداد المبلغ ؟!..أقصد لعله كبيراً كفاية..

– لا عليك..حالما تصل الرواية ليبيا سنقوم بتوزيعها على معظم المكاتب هناك..سنجد وسيلة لتغطية المبلغ..لا تفكر كثيراً بهذا الأمر..اترك الأمرَ لي..أعلم أن قرَّاءً كثيرين سيتلقفون روايةَ محمود فاضل بذات الحماس..فهو معروف عندهم..خاصة حين يعلمون أن ريعَ هذه الرواية سيخصص لاستكمال علاجه من مرضه الذي يحتجزه في الفراش بمصر..دع موضوعَ تسويق الرواية لي..سأتكّفل أنا بذلك..ما يهمنا الآن هو دفعُ التكلفة هنا في مصر..

كان سعيد يتكلم بحماسة واضحة..فيما كان عزّت يومئ برأسه موافقاً..

– حسناً..الآن وقد حسمنا موضوع الرواية..ما رأيكما أن نأكل شيئاً..أم نقضي الوقت في إعادة الحديث حول رواية محمود..قال عزّت..

– أمهلاني أقلَّ من ساعة..سأعدُّ امبكبكة تأكلون أصابعكم وراءها..ردَّ سعيد جذلاً..اعترضه عزّت في حسم :

– لا يا سيدي..أجّل هذه المبكبكة الآن!..سنخرج لنأكل طعاماً اسكندرانياً لاتجدانه في كل مصر..لقد كلفتُ زوجتي أم محمود بإعداده ..وهي في انتظارنا..

– ولكن يا ....أجاب الدكتور ناجي في حرج ..

– (ما لاكنش) !..هيا لا وقتَ نضيعه في الاعتذار..سنتعشى ثم نذهب إلى اسموحة لرؤية محمود والاطمئنان عليه..رمى عزّت بالعبارة ثم جذب سعيد من كتفه يستحثه للخروج..

لعلها إغماءةٌ وتمضي كسابقاتها التي تعاوده..لكنّها في يومها الثاني والحال هي هي..لا أكل..لا شرب..لا كلام..لا حركة..أجفان مطبقة..نبضات لا أحد يعلم أيها تكون الأخيرة..ابتسامة تطفو على أساريره ثم تغيب، ثم تطفو من جديد..لا شيء سوى خراطيم التغذية والتنفس وأسلاك موصولة بين صدره وأجهزة تومض هنا وهناك وتصدر حشرجة مخيفة..

– أتعني أنه لا يزال على قيد الحياة ؟..

– فيه بقية حياة..

تقدم الدكتور ناجي من السرير..أخذ بيد محمود..ناداه باسمه..لمح خلجةً خفيفةً في حاجبيه،وأخرى عند أطراف شفتيه..واعتقد أنه سمعه فناداه ثانية وثالثة..لكنَّ عضلاً من وجهه لم يختلج..عندئذٍ أقلع عن كل محاولة أخرى.. عاد إلى صديقه سعيد..قال له محاولاً أن يجعل لكلامه يقيناً لا يخالطه شك :

– لندعه يسترح..

– أتظنه يسمعنا ؟! سأل سعيد..

– من يدري ؟..لعله يسمعنا ..

تلك الليلة غادر الصديقان المستشفى وقد اجتاح قلبيهما حزنٌ شديد على صديقهما محمود..هذه المرة كانت النوبة قوية..الطبيب أخبرهما أن هذه الحالة قد تتكرر إن لم يلجأ إلى العلاج الكيماوي الذي ظلَّا يؤجِّلانه حتى الآن..على الأقل ليس قبل استشارة أسرته بهذا الشأن..

(٣٧)

ليلَتها كانت أمينة تتقلب في فراشها وهي تفكر في عذر تلتمسه لها صديقتُها هدى عن عدم حضورها مناقشة رسالتها..خاصَّةً وأنها ما زالت تتردّد على الجامعة وتقيم ببيت الطالبات مرتين في الأسبوع لاستكمال دبلومها هي الأخرى فلا عذر لها تتعلّل به..فهي على مرمى حجر من الجامعة..لكنها لم تأتي..خشيت أن ترى محمود بين الحاضرين فتتجدَّد ذكرياتها الأليمة.. ويستيقظ ضميرها المعذّب فجأة فتنهار وتفضحها مشاعرُها..فضَّلتْ أن تنأى بنفسها عن كل ذلك..وآثرت السلامة..وستجد العذرَ المناسبَ في الوقت المناسب الذي يقنع هدى الطيبة فهي يقنعها كل عذر !..

لكنَّ ضميرَها لم ينم قطْ..لم تشعر براحة واطمئنان طوال الأشهر الماضية..لقد ظلَّ يعذبها ويطاردها كلَّ هذا الوقت..بالرغم من كل المبررات التي استخدمتها لكي تبرر تصرفها وتمنعه من محاسبتها..

ظنّتْ أنها قد نجحت أحياناً..لكنها تكتشف دائماً أنها كانت واهمة في ظنها..وها هو ذا ضميرها يهزُّها بعنف..وأن أشباح الأشهر الماضية عادتْ لتتراقص أمامها..

تقلّصتْ ملامحها وهي تستدعي ما حدث لها : "لقد عوملتْ أسوأَ معاملة من زوجة أبيها..وزادت حالتها سوءاً بعد رحيل أبيها عن هذه الدنيا..تملأ الحسرةُ قلبَه بعدما ذاق مرارةَ الفراق..فقد اضطُرَّ إلى طلاق أمها بعد دسيسة لا أحد يؤكّد صحتها..

فراقُ أمها لم يتوقف عند هذا الحدّ، بل ترك ندوباً عميقة في جسد العائلة كلها..وأصبح موضوع سخرية واستهزاء أفراد العائلة ثم أهل الشارع فيما بعد..

لم يكن والدُها وحده هو الذي ذاق قهرَ الشائعة وألمها..لكنه ترك صغيرتَه أمينة تحمل وزراً فوق كاهلها أيضاً وهي ما تزال في هذا السنِّ..ذاقت طعمَ الإهانة والنظرة الدونية من كل كبير وصغير حتى أصبحت تكره الخروجَ من المنزل بعد عودتها من المدرسة..ولا تتردَّد إلا على صديقتها الوحيدة هدى..إذ كانتْ أم هدى تحنو عليها وتعطف عليها وتنظر إليها بكثير من الشفقة..

وكان كثيراً عليها بالطبع أن تحلمَ بأن يبادلَها شابٌّ حبّاً جارفاً يرمِّم شروخَ قلبها الحزين..لكنها لم تظفرْ بهذه الأمنية التي ظلت تطاردها مثل كوابيس مزعجة..لم تتمكن أمينة – في ظل هذه الظروف – أن تمنع نفسها عن الحقد الذي تغلغل في أعماقها..منذ أن أصبحتْ هي وأبوها موضعاً للإهانة والمعايرة في كل الأوساط المحيطة بها..فنما مع عجزها عن أن تحظى بالحب الذي تمنته، ونما أكثر عندما وجدتْ صديقتها ورفيقة الدراسة تتقلّبُ في مراتع الحب..وتنقل فؤادَها حيث تشاء من حب إلى حبّ..تحب هذا

وترفض هذا وتهجر هذا..وها هي تتزوج من آخر وقد تحمل منه طفلها..
وتحصّلتْ على الماجستير، وعلى وشك أن تكون أستاذة جامعية..

ارتجفت في فراشها وهي تردَّد هذا المنولوج..وتضيف قائلةً لنفسها :

– لا يمكن أن أكونَ بهذه الصورة البشعة..لستُ سيئةً إلى هذا الحد..

وأخيراً تمكن النومُ منها..كان نوماً مضطرباً تتخلله رجفاتٌ لجسدها من حين لآخر..

(٣٨)

تلك الأنفاسُ الهشة..تلك الأنّاتُ المكتومة..لا بدَّ لهدى منصور من أحدٍ يفوز بقلبها لا ليحطّمه..هل الزيجات المدبرة ينمو فيها الحب ؟..

كانت أياماً مشحونةً بالقهر بيننا..منذ جمعنا ذلك القرار الأهوج..منذ تلك الجدران الصلدة والأبواب الموصدة التي ضمتنا..منذ موافقتي الرعناء على هذه المغامرة..منذ ذلك الغباء الذي لا يشبه غيرَه..لم يجمعنا شيءٌ جدير بالتذكُّر..فما بيني وبين زوجي أزمنة متراكمة على وشك الاندثار..

لم يكن الرجلَ الذي أريد..لم أحتفِ بزواجي به كما كنت أحلم حين كانت المراهقة تقتحم أعتابَ طفولتي..خذلتني أحلامُ الصبية المراهقة..ومن المؤكد حتماً أنني لم أكن المرأةَ التي كان يتمناها..هو أيضاً خذله نفوري منه ورفضي له..

لكننا تزوجنا !..

عبثاً حاولتُ تلك الليلةَ أن أستكينَ له..أسلّمَه مقودَ تلك المهرةِ الجامحة..أكون أنثى مطيعةً..لكنَّ شيئاً في داخلي كان يرفضه..كيف لغريبين مثلنا أن يمارسا الزوجية كما ينبغي..

تاريخُ إهانتي يبدأ من تلك الحادثة الأليمة..حين فُضَّتْ بكارتي تلك الليلة على عجل..كان اغتيالاً لكبرياء الأنثى المدلّلة فيَّ..هو كان ليلتها في رهان مع الوقت..يريد أن يفرغ من هذه المهمة الخطرة..مهمة سفك دم الشاة موثوقة الأرجل..كنت أرى نصراً مستفزاً في عينيه..خرج يمشي ملكاً محتفلاً بفتوحاته العظيمة..

لماذا شعرتُ بالانهزامية..بالتلاشي.. بالانتهاء.. بالدونية من هذا الزواج الذي لا معنى له ؟..

سبعُ وعشرون سنة قضيتها على رصيف انتظار طويل لم تبدُ نهايتُه أمامي.. في انتظار رجل يطلُّ من بعيد..رجلٍ بحجم أحلامي ومشاعري وتمرُّدي وطموحاتي..يعوِّضُ تسرُّبَ سنواتي..

أمّا هذا..فلم يكن لي!..

لم يكن ذلك النوع الذي يستطيع أن يشغلَ أو يُشعلَ قلبي ويسكنَ إحدى غرفه..رجلٌ لا يقدر على الإجابة عن أسئلتي التي كانت تشتعل وتنطفئ بمجرد التفكير فيها..أيضاً لم يكن يجيد طرح الأسئلة التي أدَّخر أجوبةً عنها!..

باغتني مرةً أقلِّبُ كتاباً سألني عنه بلا انتظار جواب..قلت له لابن خلدون..وقبل أن أحاولَ استعراض معلوماتي أمام خوائه حدَجَني بنظرة فارغة وحكَّ رأسَه وواصل طريقَه نحو الثلاجة ليأخذَ جرعة عصير من العلبة مباشرة..تجشأ بعدها وجلس يقلّب قنوات التلفزيون يبحث عن مباريات الكرة..ويشعل سجائرَه مرةَ المذاق..

كان ثمة خاطر تعلقني حين استعدتُ سنيِّ مراهقتي القريبة..كنتُ أعشق رائحةَ دخان السجائر التي تفوح من رجال العائلة..وأتصورُني أستنشقها عن قرب حين أتزوج رجلاً يدخن بشراهة..لكنني بتُّ أمقتُ هذه الرائحة التي تنبعث من سجائر زوجي..وعندما علم أني أتضايق منها بات يدخنها بجواري نكاية بأنفي الذي أغلقه بيدي !..

منذ ذلك السؤال المباغت..قِستُ المسافةَ البعيدة عن أقرب نقطة بيني وبينه!..أدركتُ مدى صعوبة التفاهم معه..وأن الحوار عنده يرتدي أشكالاً أخرى غير التي أعرفها..فشلنا في الالتقاء عند نقطة ما !..

مع توالي أيامي معه..رتابتها..مرارتها..صرت أتضاءل..أتحوّل إلى كائن لا فائدة له ولا معه!..

كان القفز إلى الفراش لا يستغرق منه وقتاً..لكن التفكير في غيره يستغرق الكثير!..لم أتخيل أبداً أن يسجنَني زوجي داخل نمط من الحياة مفرغ تماماً من كل أشكال المتعة..صارت كل الأشياء مبهمة في عيني..لا أدري من أين تبتدئ ولا إلى أين تُفضي!..

ما كان يلفتُ نظري في بداية زواجنا هو شغفه الدائم بالتطلع إلى بطني..عيناه كانتا تخترقان وسطي بكثير من التلهف..تتجاوزان حدود السؤال..ماذا يحدث لتضاريسها وأبعادها..وكيف أُحسُّ بهذا التغيير الفيسيولجي..

فهمت لماذا كان يديم النظرَ إلى بطني ويرصد ما يحدثه الحمل..يريد أن يحمِّلني طفلاً منه كي يربطني به زوجة إلى الأبد..سيتفاخر أمام أهله أنه ظفر

بتلك الفرس المشاكسة، روِّضها ولغِّم أحشاءها بطفل يحمل جيّناته وصفاته واسمه..ليس ذلك فحسب ! بل ليكسر من حدّة عنادي ونفوري..يحدُّ من جبروتي الذي يعدُّه تحدياً لذكورته !..ظنَّ أن ضمَّ طفلِه إلى صدري قهرٌ لي وتمريغٌ لأنوثتي وتسفيهٌ لشهادتي الجامعية وزاد من ذلك أنني قُبلتُ أستاذة في الجامعة..

ثمة رجل يعاني مشكلةً من نجاحي..كاد ينشقُّ حسداً..أدهشه مرتبي المرتفع الذيً يضاهي مرتبه أضعاف المرات..شعوره بالفارق التعليمي والثقافي والمادِّي بيني وبينه جعله يتميّز غَيرةً، بل وحسداً..فلا يملك حيالي إلا أن يذلَّ المرأةَ فيَّ..المرأةَ التي تحمل في رأسها كثيراً من الطموحات..أعني أن هذا ما أعدَّني أبي له..

لكن لماذا كانت الفاتورة بهذا الارتفاع؟..أردتُ أن أكون ناجحة..لكن ليس بهذا الثمن !..

ألجأتني حالتي إلى هزِّ أغصان شجرة الحنين..صرتُ أفتقد أهلي ومناوشات عقيلة ومناكفاته معي..اشتقتُ لطعام أمي الذي كانت تعدُّه لنا بحبٍّ فيأتي لذيذاً شهياً لا يضاهيه طعم!..أدركتُ أن للمحبة طعم يعلق في ذاكرة اللسان..أتشوق لشقاوة أسامة وصراخه حين يشتهى شيئاً ويلحَّ في اقتنائه..أفتقد الاستيقاظ كل صباح إلى جوار شقيقتي !..

كان كابوساً هذا الزواج..أتكوّم بكآبتي بجواره على السرير..بتُّ أحصي تأوهاتي ليلة بعد ليلة وأعدُّ صرخاتي واحدة بعد واحدة..تستدعي مراهقتي رجلاً أسطورياً يعرف كيف يغمر أنوثتي..كيف يطوِّقها..كيف يدلّلها..كيف يجعلني أبلغُ سعادتي..

هو أيضاً أحسَّ بغربتي عنه..عندما علم أنني لم أعُد الأنثى التي تُرضي رجولتَه وتستكينُ لها بسهولة..لا أدري ذاك الشيء الذي يسكنني..يغرقني..يجعلني ضائعة وأنا بجواره..لم أكن أتملّقه كلما يكون منزعجاً كما تفعل النساء مع بعولتهنّ..أدرك أنه حاز على جسدي لكنه لم يتملَّك روحي..هدى الفتاة التي كانت كابوساً مزعجاً لعائلتها صارتْ عبأً عليه..عيناها تخترقان رجولته بمشاهيب من نار لا يقدر على ردّها..

نما بداخلي شيءٌ حوّلني من فريسةٍ إلى صيّاد..ظنَّ أنه يبدأ معي كصياد، ليفاجأ بأنه الطريدة..كان نصيبي منه في كل مرة عتاباً قاسياً تحوَّل إلى ثورة عارمة واتهاماً بجمود عواطفي وقلة إحساسي..كنتُ أستسلم لنوبات الإحباط الذي كان يحيط بي..وأتلقَّى ثورتَه بهدوء ودون جدال..

منذ اكتشافي للمرأة في نفسي لم أشعر بالخذلان أكثر من الآن..إذ لم أتمكّن من التعبير عنها..تلك التي بدتْ تنمو داخلي بطريقة مغايرة..تماماً كالكسر الذي جبر بالخطأ..أسلم تلك المسكينةَ للقلق والأرق..

السريرُ يتسع لشخصين..لكنه يفتقد الحماسة..حين ينام بجواري أشعر أن واحدةً تتمدّد بيني وبينه..كأنه لا يعرف الفرقَ بين جسدٍ وآخر..والمرأةُ المهجورة في فراشها هي امرأة..سواءً كانت أميرة أم جارية..لكن انتقامه من أنوثتي لم تزدني إلا بعداً عنه..كذبت على روحي..كنتُ أقول إنني السببُ لأنني لم أحبه..

كلانا لم يكن مكترثاً بالمسافة التي صارت بناءً شاهقاً يعلو بيننا..هو كان يقضي وقتاً طويلاً خارج البيت، حيث يخرج في رحلات صيد مع أصدقائه

تستغرق أياماً..وحين يؤوب إلى البيت يأوي إلى المربوعة يتحسّسُ الريموت ويغرز عينيه في التلفزيون يتابع مباريات كرة القدم..لو أعرف تلك الجدة التي ألقت في روع حفيداتها أن النساء خُلقن لمسامحة الرجال عن أخطائهم.. لو أعرفها لرفعتُ ضدها قضية!..

" طيَّح اسْعدَه اللي يطيح فيك.."

هربتُ إلى لحظات حياتي الماضية..استدعيتُ صوت أمِّي حين كانت تؤنِّبني !..ضحكتُ بمرارة حين عدتُ إلى ماضي مراهقتي..

قلت لنفسي :" حتى انا طايحة سعد !"..

شيئاً فشيئاً وجدتُني أتكاسلُ عن أداء مهماتي الزوجية وأفرُّ إلى كتبي.. أحتمي بغرفتي أتفحص أوراقي ودروسي الجامعية..في الصباح أغادر البيت مسرعةً..أهربُ لئلا أتشاجر معه..أتحاشى ساديته المقيتة التي تتلبَّسه.. فقد وضعتُ يديَّ على أمرٍ أرعبَني أكثر..لم يكن يكرهني بقدر ما كان يغار منّي!..لم تُتحْ معرفتي بالرجال قبلها كيف يغار الرجلُ من زوجته ويمارس حيالها صبينةً ساذجة..لقد ظنَّ أنه حين ينام وحده في (دار المقعد) أنه استطاع النيْلَ من تفوقي عليه..لم يكن يدري أنه كان يحررني من مجاورته في الفراش !..وأنني كنتُ سأطلبُ منه ذلك..

لم يكن يعلم أنه لا أحد يتمكن من تجميعها..تلك المرأة التي تتحطم في الزواج !..

(٣٩)

و.....يمرُّ الوقت لزجاً..بطيئاً..متشابهاً..

ما زلتُ أعاتبُ نفسي على هذه الزيجة التي اكتشفتُ أنها تجربةٌ مليئة بالثقوب..لم تُفلح محاولاتي بابتلاع الأدوية المهدئة..بعد أن التفَّت حبال القهر حول شراييني..حاولتُ تصنُّع الابتهاج فلم تسعفني الابتسامات الكاذبة..حين لم تُفلح وصايا القريبين مني تسلَّحتُ بالتغاضي..أمتطي صهوةَ وقار الأستاذة الجامعية..وأتغاضى عن كل ما يعترض لحظات هنائي..لكنني كنتُ اتلهَّفُ لشروقٍ يهزم فلول يأسي..بشرٌ أنا.. وكثيراً ما تنفلت مني قواعد الانضباط..فأصير نهباً للهواجس..تعتريني أزمة تلو أخرى..أهرب إلى طلبتي في القاعة وزملائي في القسم..إلى كتبي وأبحاثي.. لم ألتفتُ إلى شحوبي ولا إلى خصلات شعري المتحسِّر على شبابي الغارب..

يسافر كلانا بعيداً عن الآخر..تختلف اتجاهاتنا..لم يعُد يجمعنا سوى ذلك الصمتُ الذي اتفقنا عليه..عندما انقطع ما بيننا ظننتُ أننا قطعنا ألسنتنا عن بعض..لم أرد أن يخرج خصامنا إلى العلن..

واستطعتُ أن أتحصَّل على تفرُّغ من الجامعة لأعد لرسالة الدكتوراه..

أنا أزدادُ تفوقاً في نظره..وهو يزدادُ ضآلةً في نظري..صرتُ أستاذة جامعية وزاد مرتّبي..حتى صار يساوي مرتبات العائلة كلها..وهذا كان يعني أنني صرتُ محطَّ مطامعَ ومطالبَ الجميع..عقيلة أخي خرج من السجن خاوي الوفاض والروح..طلب مني أهلي أن أشتري له سيارة مستعملة زعم أنه سيستعملها تاكسي..وأم زوجي كانت تضع عينَها على مرتبي لتغيير بعض أثاث الشقة التي أسكنها فوق بيتهم..الرغبات لا حصرَ لها ..ولا بأس من دفع تكاليف صيانة البيت السفلي..وحين أقبل شهرُ رمضان وجدتُ نفسي أنفق معظمَ مرتبي في أطقم زجاج وكريستال وأواني لا فائدة منها..وأكياس أخرى ابتاعتها عمتي أم زوجي لم أعرف محتواها..ما عرفته أنني دفعتُ ثمنَها طواعيةً وبطيب خاطر..وارتحت كثيراً لهذا العقد الخيالي.

كأنني أعقدُ معهم صفقة..أن أخرجَ للجامعة في وقتي المحدّد.. أجلس إلى اللابتوب..أفتح الفيسبوك..أتحدث مع صديقاتي على الفون والفايبر.. أتصل بإدارة الجامعة أو يتصلون بي في أي وقت من النهار..أن يحملوني للجامعة متى أريد وينتظرون عودتي متى أفرغ من محاضراتي..كل هذا نظير تسليم معظم مرتبي..

ثمة رجل يعاني مشكلةً من نجاحي..طاووس ينتظر على شرفتي..لا ينفكُّ عن نبش جيبي وجسدي..لأنه بات يعرف أن يدَه لا تطال قلبي.. فقد تزوج من أستاذة جامعية تضع مرتبها بكفه كل شهر..كسر قلبَها بأوامره

التي لا تكاد تنتهي..ويمارس عليها رجولَته الفارغة من أي معنى إلا من معنى الذكورة التي يتفق فيها مع كل المخلوقات الموازية !

ولأن الوضعَ لا يحتمل سوى استسلام أحدنا للآخر..فهذه الحرب المفتعلة بيننا لن تنتهي إلا إذا كان الطرفان كاسبَين..هكذا أقرَّ كلانا ورضي بالأمر الواقع..وكان اتفاقاً غير مكتوب وبلا توقيع..بنوده تقول أن أخفي أنا آلامي،ويخني هو رأسه لعنادي..وغالباً ما كان الصمتُ يعبر عن كل شيء!.. أمّا ما يُدعى حباً بعد الزواج فقد توقَّف قلبي عن هذا الهراء !.

(٤٠)

قبل أن يأوي الدكتور ناجي إلى مهجعه شرع يراجعُ ما نقله على الحاسوب من أوراق قضى مساءَه في طباعتها..أشعل لفافةً وظل يعيد قراءتها قبل أن يحفظَها في حاسوبه :

" كاملة أيتها الأثيرة :

أدركُ أن الحياةَ تركلك إلى القاع..وكذلك أنا..مثلك تخلَّى الحظُّ عنِّي.. وأقدِّر أن ما بك أثقل من أن تحتملي فوقه أكثر من ذلك..لكنني أيضاً لم أعد أحتمل طأطأة رأسي للحزن..ولم أعد أطمئن إلى أن الورق يستوعبُ شكواي..لقد تركتُ كلَّ شيءٍ ورائي..بعد أن أضحتْ مساحة الهم تكبر.. جئتك أفضفض لكِ وحدَكِ..لأننا في نفس القارب..

وتقولين إنك تعيشين جثةً حية !..أنا أيضاً لم أتمكن من القبض على شيء من روحي..لم أجدْها بعد موت حبيب القلب وتاج الرأس..

ها هو ورقُ العمر يتطاير يا كاملة..أتحسَّر على انفلاته في الفراغ..على ضياع كنزي الغالي مني..كان أثمنَ كنز عثرتُ عليه في حياتي يا كاملة..رؤيته

كانت حلماً يراودني..عندما التقيتُه رأيتُ العالمَ للمرة الأولى..كنتُ أحتاجه وأفتقد فيه السندَ الصلب الذي أتوكأ عليه..

أنا بحاجة لوقت استثنائي لاستيعاب ما حدث !..

حسناً..اسمعي يا بنت..سأحكي تفاصيلَ ما لم أحكه لكِ من قبل:

فعندما تخرجتُ في الكلية العسكرية التي اخترتها تحدِّياً لرجال العائلة..صرتُ مخلوقةً غريبةً بعيدة عن الجميع..وجهُ أبي صار يتقشّرُ ألف مرة في اليوم الواحد حين أهلُّ عليه بالزي العسكري..أو حين تأخذني سيارة الخفارة إلى المعسكر..أو أحادث رؤسائي العسكريين حول خفارتي الدورية أو أيِّ شأن إداري..مثلما أنها لم تكن راضية عن دخولي إلى الكلية..أمِّي أيضاً لم يكن يروقها خروجي بهذه البزة العسكرية الغريبة بالرغم من لمعان النجمة على كتفي..كانتْ تأمل أن أكتفي بتخرجي من الكلية شريطة أن أتولّى بالمعسكر عملاً لا علاقة له بالحياة العسكرية..

ماذا لو لم أكن ضابطة ؟..ماذا لو كنتُ بطلةً أولمبية تزاحم على البطولة العالمية وفي لباس رياضي أو في ثياب السباحة!..كانوا عندها يخلعونني..

حتى عمتي نزهة لم تعُدْ تقابلني بنظرة الإعجاب التي كانتْ تُحيطني بها في ما مضى..صرتُ في نظر الجميع - ودون استثناء -عشبةً ضارة..نبتة شيطانية..فتاةً مارقة تستهتر ليس بقيم العائلة فحسب..بل بقيم مجتمع بأسره..كل ذلك بعد أن شاع بينهم أن العذريةَ أمرٌ لا ينبغي أن تتمسّك به طالبة الكلية العسكرية بفعل التدريبات القاسية داخل الكلية..وأن عليها

أن توقِّعَ على ذلك في أوراق الكلية منذ أول لحظة دخولها الكلية !..هكذا أشيع..وهكذا أراد الجميع تصديق ذلك !..لا تزال إشاعةُ فقدِ عذريتي حتى اليوم..حتى الغد..لا تزال كذبةً تسمَّمُ عقولَ الكثيرين !..

كيف أقنعهم أن ذلك لم يحدث يا كاملة!!..

وحتى إن تمكّنتُ من إقناع أفراد عائلتي بعدم صحة هذه الأراجيف..فكيف لي أن أُقنع مجتمعاً يقتات على الإشاعة لئلا يصدقها!..خاصة إذا كانت تتعلَّق بالأنثى التي يمثل شرفُها قضيةَ حياة أو موت..وأنه مثلَ عود الكبريت..لا يشتعل إلا مرة واحدة كما يردد المتحذلقون كلما جيء بسيرة الشرف..وأن عودَ الثقاب المزعوم لا يشعله إلا العريس سعيد الحظ في الليلة الموعودة !

ظننت يا كاملة أنني أستطيع أن أتكيَّفَ مع عالمي الجديد..وأنني سأفرض عليهم أنا ومن معي من ضابطات سياسةَ الأمر الواقع..وأن المجتمعَ عليه أن يتقبَّلَ هذه الأنثى الضابطة ضمن المهمَّة التي لا يصلح لها إلا الرجال!..لكنّني لم أستطع حتى إقناع نفسي بعدها..فما تلقيته في الكلية العسكرية لم أجد بعضاً منه في حياتي العملية بعد التخرج..

صرتُ كَلاًّ على الجميع..والدي..والدتي..عائلتي..والدولة أيضا..فلعنةُ العذرية وقطفها أو فقدها خلال التدريبات القاسية ما زالت تلاحقنا جميعاً..ألا يمكن لي أن أنسى هذا الأمرَ لمرة واحدة فقط ؟..

في المعسكرات أيضاً لا نلقى كضابطات ما يلقاه زملاؤنا الذكور من تقدير واحترام أو تراتبية عسكرية كما تقتضيه الجندية..كان الجنود الأدنى رتبة يستكثرون علينا التحيةَ العسكرية،ويؤدونها بطيب خاطر للضباط الرجال..ليس ذلك فحسب، بل كانوا يلغِّمون أسماعَنا بألفاظ مملوءة شبقاً وسخرية..كلما مرَّت إحدانا أمام جمع من الجنود يرين عليهم صمت.. يتبادلون حركات رؤوسهم فاغري الأفواه..وحين تقترب أكثر يتفرقون مبتعدين وهم يتهامسون..

وهذا ما كان يثير حنقي يا كاملة..

ولم يكن بدٌّ من ترك الجندية للذكور الذين باركهم المجتمع ولا يرى سواهم يبنون الوطن..أمّا المرأة فلا تصلح في نظرهم إلا لتدريس البنات في مدارس البنات..ولا شيءَ تجيده غير ذلك !..وكان عليَّ أن أضحي بأحلامي..تضحية فتاة مثلي بأحلامها بمثابة إعدام مؤجل يا كاملة..ماذا أفعل بها سوى التضحية بها!..أصبح للتضحية معنىً جديد في قاموسي... كنتُ أموتُ بالتقسيط يا كاملة !..شيئا فشيئاً أحتضر!..

وبعد ما أدركتْ الدولة فداحةَ ما أقدمتْ عليه من فتح أبواب الكلية للفتيات في مجتمع ما زال ينظر لهنَّ بعين الريبة،تخلَّتْ عن تمسُّكها بالمدة المفروضة على ضابطات الجيش وتنازلت عن حقها في ذلك..فأفسحت الفرصةَ لاستقالة مَن تشاء الاستقالة..

وكان أن استقلتُ من الكلية..غير آسفة على اتخاذي هذا القرار..لكن الكلية العسكرية صارتْ تاريخاً يلاحقني وسَوأةً لا قِبل لي بمواراتها..

أنهيتُ سنواتي السوداء وأيّامها النحسات في الجيش..عُدتُ منها خاليةَ الوفاض والقلب الرأس!..ووقر في رأسي أنني لا أصلح لعمل شيء سوى انتظار أمير يردفني خلفه على صهوة جواده ويأخذني بعيداً إلى قصره الأسطوري..ولستُ على يقين أنه سيعجبني ويأخذني من عيني ومشاعري.. يساكنُني عالَمي الخيالي الذي ظللتُ أتخيَّلُه على مدى سنوات عمري المظفورة بالأمنيات صعبةِ التحقيق..

أكثرُ الشامتين بوالدي كان عمِّي شعيب..وأكثرَ المنتصرين عليه..كنتُ أرى هزيمةَ والدي في عينيه وفي رجفة صوته وربكة حواسه كلما جمعهما مؤتمر عائلي..وابنَه نوح الأحول ذا الأسنان الصدئة والصوت الجهوري المزعج الذي كان يبذل جهداً إضافياً للفت انتباهي منذ كنا صغيرين..

نوح ذاك الديكُ المنفوش الذي كان يتكلم مثل دمية..أثبتَ أنه نذلٌ من أسوأ الأنواع، وما انفك يشيع في محيطه أنه رفض عرضَ العائلة بالزواج منِّي حين أعلن والدي عن رغبته في مصاهرته..متعلِّلاً بأنه يأنف الاقترانَ بفتاة فقدتْ عذريتَها في ظروف غامضة !..لكن ما حدث هو غير ذلك تماماً : فقد أشارتْ عليه عمتي نزهة بتركي وشأني حين أراد تدخُّلها لقبولي زوجة له، وقد رفضتُ طلبَه بقسوة أثارت حنقَه..

عمتي أم العزّ..لا أظنُّ أن لسانَها كفَّ عن مضغ سيرتي أمام مخلوقات الله جميعهم..نكاية في تلك (الكاباوية) الغريبة التي حازتْ قلبَ أبي دون نساء العائلة..فقد كانت أم العزّ تمدُّ عينيها نحو والدي..ويقولون إنها فضّلتْ أن تعيش عزباء، بعد أن فضّل أمي عليها..

التحقتُ بوظيفة إدارية بإحدى الإدارات التقليدية..لكن لقب الضابطة لم أستطع التخلُّص منه وسط مجتمع يلصقُ بكل اسم لا لقب له لقباً يموت به ويرثه عنه أحفادُه وذريتُه من بعده!..

ووجدتها فرصةً مواتية للهروب إلى الكتاب ومتابعة الصحف والمجلات ومن ثم اللجوء إلى أوراقي أدسُّ فيها ما تفيض به مشاعري المكلومة وما أتاحه لي إطِّلاعي وهوسي بالقراءة منذ معرفتي بالكتاب..لكنّي لم أكن أطلعُ أحداً على خربشاتي الخجولة..كنتُ أفضِّلُ إبقاءَ موهبتي سرّاً..خوف الفشل والسخرية والإحباط..إذ كنتُ أعدُّها دون المستوى..وفي البدء لم أكن لأصغي إلى نصائح من حولي بإرسالها إلى الصحيفة المحلية التي تخصص ركناً لكتابات القراء..

وكان يا كاملة أن تجرأتُ يوماً بعد أن ضقتُ ذرعاً بها فرغبتُ في التخلُّص منها..وبعثتُ بمحاولاتي للصحيفة..وكم كانت غبطتي حين وجدتُ من ينفخ في كلماتي روحَ الأمل ويتلقّفُها بذات اللهفة والشوق..

ومنها التقيتُه !..

رجلٌ أنعم الله عليَّ به..احتضن كلماتي..أَحبَّها..انشغل بها..زيَّنها لي..جعل منها أبنيةً شامخةً تطاول السماء..ليس هذا، بل كرّس قلمي ملكاً لجمال الأقلام..عرفتْ مقالاتي طريقَها للقرّاء..وجدتْ من الإعجاب حدَّ غروري..

كان يا كاملة يمثِّل لي انفجارَ الصبح..انبثاقَ النور داخلي..حين وجد شيئاً من موهبة السرد والاحتفاء بالحكاية وميلاً إليها وجَّهني صوبَ كتابة القصة..يمسك بلطف قلمَه الأحمر..يخوض في ثقوب مقالاتي يرتِّقها دون كلل ولا ضجر..ولا يأس..

كان في إمكانه إذاعة ما يتآمر النقّاد على كتمانه تبجّحاً وانتفاخاً..لكنّه أبقى ذلك بيني وبينه..ظل يقودني إلى عوالمها الخفية المدهشة..ويضع يدي على الكثير من صيغها ويدّلني على روّادها ومبدعيها..أباح لي من مكتبته ما يُرضي نهمي للقصة..كان في كل زيارة يحضر لي معه روايةً أو مجموعة قصصية أو دراسةً أعجبتْه..وضع عيني على مَواطن السحر والجمال..

وحين بدأتُ الكتابة..ظلّ يتغاضى عن بعض هفواتي اللغوية والإملائية..كان يقول لي إنني سأتجاوزها تدريجيا ما دمتُ أصرُّ على كتابة القصة..ومثلما استطعتُ استيعابَ الكثير من أسرار اللغة وفن القصة وترويضها تمكنتُ من تقديم نماذجَ وجدتْ استحساناً وقبولاً أرضى بعضاً من طموحاتي..

شيئاً فشيئاً استطاع ترويض حماقاتي وكبحَ جماح عنادي..وطالما كنتُ أسأل نفسي : لو عثرتُ عليه قبل ذلك..هل كنتُ أجازفُ بدخولي الكلية العسكرية؟!..هل كنتُ أقفُ في مجابهة رجال ونساء العائلة وأفتح على نفسي كوّةَ كُرهٍ لا قِبلَ لي بها..

و...صدرت مجموعتي القصصية الأولى بعد أن قدّمها لي حبيب العمر..احتفى بي وبإنتاجي الأول..وقد كان رفيقاً بكلماتي إلى أبعد حدود الرفق..

لقد أُعجب بحروفي..لكنني لا أعرفُ كيف بدأتُ أُعجب به يا صديقتي!.

منذُها يا كاملة..وقعتُ في غرام حنانه وسعة أفقه وسبحت في فلكه..لم أتمكن من الفكاك منه..كان تفضحني مشاعري بمجرد التفكير فيه..عندما ينظر نوح ابن عمي يراه في عيني فيموت كمداً..كنتُ أكتم الفرحةَ الشامتةَ داخلي..أشقُّ عيني وأردم السرَّ فيها كي لا يراه أحدٌ..

لكنه مات يا كاملة..مَنْ بعده سيعلِّمُني العيشَ وحدي ؟.

رحل..ترك حزناً لا شبيهَ له ولا قدرةَ لأحد على احتماله..ترك كل ما يخصه..ابتسامته..طريقة حديثه..جلسته قبالتي..مشاغبته لي..وبعضَ أوراقه..كان قد استودعني أوراقاً أنشأ فيها قصةً قصيرة لم يكملها..قال ساخراً : إذا لم أعُد لأي سبب أكمليها..اختاري لها موقفاً ونهاية من عندك..وانشريها باسمي..فسأكون مسؤولاً عن كل عبارة تكتبينها بعدي!..انزعجتُ..وضعتُ أوراقه في يده..صارحته بانزعاجي من هذه المزحة الثقيلة..ضحك..صالحني بابتسامة طفلة..أعاد لي أوراقَه..وها أنا ذي أتجرأ على اقتحام خياله لأكمل ما بدأه في أوراقه الغالية..

مات..ولم يكن يريد أن يصمت يا صديقتي..الصمتُ يعني عدم الكتابة..وهو الموتُ بعينه..

هل تدرين شيئاً يا كاملة ؟!..

واجهته مرة..قلتُ له : سيدي أرجوك لا تخفْ أن تقول أنك تحبُّني..
فلا علاقة للحب بالعمر الذي بيننا..لكنني لم أدركْ حينها أن العمرَ ليس هو المانعَ بيننا..بل هاجسٌ آخر..حين غاب وعاد في كفن..

وحين مضى النعشُ يمشي مكسورَ الجناح..بكى الجميعُ يا كاملة..إلا أنا..
لم أدرِ كيف نبتت في جوفي عشبة صبر خرافية..قبل أن يشدّوا على يديَّ وأشدُّ على أَيديهم معزيةً..خبأتُ خصلةَ شعره بين طيات ملابسي..دفنتُه داخلي..

(٤١)

صاحت هدى بانفعال :

– لماذا فعلتِ ذلك ؟..لماذا رفضتِ أن تُطلعيني على الرسالة التي أرسلها إليَّ محمود ؟..ولماذا لم تخبريه بالرسالة التي أردتُ أن توصليها إليه..

بكت أمينة قائلة :

– سامحيني يا هدى..

قالت لها هدى وقد استفزتها العبارة :

– أسامحك !!..لقد كنتِ دائماً الصديقة الوحيدة..بل كنتِ أقربَ إنسانة لديَّ..منحتكِ ثقتي..أطلعتُكِ على أدقِّ أسراري.. وصممتُ على ألَّا أفارقك بعد زواجي ولا تفارقيني..

– لقد تمكنتْ الغيرةُ من قلبي..جعلتْني أُقدم على ما أقدمتُ عليه..

نظرت إليها هدى بدهشة قائلة :

– الغيرة ؟!..

- نعم .. لقد عشتُ دائماً محرومة..عشتُ في بيئة يسودها البؤس والحرمان..تعلمين كيف مات أبي..تركني صغيرة في كنف زوجته التي لم ألقى منها سوى القسوة والشراسة..أمي لم تكن بجواري ألجأ إلى حضنها.. بعد ما حدث لها ما حدث..وما نالها من شائعات..غادرت المدينة وتزوجت من آخر..تركتني ضمن ما تركتْ وراءها..

عندما تصادقنا على مقاعد الدرس..ظننتُ أن ظروفَنا متماثلةٌ يا هدى.. لكنكِ كنتِ تتميزين عنّي على الدوام..بجمالك.. بحضورك..بحب المحيطين بك..ثم بحب محمود فاضل وتعلُّقه بك..بالظروف التي كانت أفضل نسبياً من ظروفي التي كنتُ أعيش في ظلها..

كنتُ أتعذَّبُ وأنا أسمع وأرى تلك العاطفةَ القوية التي نشأتْ بينكما واهتمامه الشديد بك..ولا أجدُ من يوليني بعضَ اهتمام يحسِّسُني بوجودي.. حتى عندما كان يلتقي بك وأنا معك..كان ذلك يشعرني دائماً وكأنني غيرُ موجودة على وجه الأرض..أنتِ كذلك كنتِ تنسين وجودي تماماً معكما.. لا تأبهين لي..سواءً ظللتُ واقفةً أنتظركِ أم أتركِ لأنصرف..كنتُ أتلظَّى بمشاعر الإهمال والألم..

كرهتُك وكرهتُه..كرهتُ المدينةَ كلَّها بمَن فيها..

قالت هدى وهي تنظر إليها غير مصدقة :

- لم أكن اعرف أي شيء عن مشاعرك هذه ..

– ولم تكوني لتعرفيها وأنت محاطة بكل هذا الحب والاهتمام..لم تجربي ألَّا تجدي من يوليك اهتمامَه ويشعرك بوجودك على قيد الحياة !..لم تجربي أن تعيشي في حرمان يضيق عليك الخناق..وأن تقاسي هذا البؤس..

– لكنني قدمتُ إليك صداقتي..كنتُ بمثابة الأخت..لم أضنَّ عليك بمودّتي..

طأطأت أمينة رأسَها في ذلّ..فيما واصلت هدى حديثَها بمرارة:

– كل هذا لا يبرر ما فعلتِه لي ولمحمود من شقاء وألم..

تهالكتْ أمينة فوق أقرب مقعد :

– ليس هذا..لقد أخبرتُ محمود في لحظة ضعف أنك تختفين وراء اسم ميسون!..

اتسعتْ عينا هدى فزعاً :

– ماذا ؟!..وشيتِ بي يا أمينة ؟!..ألم نتفق....

غصَّت هدى ببقية الجملة ولم تكملها..في حين امتقع وجه أمينة..تصمت في قهر..قالت في انهيار :

– أعتذر ..

– وماذا يفعل اعتذارُك ؟..

– عرفتُ الآن سببَ عدم ردِّه عليَّ في الصحيفة..وانقطاع مقالاته التي كان يردُّ فيها على مقالاتي..لكن لماذا يا أمينة ؟..سألتْها هدى بتشنُّج..

– إنها الغيرةُ ولا شيءَ سواها..قالت أمينة منكِّسةً رأسَها..

– وما علاقة الغيرة بمقال في الصحيفة ؟!

– صار القراءُ يتابعون ردَّ محمود على مقالاتك التي كنتِ تبعثين بها للصحيفة..وميسون نالت من الشهرة ما يجعلها محطَّ إعجاب القراء..هو أيضاً لم يشأ أن يتكرم عليك بهذه العداوة !.

– إن حقدَك وغيرتَك هما اللذان جعلاك تخونين الأمانةَ التي حمّلك إيّاها كلٌّ منا..وتتسبَّبين في إبعاد كلٍّ منا عن الآخر..لأنك كنتِ ناقمةً على هذا الحب وتتمنَّين من أعماقك أن ينتهي ويتحطم..

سادتْ لحظةُ صمت بينهما قطعته هدى بهدوء مفتعل :

– والغريب أن اسمَك أمينة يا رفيقتي !..

– لقد دفعتُ ثمنَ فعلتي..دفعته من عذاب ضميري وإحساسي بالذنب..إن الحقدَ شيءٌ كريه..فظيع..وحشٌ يتغلغل في أنفسنا..وحشٌ لا نستطيع التغلبَ عليه أو إبعادَه عنا ما دمنا قد سمحنا له أن يتسلَّل إلى صدورنا فيعشِّش فيها..ذلك الحقد يدفع المرءَ إلى كراهية الآخرين، والعمل على إيقاع الأذى بهم..وقد ينتهي إلى أن يكره المرءُ نفسه..ودائماً ينتهي بإيذاء صاحبه ..

انهارت أمينة ولم تعُد تعي ما تقول..حضنتها هدى بقوة..وأسندتْ رأسها فوق كتفها تنهنهان في حرقة..

(٤٢)

تمكّن عزّتْ زغلول من الفراغ طباعة رواية محمود فاضل في وقت قياسي.. وقد رفض سعيد اختيارَ اسم للرواية وطلب من ناجي وضعَ اسم مناسب لها بحجة أنه هو أكثرُ الناس قَرباً للرواية..إذ عاش فصولها فصلاً فصلاً حين كان يستلمها أولاً بأول من محمود أثناء مرضه..وقام بعد ذلك بطباعتها على جهازه وحفظها مطبوعة..وهو إضافةً إلى كونه أستاذاً جامعياً في التاريخ أديباً يكتب القصة والمقالة والخاطرة إلى جانب الدراسات التاريخية المتخصصة..

عندما عُرضتْ على محمود (بروفة) الرواية في ثوبها النهائي وباسمها الذي اختاره لها ناجي..انفرجتْ أساريرُه ارتياحاً..تناولها بين يديه..تمعَّن في اسمها..بدا عليه الامتنانُ والرضا..استدار نحوهما يلهج بعبارات الثناء والشكر..مرَّ على صفحة الإهداء التي كانت آخر ما كتبه في الرواية..توقَّف عندها لبرهة..اعتدل جالساً على السرير..ظنَّ مَن حوله أنه سيغيِّر فيها شيئاً أو يضيف عبارةً أخرى..تأطّرتْ عيناه الغائرتان بابتسامة مريحة وهو يضمها إلى صدره..شرد ببصره إلى الأعلى..

– ليست الحياةُ مثالية..لكنني سعيد !..هذا ما أنا عليه !..

قالها..ثم تمتم بكلمات ضجَّتْ بها أعماقه لم يفهمها مَن حوله..مدَّ يدَه بها إليهم دون كلام ففهموا مقصدَه..زرعوا عيونَهم في كلمات الإهداء..أعادوا قراءتَها مجدَّداً..هزّت العبارةُ سعيداً الذي ظلَّ يبحث في ثنايا ذكرياته عن هذه التي قدَّم إليها صديقُه روايتَه..هو يعرف كلَّ صديقاته اللاتي مررنَ به..ومَن رضي بسكناها في قلبه أو بجواره..في كل مرة كان يخبره عن كلِّ صديقة اعترضتْ مسار نبض قلبه أو سمّرتْ عينَه نحوها..لكن مَن هذه التي أهداها ثمرةَ قلمه وفكره؟..من تُرى تكون؟..من هي هذه التي ظلَّ محمود يخبئها بعيداً عن أقربهم إليه..يدَّخرها قلبُه دون غيرها؟..أم تراها وهماً لا حقيقةَ له ؟..

بعدها اتفق الجميع على عدد النسخ وكيفية إيصالها إلى ليبيا وطريقة تسويقها..لكنهم أسندوا هذه المهمة لعزّت عزُّوز الخبير بهذه الأمور..فهو صاحبُ مكتبة كبيرة في الإسكندرية..فيما تكفّل سعيد بتوزيع نسخ منها في مدينته اجدابيا بعد نشر إعلان عنها في مواقع التواصل الاجتماعيِّ وطبع ملصقات دعائية عنها وإلصاقها على المكتبات..ثم عقد ندوة عنها يدعو فيها معظم أصدقاء محمود من المثقفين والفنانين والمهتمين بالشأن الثقافي..وعرض نسخ منها للبيع..

وقرَّ قرارُهم على هذه الإجراءات على أن يسافر سعيد وناجي بالدفعة الجاهزة من النسخ إلى أرض الوطن..ويبقى محمود في رعاية مستشفى سموحة..

(٤٣)

..وانفصلنا..

في لحظة نفد فيها صبرُه رمَى عليَّ يمين الطلاق..وذلك ما لا مزاحَ فيه!.. عبثاً حاولتْ الأسرتان إبطالَ هذا القرار واحتسابه كما أفتى لهم أهلُ الفتوى طلقةً من طلقاتٍ ثلاث..وأنه يمكنه مراجعتي..لكنني وجدتها فرصةً قد لا يمكن تعويضُها..وأن هذه البقرةَ الحلوب إذا رجعت للحظيرة فلا أحد يعلم متى تخرج منها !..لم تكن هذه المرةَ الأولى التي أغادره إلى بيت أهلي..وكنتُ في كل مرة أعود إلي بيته كأن شيئاً لم يحدث..لم أعرف كُنهَ بنود المفاوضة التي كنتُ بموجبها أعود إليه!.. لكنِّي أعود مثلما تعود النساء!..

لم أرجع له..ولم أرضخ لضغطهم المتواصل..لكن ما أراح أسرتي وتحت إلحاحي بالطلاق وشجعني عليه أني لم أُنجبْ منه..الأمر الذي جعل زوجي يظنُّ إني امرأةٌ عقيم لا فائدةَ من كسبها..وما زال هذا الظنُّ يزعجني.. لكنِّي لن أكون عبئاً على أهلي..فهذا المرتب المجزي والمزايا الأخرى تكفيهم مؤونتي !..

بالرغم من تردُّده على أهلي ومحاولة إرجاعي قبل انقضاء العدَّة لكنني لم أهتمَّ لنداءاته..وقد ازداد قلقه حين علِم بموافقة إدارة الجامعة على تكملة رسالة الدكتوراه..وأني قد أسافر إلى مصر في أي وقت..

أخي عقيلة كان أكثرَ المؤيدين لقراري لاعتقاده أنه سيستفيد من وجودي في بيت أهلي وسيكون في إمكانه استثمار مرتبي في مشاريعه التي تؤول دائماً إلى الإخفاق..

أبي استفزتْه فكرةُ الطلاق..فظل يقنعني طوال الوقت بالعدول عن قراري..لكن دون جدوى..أعلنتُ له صراحة أنه ليس الرجلَ الذي يمكنني التعايش معه..وأني لا أريد أن أربط حياتي بشبه حياة معه..وحين رأى عزمي على القرار، وأنه لا رجوع إلى بيت الزوجية البائس..ولا مناصَ من الطلاق..رفع رايةَ الاستسلام..

زوجي وعندما أعيتْه الحيلةُ وفقد أهمَّ أوراق الضغط التي يراهن بها وهي محاولات والدي..اضطُر لتسريحي وإتمام إجراءات الطلاق في وقت قياسي..ليس من أجلي طبعاً، ولكن من أجل والدي الذي كان غالباً ما يقف في صفه كلما حدث صدام بيني وبينه..إذ كان يُرغمني على العودة إلى بيت الطاعة في كل مرة..وقد تأكّد له أن قراري لا رجعة فيه..ولن تفلح تدخلات أبي بيننا وأن (الماء والملح) قد خفَّ بيننا إلى الدرجة التي تنازلتُ عن جميع حقوقي ومؤخر صداقي في سبيل فك ارتباطي به..

هو أيضاً عدَّ الأمر انتقاصاً من كرامته إن تمسَّك بي..ولن تسمحَ له رجولتُه أن يتشبَّث بزوجة عقيم لا ترغب في تكملة حياتها معه..وحتى إن لم

يستطع أن يستحوذ على قلبي..إلا أنه استطاعأن يحتفظ بي زوجةً طوال هذا الوقت!..لأنه يعرف جيداً أنه لا يمكن لي أن أستسلم بسهولة ولو ملأتُ له البيتَ أولاداً..وبتُّ أدرك أن ثمة شكاً يخامره أن هناك من استطاع التسللَ إلى قلبي ولم يغادره بعد !.

طلَّقَني !..

هكذا كانتْ الإجراءات أمام قاضية الأحوال الشخصية..رمى يمينَ الطلاق بحضور أبي..أحسستُ براحة عظيمة تتخللني وأنا أستقبل نبأَ طلاقي..بدتْ لي فرصةٌ في استرجاع حياتي السابقة..تمكنتُ أخيراً من الفرار من القفص..

ضحكتُ حين مرَّتْ بخاطري غناوة لأحدى عجائزنا يوم زفافي تقول : (راهي حمامة برج..اتطير كان ما داجيتها)!..لقد طارت حمامةُ البرج يا حنِّي العزيزة!..لم يتمكّن من (مداجاتها) كما ينبغي فغادرتْ العشّ!..

ثمة من يقول إن المرأة تُمضي جزءاً من عمرها تبحث عن زوج تأوي إليه..لكنها تُمضي بقية عمرها تسأل نفسها لم اختارتْ ذلك!..وقد يكون هذا ما حدث معي..

(يالعين بَيَّن فيك..عشم قديم في ناساً اقدِم)[1]!..

كم هي عالقة في تلافيفي هذه الترنيمة!..أحسُّ أنها تعنيني..لستُ أدري..لعلها لعنةٌ ظلَّت تلاحقني منذ أن تخلّيتُ عن زميل الدراسة حسن..

---

(١) (غناوة علم) شعبية .

أو عدم اكتراثي بابن الجيران ضيِّق العينين..أم إنه ترْكي لمحمود فاضل.. وهاهو آخر الرجال في حياتي أخلعه راضيةً وأتحرَّر من ربقته..لكن ما يبرر لي ذلك بيني وبيني أني فعلتُ ذلك طائعةً مختارة.. تكتنفني قناعة عظيمة أنني كنت على جانب من الصواب..فحسن لم يكن لينهزم..فقد اعتاد بحكم بدويِّته أن يُصدرَ الأحكام ولم يصدر ضده حكمٌ..وأن كلَّ أفكاره وقراراته يجب أن تُنفَّذ..كان رفضي له بمثابة حكم عدّه قاسياً..كان طبعاً – ككل الرجال – قادراً على أن يغرق كلَّ حُجَجي بحيثيِّات الإقناع التي يتقنها..

أمَّا ابنُ الجيران فقد كان يتلبَّسه طيشٌ وغفلة وتهوّر..ارتبتُ في عقله.. وتيقّنتُ أنني سأصطدم به ليلةَ الدخلة..فرفضتُ طلبَ أخته التي جاءت لجسِّ النبض..ومحمود فاضل بكل ما فعله من أجلي وما أحاطني من عناية وجهد إلا أنه استبدلني بصديقته الشاعرة..أحسستُ أنه يريد امرأةً غيري تتفوَّق عن الجمال بموهبة فذة لا أمتلكها..فانسحبتُ بما بقي لي من كرامة من ساحته مبكراً..

يظهر أننا في مسيس الحاجة إلى مزيد من التجارب..لأننا ما زلنا نحن الضحايا..أعني المرأة..يتخذها الرجلُ دائماً لعبةً لا يفكّر فيها إلا تحت ضغط العبث واللعب !..تماماً كما يفكر الأطفال في ألعابهم !..

بعد كل ذلك كان عليَّ الاستعداد للسفر واختيار الجامعة التي سأسلمها أوراقي..الأمرُ الذي جعلني أقتربُ أكثرَ من عقيلة بالرغم مما بيننا من اختلاف ومناكفات..هو تقارب مصالح إذن!..أنا سأجد في عقيلة مَحْرماً يصحبني..أستظلُ بظلِّه في سفري إلى مصر..وهو سيظفر برحلة مجانية

مدفوعةِ التكاليف وفوقها مكافأةٌ مقطوعة وعدتُه بها عند العودة..وإلى ذلك فهو في نظر العائلة الحارس الأمين لشقيقته الأنثى الضعيفة..الأمرُ الذي يبدو معه الفارق يزداد نموّاً بين ظلِّ الرجل وظل الحائط !..ويجعلنا نحن النساء نتشبَّثُ به إلى هذا الحدِّ المميت!..ومهما كان حجمُ هذا الظلّ !..فالرجل في البيت خباءٌ يستر المرأةَ ويحميها.. هكذا تردِّد عجائزُ العائلة.. وماذا يقول الناسُ عنّي وأنا أتنقّل في بلاد الله وحدي دون مَحرم ؟!..خاصةً وأني صرتُ مطلَّقةً لا رجلَ يعصمني.

(٤٤)

أفلحتْ جهودُ سعيد وكثيرٍ من أصدقاء محمود فاضل في إنجاح الحملة التي قاموا بتنظيمها خلال صفحات التواصل الاجتماعي والملصقات التي غطَّتْ العديد من جدران الميادين..من أجل تسويق الرواية الجديدة التي أكملها محمود وهو على فراش المرض..وما زاد في تقاطر الكثير على الندوة التي أقيمتْ على شرف الرواية هو وقوف معظم المؤسسات الرياضية والثقافية بالمدينة إلى جانب دعوة سعيد وأصدقائه وتعاطفاً مع كاتبها الذي يتعالج في مصر من مرض عضال..وأن تكلفةَ علاجه ستُدفعُ من مبيعات روايته..

وعلى غير العادة امتلأتْ قاعةُ المسرح بالكثيرين الذين توافدوا عليها منذ الإعلان عن موعد الندوة..فيما تحوَّلتْ الواجهةُ والممراتُ إلى معرض كبير احتوى على ملصقات وصور لمحمود مختلفة الأحجام وبأعمار متفاوتة.. وبعضاً من كتبه ومخطوطاته..وقد لفتتْ أبصارَ الوافدين عبارةٌ ملأتْ المكان،كُتبتْ بخطٍّ بارز ممهورة بتوقيعه تقول :

(كنتُ هناك ورأيتُ ذلك .. بقيَتْ كلماتٌ لم أقُلها .. أعرفُ أنَّكم تتحدَّثون .. فهل عندكم ما تقولون ؟!)..

انبعثت في أرجاء القاعة شبه المظلمة موسيقى خفيفة هامسة تمتص ضجيجَ الحضور..ولجت هدى وأمينة مع الوافدين إلى القاعة..كانت كلاهما ترتدي خماراً يحجبها..واتخذتا مكاناً قصياً انحشرتا فيه..

بالرغم من العتمة دسّتْ هدى عينَها في (الدرافت) الذي قامت اللجنة بتوزيعه تقرأ سيرةً ذاتيةً موجزة عن محمود فاضل وصورة له وهو في فراش المرض..وعبارات مُنتَخبة من روايته الجديدة..

تقاوم ببسالة غريبة حمَّى حزنٍ انتابتها وهي تمسح بعينيها الصورَ والسطور..غيرَ آبهة بهمس رفيقتها وفحيح همزها ولمزها..التفتتْ لتساؤل أمينة عن عتمة المكان..طوت المطوية ثم مَالتَ عليها تهمس في أذنها : إن الظلمة لا تخيّم داخل المسرح فقط..بل حتى خارجه..نظرتْ إليها رفيقتها في انشداه..لم تستوعب ما تفوهتْ به..أشاحتْ بوجهها عنها في تبرُّم..اكتنفها صمت..

لم يطُل وقتٌ حتى سطعت الإضاءة وانفرجت الستارة عن ملصق كبير زُيّن بصور وعبارات اجتهد منظمو الندوة أن يكون بمستوى الدعاية التي سبقتها..وإلى جانب المنصة تكدَّستْ صناديق الكرتون المنبعجة بالنسخ الأولى من الرواية..وقد رأى المنظمون أن يفاجئوا الحضورَ بافتتاح الندوة بأغنية لمحمود اختلسها بعضُ أصدقائه خفيةً عنه من تسجيل لجلسةٍ خاصة..وقف الحضور وصفقوا لها طويلاً..

انهالتْ كلمات الثناء والمديح تناولَ بعضُها مسرحَه وبعضها مقالاته وعموده الصحفي الأسبوعي وإسهاماته بالإذاعة المحلية ونشاطاته في المؤسسات الثقافية..

سعيدُ صديقُه لم يتناول شيئاً من إبداعه..بل كان شاهدَ عيان على صداقة امتدَّت لعمر طويل بينهما..الوجه الآخر لمحمود فاضل كما يعرفه..محمود الطفل الذي ظلَّ يتقافز داخله بالرغم من ثقل الأعوام وتواليها على كاهله.. تكلم عن حدَّته التي يحبونها.. وأعصابه التي رُكِّبتْ فوق جلده فيثيرها النسيمُ العليل..ولأنه يعلم أن رفيقَ دربه يعاني مرضاً شديد الوطأة علي صحته وأنه لا يزال يقاوم العلاج بالكيماوي، فقد انقطعتْ كلماته كثيراً وهو يسرد للحضور مواصفاتِ ذلك الكائن الذي حلَّ بقلبه وقلب أصدقائه المقرّبين..وقد وشى لسانه بعبارةٍ لم تستثنِ عين أحدٍ من دموع الحاضرين حين قالها باكياً : " محمود..بالنيابة عنا..نشتاق إليك جميعاً ".

– كأنه يرثيه !..قالت أمينة..

– محمود قصة تنتهي..معقول!!..همستْ هدى لصديقتها..

غصة اعترضتْ حلقَها في حرقة..قلبُها مسافر لا يصغي..لم تعُد تعي ما كان يدور في المكان من حديث وضجيج..

– يا ويلي!..هل أحببتُ يوماً أحداً بشدة؟..هل أحببتُ أحداً كفايةً لأقتلَه؟..اعذرني سيدي..غرّني وعدُك لي بأنك ستبقى تحبني..سوَّل لي غروري أنني لستُ محتاجةً لمن يدفعني للتعرف على نفسي..لم أكن أدرك أنني كنتُ أبحث عن نفسي طوال الوقت وأن كل ما أحتاجُه هو أنت..كان الحب يأخذني في متاهاته..لكني لم أرَني مُدمرةً لهذا الحدّ..وها أنت ذا على بُعد نجمةٍ من القمر..تذوي..ورفاقُك ينعونك لي..ليتهم لا يعلمون أنني كنتُ السببَ أو بعضاً منه !..

أدركتُ الآن – وبعد فوات الأوان – أن القلبَ الذي كنتُ أبحثُ عنه والروحَ التي كنتُ أنشدُها هما حقيقتان لا خيالان..فذاك القلبُ هو قلبُك وتلك الروحُ هي روحُك..وأنت حيثما كنتَ فإنك حقيقةٌ لا وهم..ولا يفوت الأوان في الحب أبداً..كما كُنتَ تقول على الدوام.

وما أن انفضت الندوة حتى تجمّع كثير من الحاضرين يتسابقون على اقتناء الرواية تضامناً مع دعوة اللجنة وإسهاماً في دفع تكاليف علاج كاتبها..في بادرة غريبة من نوعها..

انتظرت هدى ورفيقتها حتى خفَّ الزحام على اقتناء الرواية وتقدمت لشراء أربع نسخ..والتقت بعيني الأستاذ سعيد..اقتربتْ منه..مدَّت يدها تصافحه.. أبقتْ يدَها في كفِّه لتلفته إليها..

– أنا هدى منصور..هل تذكرني؟..

اتخذتْ ملامحه بعض الجديِّة..قال في حزم:

– أهلاً وسهلاً..المعذرة لم أعرفك وأنتِ ترتدين الحجاب..

سألته :

– هل يمكن أن أراك في المكتب غداً ؟..ثمة أمر يهمني الحديث معك بشأنه..

– نعم..بعد العاشرة سيدة هدى..أجابها سعيد في نبرة ذات مغزة..

شعرتْ بالامتعاض حين ضغط سعيد على كلمة سيدة وهو يجيبها..كأنه أراد أن يذكِّرها بصديقه محمود الذي كانت تتردَّد عليه حين كانت تدرس الماجستير..لم تشأ أن تخوض معه في حوار لا محلَّ ولا زمن له..

دفعت هدى ثمن النسخ الأربعة لكن سعيد ناولها ثلاثَ نسخ فقط.. وقبل أن ترفع حاجبيها استغراباً عاجلها بعبارة هادئة :

– إن كنتِ ستأتين لزيارتي غداً فسأعطيك نسخة خاصة بتوقيع محمود فاضل..

– حقاً ؟!..

– هي نسخٌ محدودة وضع عليها محمود توقيعَه وأوكلَ إليَّ مهمة إعطائها لمن أرى أنه يستحقها..

– وهل أنا ممَّن يستحقها ؟!

– يبدو ذلك سيدتي..غداً سنلتقي إن شاء الله..شكراً لدعمك..

عدتُ إلى البيت مُجهدةً أكاد أقع..لستُ أدري إن كنتُ حزينةً أو مريضة أو جوعانة أو أريد أن أنام..يلفُّني فزعٌ فظيع..لم أسأل أحداً شيئاً في البيت ولم يسألني أيٌّ منهم ماذا أريد..لم يدركوا لحظاتي التي تنتابني..اعتقدوا أنني ما زلت تحت تأثير انفصالي عن زوجي..وأن ثمة صحوة أليمة تحتلُّ عقلي بعدما حدث..

كلٌّ منا كان يخوض في شأنه !..

تسلَّلتُ إلى غرفتي..تأكدتُ أن لا أحد يقتحم عليَّ خلوتي..رميتُ الحجابَ في إهمال..تقدمتُ نحو خزانةَ ملابسي السابقة التي تركتها لأختي..أشرعتُ إحدى ظلفتيها..قابلتني صورةٌ لي رسمها محمود..قال إنه ترك الرسم منذ وقت لكنه عاد إليه فقط من أجل أن يرسمني..الصورة علقتُها بظهر خزانة ملابسي في حجرتي السابقة..كنتُ أنظر إليها كلما اشتقت له ولأيامي معه..

– سامحني..لا أعلم إن كنَّا سنلتقي..أو أنك تريد أن تلقاني أم لا..قلت أناجيه .

رميتُ عظامي على السرير..أخرجتُ إحدى نسخ الرواية من حقيبتي.. قلَّبتُ غلافَها المرسوم بعناية..أطلتُ النظر في عنوانها..(شيئاً فشيئاً أحتضر)..تذكّرتُ حديثَ سعيد عنه، وكيف أنه لم يختر اسمَها..سرحتُ بعيداً قبل أن أفتحَ أولى صفحاتها..ترى ماذا يقول فيها محمود هذه المرة..وعمَّ تتحدَّث !.

(عينان مرسومتان بالسواد تحت النقاب..ينام فيهما سحرٌ غامض..فأحياناً تكونان برَّاقتين كضوء النهار..وأحياناً مثيرتين كالمساء..إلى صاحبتهما المشاغبة شغبٌ يلمس حوافَّ القلب..أهدى هذه النبضات) .. محمود فاضل..

استويتُ جالسة..أفكِّر في هذه التي حازتْ شرفَ هذا الإهداء..ترى من تكون؟!.ولماذا ترتدي نقاباً تُخفي به وجهَها؟..للوهلة الأولى ظننتها عائشة تلك الشاعرةَ المتعجرفة المأخوذَ بقصائدها والتي قدَّم آخرَ دواوينها..لكنَّ عينيها ليستا بهذه المشاغبة ولا تخفيانهما تحت نقاب!..من هي هذه الأخرى التي انشغل بها قلبُه..ومتى كان ذلك؟!..

يا لَهذا الكائن !..لا يشيخُ قلبُه..لم يكبر الشابُّ في أعماقه..منذ سنوات المراهقة ظلَّ يحتفظ بعنفوانه !..ما انفكَّتْ العيونُ بأنواعها تأسره دوماً إلى ملكوتها..كان يقول إنه لا أحد محصَّناً البتّة تجاهَ عيني امرأة !.

السعادة التي كنتُ أبحثُ عنها طوال حياتي كانت أمام عيني..في متناولي..كان عليَّ ألَّا أدَعَها تفلت من بين يدي..وأنا أريد أن أراه..أيّاً كانت طريقة الوصول إليه..لن أعدمَ حيلةً في سبيل ذلك..ولا شيءَ أفضل من المواجهة..

(٤٥)

بعد ليلة غيرِ هادئة قضتها بدون نوم..حضرت مرتبكةَ الخطوات مرهقةَ العينين..استقبلتها السكرتيرة..جلستْ على طرف المقعد..عيناها تجوسان خلال المكان من تحت الحجاب تبحثان عن شيء يذكرها..

دخل سعيد..وجدها تنتظره..وقفت تصافحه..مدت إليه يداً بلا نبض.. مدَّ يدَه يصافحها وقد علَّق ابتسامة اعتذار:

– مع أن الاعتذار لا يعيد عقاربَ الساعة إلى الوراء كما يقولون !.لكنّي أعتذر..جعلتُك تنتظرين..

– لا عليك..لم أنتظر طويلاً..قالت في خفوت..

جلس قبالتَها ورنةُ حزنٍ لم تختفِ ما زالت عالقةً بحنجرته منذ الأمس لم تختفي..مرَّتْ لحظاتٌ من الصمت الثقيل قطعه سعيد بسؤال حاول أن يزيحَ به بعضَ التكلُّف..قال ممازحاً :

– ما شاء الله..لقد دفعتِ ثمنَ أربع نسخ بالأمس..يبدو أن مرتبَكِ يسمح لك بشراء كلِّ هذه النسخ..

وقبل أن تجيب..أردف سعيد :

– أعلمُ أنك الآن أستاذةٌ جامعية مجتهدة..صديقٌ لي بالجامعة أثنى عليك..قال إنكِ مثابرة..

– شكراً لك وله..لقد أودعتُ نسختين من الرواية بمكتبة الجامعة..صديقتي أستاذة اللغة العربية وعدتْني أن تجعلَها موضوعَ دراسة أو بحث تخرج لطلبتها الفصل القادم..أمَّا عن المرتب....

قاطعها سعيد :

– لا تأخذي كلامي على محمل الجِدِّ..كنتُ أمازحك..هل جرحتُ مشاعرَك؟..

– مشاعري لا تُجرح بسهولة أستاذ سعيد..تلك مرحلة تجاوزتها..لقد بذلتَ جهداً في الاحتفاء بالأستاذ محمود..

– محمود كائن رائع..صديق استثنائي ويستحق منّا أكثرَ من ذلك..

ثم أخرج من درج المكتب نسخةً خاصةً من رواية محمود ناولها إيَّاها..

– هذه من بين عشرين نسخة حملتْ توقيعَ كاتبها..بجهد استطاع أن يوقِّع عليها..أوصانا بمنحها لمن نرى أنه جديرٌ بها..

– أشكرك على كل ذلك..وممتنةٌ لاستجابتك لطلبي..

– على الرُّحب والسَّعة..

–لا وقت عندي أستاذ سعيد..خطفت رجلي من الجامعة كي ألتقيك..

– خيراً..

– تعلم أن الجسورَ قد نُسفت بفظاعة بيني وبين محمود..

قذفها سعيد بنظرة كالخنجر..ثم قال :

– أعلم أكثرَ من ذلك..أعلمُ أنك حملتِ كلَّ هذه الضغينة عليه طوال هذا الوقت!..لم أتصوّرْ يوماً أن محيطاً من الحب يتحوَّل إلى صحراء من الكراهية!.

سكتتْ هدى..لم تُحرْ جواباً..نكّستْ رأسها..قال ساخراً:

– أستاذة هدى..ثمة من يقول: إذا حقد عليك شخصٌ فاذكر أن جدَّك قتل أباه !..لقد كنتِ سبباً في شرخ كبير في أعماقه عانى منه كثيراً..ولا يمكنني أن أتغاضى عن فكرة كونك سبباً في ذلك..أقلّ ما يمكن أن يقالَ أنكِ كسرتِ قلبَه..

–كسرتُ قلبَه!!..

– نعم..لا أشكُّ مطلقاً في ذلك..

– أنا من يجب أن يعتذر له إذن..

– اآلآن أستاذة هدى ؟!!..

– لم يكن أمامي خيارٌ آخر..أريد أن أعتذر منه فقط..أنا فعلاً آسفة..أحتجتُ لوقتٍ طويل لأعترف أني مخطئة..

– محمود ليس له وقت ليعيش يا سيدتي..قال محمود بحزن..

شهقتْ هدى بصوت مسموع..وضعتْ رأسَها بين يديها..لفَّ المكانَ صمتٌ رهيب..قطعه سعيد بنبرة فيها الكثير من العتاب..

-كان يثني على ذكائك وسعة أفقك وطموحك الذي لا حدَّ له..لكنك استخدمتِ محمود لتحقيق أحلامَكِ سيدة هدى منصور..

- مطلقاً..لم يحدث شيءٌ من ذلك..لقد أحببتُه بكل ما استطعت..وبكل ما كان في قلبي من حبّ..هو يعلم ذلك..

- واضح !..والدليل ما أصاب قلبَه من خذلان!..ردَّ ساخراً..

- هذه قصة أخرى أستاذ سعيد..لا يسمح الوقتُ لسردها..ما عليك معرفتُه أننا كنّا ضحيةَ خديعة ماكرة..لا يقدر الشيطان عليها بمفرده!..

- وماذا في استطاعتي حيال ذلك؟..هل تريدين مني إيصالَ اعتذارك له وهو يموت ؟..

- لا.. هو لا يموت..أنتَ تبالغ..لعلكم تبالغون في وصف حالته..

- لكنَّ مرضَه عضالٌ سيدة هدى..أُقسم على ذلك..

- وما نوعُ مرضه ؟..

- لو قلتُ لكِ أنه يتطلب علاجاً بالكيماوي هل تدركين نوعَه ؟..

وقعتْ الكلمة على سمعها مثل الصاعقة..ذابت في كرسيِّها.. تشنَّجت يداها فوق ركبتيها..ترقرقت عيناها بالدموع..لم تجد كلاماً تقوله..ضغط سعيد على الجرس..حضرت السكرتيرة..طلب كوبَ ماء..لهدى..شربتْ جرعةً.. هدأت قليلاً..

- أعتذر سيدتي..لم أقصد نكأَ جراحَكِ..لكنها الظروف التي تعاندنا.. هو حتى اليوم بخير..اتصلت منذ قليل بالمستشفى التي يُعالج فيها..

– أرجو ذلك..حسناً أستاذ سعيد..جئت لزيارتك لتعطيني رقم هاتفه في مصر..أرجوك..

– ليتني أستطيع أستاذة هدى..لقد طلب الطبيبُ المعالج سحبَ هاتفه الجوال..ومنعه من الاتصال نظراً لظروفه الصحية..كان كلما اتصل بالوطن وبأهله بكى حتى الإغماء ..

– لا بأس..إذن أريد أن أراه هناك..أعطني عنوانه في مصر..أرجوك..

– تذهبين له هناك ؟!..

– أعلمُ أن الأمر يبدو جنوناً..راودتني الفكرة منذ البارحة..أنا متفرغة من الجامعة وأعدُّ لرسالة الدكتوراه..وقد اخترتُ إحدى الجامعات المصرية..ستكون فرصةً عظيمة كي أراه..

– ولكن كيف ؟!

– سيكون أخي معي هناك..هكذا اتفقنا..

– وزوجُك ؟!..ألستِ متزوجة ؟..

– لم يعد لي زوج..أعني لم أعُد زوجتَه..أرجوك ساعدني هذه المرة..أريد أن أراه..إن فاتتْني رؤيتُه فلا أضمن ماذا يحدث لي أنا الأخرى..

– حسناً..لا مشكلة..

– بقي طلبٌ صغير..لو سمحت لي..

– تفضلي..

–هل لي أن أدخلَ مكتبه لآخر مرة..

- لا بأس ..أقدّر ذلك..

- أستاذ سعيد لا يسعني شكرك على صنيعك..في هذا المكان التقطتُ الحَبَّ من يده أولَ مرة..

- والحُبَّ أستاذة هدى !..

-نعم..والحُبَّ أستاذ سعيد !..

(٤٦)

أقسمتْ كاملة تقول إنَّها لم ترَها في كامل بهجتها مثلما كانت تلك العشية.. كانت على غير عادتها..تبرَّجتْ..وضعتْ شيئاً من زينة على وجهها..غيّرتْ طريقة مشط شعرها..بدتْ أجمل..لبستْ فستاناً ضمَّخته بعطر فوَّاح لم أشمّه عليها من قبل..كانتْ تتمخطربه أمامي..قالتْ إنها المرة الثالثة التي ترتديه منذ أن نال لونُه الأزرقُ من عين حبيب القلب..جعلتْ تتباهى به وتحدِّثني عنه كثيراً..لم أدرِ عن أيِّها تتحدَّثْ عن (غاليها) أم عن الفستان..مازحتْني كثيراً ساعتها..حين لمستْ دهشتي قالت لي: أريد أن أحقِّقَ شيئاً في حياتي.. أريدُ أن أكون شيئاً مختلفاً، مثلما كنتُ أتمنى..

أُفشيكم سرَّاً..كانت مؤخراً وحين تأتي إلى زيارتي تبكي بلوعة دون أن أسأَلها السبب..لكن هذه المرة كانت على غير العادة..أمضينا وقتنا في الثرثرة.. كانت كأنها تهذي..ثم تأبَّطتْ أوراقها وغادرتني..على الباب وقفتْ أخذتْ يدي في كفها..نظرتْ إليَّ طويلاً..أرادتْ أن تقول شيئاً..لكنها سكتتْ.. سحبتْ يدَها من كفِّي..كانت ترتجف..همستْ بخفوت : سيدنو الليلُ من فجره..أظنُّه يومي المنشود..وحين استغلق عليَّ فهم ما تفوَّهتْ به قالت : " كاملة..ردِّي بالك من روحك.." وغيَّبها الباب..

قالت أمُّها :

حين أبطأتْ عليَّ تفقَّدتُّها في حجرتها..ظننتُ أنَّها تنكبُّ على أوراقها بعد الغداء مثلَ كل يوم..وجدتُها أمام المرآة تمشط شعرَها على غير عادتها..وحين داهمتُها دسَّتْ خلف ظهرها خصلة قصَّتْها من شعرها..باغتتني بابتسامة غريبة..أحسستُ أن ثمة فكرة طارئة حلَّتْ برأسها.. أجلستْني بجوارها على السرير تضمُّني رائحتُها..أمسكتْ يديِّ الثنتين..عصرتْهما برفق.. مسحتْ وجهي بنظرة لم أعهد حنوِّها من قبل..سألتني عن صحتي..وكيف تسير الأمور في البيت..استغربتُ أسئلتَها التي سالت على لسانها عن جذور أهلي في كاباو وعن سبب نزوح جدي إلى الشرق حتى ظننتُ أنها ستدوِّن ذلك في أوراقها!..ناولتْني رشةً من عطرها..وقفت تحضنني..تشابكتْ دقات قلبينا..وأحسبُ أنّني سمعت نهنهةً متقطعةً منها على كتفي..لم آبه لها.. كانتْ على الدوام قريبة الدمعة..وحين أبعدت جسدَها النحيلَ عني رأيتُ اصفراراً على وجنتيها وحبات عرق دقيقة لمعتْ فوق أنفها..لكنها ابتسمتْ في وجهي..ضمتني ثانيةً..جمعتْ أوراقها وقالت إنها ستزور كاملة التي تفرَّق عنها الجميع..اليوم خميس..وهو موعدها الأسبوعي مع رفيقتها.. ابنتي هي الوحيدة التي ظلَّتْ على وفائها لها !.

وروى والدُها:

الليلة السابقة اقتحمتْ عليَّ المكان..لم تكن كثيرة التردُّد عليَّ في المربوعة بعد صلاة العشاء..أحضرتْ لي شاياً أخضرَ غمرتْه بالنعناع الطازج الذي تعرفُ أنني أحبّه كثيراً..جلستْ في سكون بجواري مثل طفلة..ظلّت

تراقبني وأنا أحتسي الشاي.. اعتقدتُ أنها ستفاتحني في أمرٍ صعب..هي كانت كثيراً ما تستغل هدوءَ حالتي في مثل هذا الوقت..تنحنحتُ قبل أن أُبدي تساؤلي..أردتُها أن تُفضي إليَّ بما يخالجها..ابتسمتُ في وجهها أشجِّعها على الحديث..ماذا هناك يا ابنتي؟..سألتُها..لم تُجب..كان الهدوء يطفح من محياها..لم أرَ ما يشي بشكوى أو تذمُّر في عينيها..بل اتسعتْ عيناها بابتسامة نقية رقراقة مثل ملاك، تنظر إليَّ وأنظر إليها..ثم دار بيننا حديث عن العائلة وتاريخ بعض كبارها المسنِّين..عن جهادهم ضد الطليان..عن مزارعنا البعلية على البحر..عن عملي بالشرطة..عن بيتنا متى تمَّ بناؤه..قضيتُ وقتاً من الليلة أجيب عن أسئلتها التي حطتْ على رأسها فجأة..ثم قبّلتْ رأسي ولثمتْ يدي..وغادرتني..

و(حسبو عيسى تاج السرّ) خفيرُ المقبرة التشادي اعترف أنه كان يراقبها وهي تدخل خلسةً إلى المقبرة مساءَ كل خميس..تبعها بنظره..شكَّ في أمرها أولَ الأمر..ظنَّ أنها تقترف فعلاً له علاقة بالسحر أو الشعوذة التي ملأت رأسَه عن بعض مَن يستعملون القبور لأغراض دنيئة..قرّر أن يرفع أمرَها إلى أصحاب الشأن !..

لكنّه قال في طمأنينة : كنت أرى تلك الفتاةَ مثلَ طيف..عند العصر تدخل من الباب الجانبي الصغير المقابل لصفِّ البيوت..في سكينة تجلس عند قبر معيَّن..تُخرج أوراقاً تقرأ منها..لم أعُدْ أكترث لوجودها..خاصةً أنها كانت تزور قبراً بعينه..تقضي وقتاً قليلاً تقرأ عليه شيئاً..وقفتُ عليه بعد مغادرتها وقرأتُ شاهدَه..حفظتُ مكانَه جيداً..تأكدتُ أنه لم يُنبش ولم تتغيَّر

معالمُ تربته..لم ألحظْ أثراً يدلُّ على أن تلك المرأةَ عبثتْ به..وما زاد في طمأنتي أنها كانت تقول لي عقب كل مرة : صاحبُ هذا القبر دفن شيئاً مني معه..اقرأْ عليه الفاتحة..هو طيب ويستحق ذلك !..تلك القبور تراقبها في صمت..لا أحدَ كان يهتمُّ لزيارتها لها..صرفتُ النظر عما جال بعقلي عنها وعن زيارتها الغريبة !..

وقال الرَّاوي :

منذ ما بعد الظهيرة تنادتْ نسوةُ العائلة من خلف الأبواب..تجمَّع الصغار..تدافعوا على بيت سليمة التي تقيم حفلاً عائلياً بمناسبة إعلان خطبة ابنها الوحيد الذي غادره أبوه رضيعاً..صار شابًّا ستزفُّ إليه عروساً بعد أيام قلائل..

عازة العرجاء ذات الوجه المدوّر جاءت تحملُ فوق رأسها خبزاً تأكل العيونُ منه..وهي قد اشتهرتْ بأشهى خبز تنوّر من بين نساء العائلة..كان يلمع مثل ذهب..لدناً مثلَ رئة نعجة..تعجنه بالكركم وتدسُّ في ثناياه الكمُّون وترشُّ وجنتَه بالجلجلان[1]..

تابعتْها سليمة بنظرها وهي تتخترقُ التجمُّعَ في ثقة..إنها أوفرُ حظّاً منها، فقد عاد إليها زوجُها ليلةَ زواج ابنها الذي تركه يحبو !..

حين أقبلتْ أم كاملة لم تشأ شقَّ الزحام..بل اكتفت بركن قصيٍّ يجعلها في مرمى بصر سليمة التي أقسمتْ عليها أن تحضر الفرح..ستشاركها فرحتَها

---

(١) اللفظة الشعبية للسمسم .

بزواج ابنها لبعض الوقت ثم تغادر المكان..فهي منذ حكاية ابنتها كاملة لم تقوَ على مواجهة أحد..بل لزمت بيتَها وانكفأت على بؤسها..

لكن أم العز لمحتها ترتكن زاوية في ارتباك..تخصف عليها من ورق الحرج فرفعت عقيرتها بـــ(غناوة) مشفَّرة لم تخفَ على أحدٍ من الحاضرات: (افطرتْ يوم في رمضان..ادّاتَه على طول عمرها)[1]..

وقفتْ أم كاملة تشهق..اعترضتها سليمة..لكنها لم تتمكن من إيقافها فغادرتْ..خيَّم الحرجُ..جفلتْ الأعين..عمَّ صمتٌ قطعتْه نزهة من مكانها موجهةً قولَها لام العز :

– مش خير م اللي ما زال ما خلّص دَينه مع ربي لا عند توا يا ام العز..! ظمي حجايجك حرام عليك..كسرتي بخاطر الولية..

كاد ينقلب الفرح إلى هرج وتقاذف بالكلام لولا تدخل سليمة وإرجاع الأمر على ما كان عليه..وأمرت الفتيات بالغناء والرقص من جديد..

يلتفِت الجمعُ إلى سُعدى الهجّالة تسبقها ضحكتُها التي يرتجُّ لها جسدها القافز أمامها..تصرخ النسوة..يحفِّزنها..تنطلق بقفزة صغيرة تعقبها قفزات..تتوسّط الحلقة..وهنَّ ينشدن..تنفرج أساريهنَّ..سليمة تضحك عيناها..يضمحلُّ اضطرابُها..تزداد نشوةٌ تتناغم مع اهتزازات جسد سعدى

---

(١) (غناوة علم) شعبية..وفيها إشارة إلى قضاء صوم كفارة ليوم أفطرته عمداً..وفيها تضمين خفي لما حدث لابنتها كاملة .

الممشوق..ترقص على أنغام شتّاوة لاذت بفم عجوز خبيرة : (جللّي يامَّ عيوناً سود..انشالله في فرحك مردود)!..تجمَّعن حولها..فتنهنّ جسدُها الممزوج بالارتعاش..

تناسلت الأهازيج وتراتيل الطقس الحامية..تعبَّأتْ الأفواه بالزغاريد..ترافقهنَّ شهقاتُ المراهقاتِ الصغيرات..توسَّعت دائرة الرقص..امتلأت بالصبيَّات الصغيرات..لم يطل انتظار أجسادهنّ الغضة..فتنافسن في هزّها..

(الكاباوية) واقفة من بعيد تتأمل نسوةَ العائلة وهنَّ يتدافعن بأجسادهنَّ كالفراشات..من صدغيها يطل بقايا ربيع غزاه شيب تواريه تحت الشال..تحاول الابتعادَ ما استطاعتْ عن مجال رؤية ام العزّ التي ما انفكَّتْ ترمقها بعين نارية كلما وقعتْ عليها عيناها من بين الجمع..

لم تكترث لها لأن قلبَها كان يأكلها على ابنتها التي تأخّرتْ..لقد وعدتْها بزيارة قصيرة لكاملة ثم تلحق بها في منزل سليمة..لكنها لم تأتِ..

أدبر النهار..غربتْ الشمس تاركةً ألوانَ الشفق على مدارج الغيم..هبطت ألسنةُ الحريق على المساحات الزرقاء تنغرزُ في السماء..مختفيةً فيها..مؤذنةً بإقبال ليل جديد..

انتحتْ ركناً بعيداً عن النسوة..اشتعل جوفُها..أطفأتْه بجرعة ماء..استدارت تلهج بالدعاء..لجأت إلى العمة نزهة تستنجد بها من وساوسها التي هاجمتها..أسرَّتْ لها بحديث..تجهَّم وجهُ العجوز..انسلَّت المرأتان تغادران المكان خلسة..

حلَّ الظلام..ولم تأتِ الفتاة..رأت نزهة أن يبلغوا عنها مركز الشرطة..لكن والدَها نصح بالتريِّث قليلاً ريثما تنجلي الأحداث عن غيابها..واستعاض عن ذلك بالسؤال عنها في المستشفى الوحيد..لكنه لم يعثر عليها..

انتشر خبرُ اختفاء الفتاة..وصل إلى تجمُّع النسوة في بيت سليمة..تلبّد الجو..خفتتْ الأصوات..خيّم صمتٌ بشعٌ..لوثَّه فزعٌ فظيع..تهامستْ الشفاه في ما بينها ثم ما لبثتْ أن صارتْ حديثاً واضحاً..رجعتْ المرأتان..يعتريهما حزنٌ وخنوعٌ عظيمان..تحلّقت النسوة حولهما تمطرانها بأسئلتهن الغبية التي لا إجابات عنها..نهرتهنَّ نزهة وفرّقتهنَّ..

– لماذا تتصورن أن أمراً بشعاً حدث؟..لم يحدث شيء..صاحتْ فيهنَّ ..

كلما مرَّ الوقتُ كلما أكل القلقُ الكثيرَ من قلب وعقل والدها..خفَّ معظمُ رجال العائلة للبحث عنها..لم يستطع شعيب ابن عمّه الصبر على الاحتفاظبالخبر..هرع إلى مركز الشطة صحبة ابنه نوح يثبتان واقعةَ اختفاء إحدى بنات العائلة..طرقوا بعضَ من يثقون في كتمان الخبر استنجدوا..سألوا دون جدوى !..

اشتدَّ القلق بنزهة..سحبتْ أم الفتاة من يدها وتركتا المكان..وجدتا الرجالَ في بيتها عند الحاج فرج..اقتحمتْ مجلسَهم..سألتهم..لم تجد لدى أيٍّ منهم جواباً..قالت لهم بلهجةٍ آمرة :

– اذهبوا..تحسَّسوا من ابنتكم..اسألوا رفيقتَها كاملة..هي آخر من رآها كما قالت أمها..

صاح أحدهم :

– يا لَكاملة..ومن يجرُّ الويلات سوى هذه الفتاة ؟!..قال نوح :

– وماذا تفعل عندها ؟!..

أجابته في حدة :

– لنذهب ونسألها عن ابنتنا..لا مجال للحديث الآن عن الفتاة المسكينة..يكفيها ما تعاني..

لم يواجه رأيُ العجوز اعتراضَ أحد..انطلق بعضهم صوب بيت كاملة يتقدمهم والدها..طرقوا بابَها..أجابتهم كاملة مذعورةً أنها كانت تأتي إليها عصر كلِّ خميس..تقضي معها بعض الوقت ثم تتسلّلُ إلى المقبرة من الباب الخلفي القريب من بيتها..بعدها تعود إلى البيت ولا تراها إلا الخميس الموالي..

بدا الليل مخيفاً تلك الليلة..عوت كلاب بالجوار..انطلق الرجال إلى المقبرة..سحب داكنة مركومة من الوجوم تتلبَّد حول وجوههم..طرقوا بابَها العريض..خرج لهم خفيرُها يرتجف رعباً..سألوه عن فتاة دخلت المقبرة..أجابهم أنها جاءت بعد العصر لكنه لم يتأكد إن كانت غادرتْها أم لا..فهي لا تتأخر فيها..صحِبَهم إلى حيث تأتي في نفس الموعد..ودلَّهم على المكان الذي تجلس إليه..

تقدموا نحو القبر..رأوا خيالَ امرأة بجواره وقد انكفأت على وجهها دون حراك..توجّسوا خيفةً..تراجع بعضُهم..تقدم والدُها..وجَّهَ أحدُهم مصباح الموبايل..تفرس في وجهها..عرفها..إنها ابنته وقد فارقت الحياة..لكن خروج روحها لم ينلْ من محيّاها..كأنها تبدو ضاجَّةً بالحياة والكلام..حملوها بينهم..

تناهى الخبر إلى النيابة..انتقل وكيلها نحو المقبرة..أمطر الخفيرَ بعديد الأسئلة..تحفّظ عليه هو الآخر وتحفَّظ على أوراق انصرمتْ بعضُها وتبعثرت على القبور المجاورة..ثم أمر بإحالة الجثة على الطبيب الشرعي قبل أن يأذنَ بدفنها..

خلال أيام المأتم..أخذتْ أم العز على عاتقها نشرَ شائعة مفادُها أن موت الضابطة لا يمكن إلا أن يكون انتحاراً يخفي سرّاً لا يعلمه إلا الله..وأن رفقة فتاة مثل كاملة لا تجرُّ سوى الويل والعار..وكادتْ حملتُها تلك تجد من يقتنع بها لولا أن نزهة تصدَّت لها بحزم..بعد أن زاد الأمرُ عن حدِّه وبلغ مدى مزعجاً لم تتحملْ المزيدَ منه..طلبتْ منها أمام جمع من النسوة أن تكفَّ عن نهش سمعة هذه الفتاة البريئة والنَّيْل من شرف عائلتها..وعليها أن تراجعَ أوراقَ النيابة وتقرير الطبيب الشرعي الذي أكّد على عذرية الفتاة..وأن موتَها لم يكن انتحاراً، بل سكتة قلبية ألَمَّتْ بها خلال زيارتها للمقبرة..

– " كلام المواعيد غالي يا عازة..البنية ماتتْ الله يرحمها..والميّت ما لهْ الا الرحمة..ايش تريدي منها توا ؟! وبعدين الضابطة اللي نازلة في سيرتها عندها اسم..مانكش عارفه اسمها ؟ "..

وقبل أن ترد أم العزْ صاحت فيها نزهة بصوتها الذي شرخه الحزن :

– " انطمري..والا اطلعي م العزاء..عدِّي دوّري وين تكذبي " !..

(٤٧)

هدى في مصر يصحبها ويسحبها أخوها عقيلة..تحصّلا على شقة صغيرة بحي المنشية..دلَّهما عليها سائق الأجرة الذي أقلّهما من مطار برج العرب.. سألاه عن مكان قريب من الحي الجامعي..فاختار لهما هذه الشقة..ليس بعيداً عن حي الأزاريطة الذي تقع به كليات جامعة الإسكندرية..

خرج عقيلة في جولة قصيرة عبر حي المنشية الذي علم من السائق أن كثيراً من الليبيين يقصدونه..فيما قضت هدى ما بقي من نهار في الشقة تراجع أوراقَها وتطالع بعضَ نظم الدراسة في الجامعات المصرية..ولم يكن يهمها سوى رؤية حبة القلب محمَود فاضل الذي يصارع المرض وهو على بعد (فركة كعب) منها..فهي لم تستمتع بالرحلة بالطيَّارة التي كانت تمنِّي نفسَها منذ صغرها بالسفر بها إلى آخر العالم وتذوق أطباقَ الطعام التي تُقدَّم للمسافرين ظلَّتْ واجمةً على مقعدها..لم تأكل شيئاً مما قُدِّم إليها خلال الرحلة..ولم تفكَّ حزامَ الأمان منذ أن ربطتْه حتى حطَّت الطيارة..

اغتسلتْ..أعدّتْ فنجان قهوة..أخرجتْ الرواية تتصفَّحها دون تركيز.. كانت تفكّر في طريقة ترى فيها محمود..كيف ستتمكّنْ من مراوغة عقيلة الذي أحسَّتْ أنه سيستعرض عليها رجولته بحرفية عالية..لم تغادرْها عيناه

منذ خروجها من البيت..كانت كلما أرادت أن تستفسر من أحدٍ عن شيءٍ أو عن دورة مياهٍ يسبقها إليه عقيلة ويستلم الجوابَ قبلها..حتى في السيارة التي جاءت بهما إلى المنشية..كان يتلقّف هو السؤالَ من فمها ويوجهه نيابةً عنها..

ماذا ستفعل بـــ(سي السيد) هذا الذي ابتُليتْ برفقته!؟..الموضوع ليس موضوع جامعة وتسجيل وتقديم أوراق..الموضوع يحمل من الخصوصية ما لا يستطيع طرفٌ آخر معرفتُه..لكنّها حزمتْ أمرَها على رؤية محمود..ولن تعوزَها الحيلة..

في الصباح..غيّرتْ ملابسها..أعدّتْ الإفطار وأصرّت على إيقاظ عقيلة مبكراً..وقفت فوق رأسه توقظه في إصرار..تململ عقيلة في فراشه..نظر إلى الساعة وجد عقاربها عند الساعة السابعة..تذمّر..التفَّ في اللحاف..غير وجهته على السرير..لكنّها لم تغادر غرفتَه..صارت تهزه وتصيح فيه أن يستيقظ..حتى استوى جالساً على السرير..نظر إليها بعينين محمرّتين..أشار إلى الساعة..قال في تذمُّر :

– الساعة كم توا ؟!

– سبعة..هيا نمشوا..وقت !..

– وين تبينا نمشوا في هالفجر ؟!

– للجامعة..

– وفيه جامعة هالوقت ؟!

– احنا مش جايين لمصر نتفسّحوا والا نرقدوا !..قدامنا مشوار للجامعة..هيا نوض..الفطور واتي..

– باهي خلليني نرقد اشوية..

– امالا ارقد..تو نمشي بروحي..

هبَّ واقفاً كالمسوع..رماها بنظرة حادّة..تناول منشفةً رماها على كتفه ودلف إلى الحمّام يترنَّح ويبرطم بكلمات لم تفهمها..

في الجامعة تطلّبت الإجراءات وقتاً طويلاً..ظلَّا يتنقَّلان من مكتب لمكتب..ومن موظف أحاله موظفٌ آخر إلى آخر..وخروج لتصوير مستند وورقة..وقبل ذلك أوامر بتصديق بعض الأوراق في القنصلية ومراسلات خاصة..ولم يرجعا إلى الشقة إلى بعد الظهر..كلُّ هذا ولم ينجزا الكثير.. وسيعودان في الغد..

فيما تهيأتْ هدى لإعداد الغداء..ارتمى عقيلة على سريره..ولم تمرّ دقائق حتى راح يغطُّ في نوم عميق..أخرجتْ الرواية تطالعها..بحثتْ في الموبايل عن صورة قديمة لمحمود..لكنها تذكّرتْ أنها مسحتْ كلَّ ما له صلة به منذ تلك العاصفة الهوجاء التي كنستْ جميع ما بينهما من رسائل وتواصل وعلائق حميمة..أعادت البحثَ في الجهاز عن طريقة لإعادة المحذوفات لكنها أخفقتْ في استعادتها..تناولتْ ورقةً دوّنتْ عليها أسماء بعض المراجع والكتب التي يمكن شراؤها من مصر..ثم خطر عليها أن تزعج هذا الحارسَ الذي علا شخيرُه في الحجرة المجاورة..كان ذلك ضمن خطة اتفقت فيها مع رأسها الليلة الماضية !..

ولجتْ غرفةَ أخيها..هزّتْ بدنَه المدلوق على السرير..ضايقته بمناداتها.. تململ..مطَّ ذراعيه..فرك عينيه..حدجها باستياء.. قالت في نبرة عاتبة :

– اِنتَ جيت معاي بيش ترقد واتسيِّبني بروحي !..رماها بنظرة متسائلة..

– الجامعة ومشيناالها..والقنصلية بكرة موعدنا معاها..الشقة فيها كل شي..شن تبي أخرى ؟!..

– هيا نوض..الغداء جاهز..نتغدوا ونمشوا جولة صغيرة ع المكتبات..

– وانا ايش مالي ومال المكتبات ؟!.

– لازم تمشي معاي..ضروري انشوف كم مكتبة..

– ضروري اليوم؟!

– باهي بلاش المكتبات اليوم..هيا نطلع جولة اصغيّرة ع الكورنيش..الراجل اللي أمس قال الكورنيش قريّب منا مش بعيد..

اتجه للحمام في صمت..غسل وجهَه..وجلس على حافة السرير..ناولته كوبَ شاي أعدّته..وغابت في المطبخ تضع الغداء..

وصار على عقيلة أن يتحمَّل على مضض مشاويرَ أخته هدى التي لا تنتهي..على أن أكثرُ ما يثير تبرُّمَه هو مرافقته لها لمكتبة الإسكندرية..حيث يرين على المكان صمتٌ يبتلع صخب الإسكندرية وضجيجها..يقضي ساعاتٍ طويلةً بذلك المبنى الشامخ المليء بأنواع من البشر كأنهم أشباح..في انتظار انتهائها من مطالعة الكتب أو تجوالها بين الأرفف من طابق إلى طابق، أو تصوير بعض الصفحات من بعض الكتب..وهذا ما كان يحرمه من التحدُّث لأحد أو إشعال سيجارة أو حتى مغادرة المبنى..

بصبر كانت هدى ترصد تراخي قبضة الحارس شيئاً فشيئاً..وتململَه من هذه الرحلات اليومية وتذمُّره منها..لكنها لم تتوقف يوماً عن زيارة مكتبة

الإسكندرية..خاصَّةً وأنها قريبة من حي المنشية الذي تقع فيه شقتهما..حيث كانا يقطعان المسافة سيراً على الأقدام..

وتوالى تردّدُها على المكتبة صباحَ مساء..بحجة تصوير بعض من الصفحات التي تختارها من أرفف قسم التاريخ..وقد عرضت عليه ذات مساء أن يغتنمَ زيارتَه لمصر ويزور طبيبَ أسنان لعلاج وتقويم بعضِ أسنانه التي يشكو منها..وأبدتْ استعدادَها لدفع التكاليف كاملة..

راقتْ الفكرة له..واصطحبها لأقرب عيادة أسنان بحي المنشية..ثم جعل يتردّدُ على العيادة بشكل منتظم..لكنه لم يتخلّف عن مرافقة أخته للمكتبة كلَّ يوم..إلى أن بلغ به الملل مبلغه ولم يعُد يطيق مجاراتها والمكوث كحجر في ذلك المبنى الصامت الذي يشبه المقبرة..فسألها إن كانت تستطيع الذهاب بمفردها للمكتبة..فأظهرتْ له بعضَ تمنُّع لكنها وافقتْ على مضض وأبدتْ قدرتَها على الذهاب بمفردها للمكتبة دون عناء..واتفق معها أن تتركه نائماً في هدوء وتذهب لمكتبتها على أن ترجع قبل الظهر..وهكذا كان..

وحين اطمأنت لخطتها التي نفّذتها بطول أناة بدأت تحضِّر لتنفيذها..عليها إيجاد محمود ورؤيته عن قرب..فقد أضاعتْه مراتٍ كثيرة..إنه في مكان ما من ذاكرتها..كانتْ تستعيد ذكراه كلَّ ليلة منذ مجيئها لمصر حين كانت تعيد قراءةَ روايته كلما فرغتْ منها..وبقدر ما اجتاحها من حنين لرؤيته كانت متخوفة من لقائه..ما زالت عالقة في ذلك التاريخ..ما زالت تبكيه في كل قصة حبّ قرأتها..في كل نظرة إلى السماء..في كل دعاء..ها هو عمرٌ من الشقاء والانتظار يمتدُّ بين أيامها الجميلة معه وذكراها.. عادتْ كلماتُ

روايته لتبكيها من جديد بالرغم مما يفصل جملُ روايته من بعد كبعد المشرق والمغرب..

ووجدتْها سانحةً للزيارة المنشودة..كان ذلك حين ذهب عقيلة إلى العيادة لخلع بعض أسنانه وأخذ قياس تركيبات جديدة..عرفتْ أنه سيعود للشقة متعباً وقد أثر فيه الألم بعد انزياح أثر البنج..وسيضطر للِّجوء إلى المسكِّن ثم النوم..

مرَّتْ تلك الليلة ثقيلة..صباحاً أخذتْ طريقَها إليه..لم تضيّع الفرصة..أوقفت أول تاكسي أوصلها إلى مستشفى (السرايا) بحي سموحة.

تلكأتْ خطواتُها..بصعوبة قادتها نحو بهو الاستقبال..تلقّتها الموظفة بابتسامة مهذّبة..سألتها برفق:

– تفضلي..كيف أخدمك ؟..

قالت وقد تملّكتها جرأة :

– أبحث عن مريض ينزل عندكم اسمه محمود فاضل..

– الدور الثالث..حجرة ٢٨ ..

قادتها إحدى الممرضات إلى حجرته وغادرتها متسمّرة عند الباب..خافتْ..بدأ قلبها يتنهّد بوجل ودقّاته تتسارع..اشرأبَّ عنُقها..مدَّته داخلَ الحجرة حطَّتْ عيناها على محمود مسجّى على السرير والموت مسجّى بجواره..لم تقاوم رغبةً باغتتها.. تقدَّمتْ نحوه يضمُّها وقارُه بالرغم من أثر المرض..مرَّتْ لحظات واقفةً تبكي إلى جانبه..لم تبكِ بكاءً موجعاً منذ زمن طويل..

– صباح الخير يا سيدي..هل أنت بخير؟..أمَّا أنا فلستُ بخير..هذه الأنا يا سيدي ليست شيئاً من دونك..

أيُعقل أن تكون هي مرةً أخرى ؟..ألم يفترقا منذ زمن وطوى النسيان صفحتَهما؟..ألم يحزنْ عند فراقها ويبكي يوم زفافها؟..ألم يُشفق عليه الألم حينها فوضع حدّاً لمحنته وعذاباته؟..

الصوت يكرّر تلاوةَ اسمه..فاح عطرٌ لم تخطئه ذاكرةُ أنفه..فتح عينيه ناظراً في الفراغ..كمن يبحث في ذاكرته..أرجعَ بصرَه إليها..ظل يتمتم :

– يشغلني ذلك الصوتُ..أنتظر قدومَه كلَّ ليلة..يغادرني حتى أعودَ لانتظار عودته..ليلةً بعد ليلة أمسى عالمي..لكن اللوحة موحشة..والأضواء قد انطفأتْ !.

– بماذا تتمتم ؟..سألتْ في خفوت ..

لم يجب..نهض يسحب جسدَه مستجيباً ليدها تمتدُّ تساعده..أطال تأمُّلَ وجهها..عيناه تبحثان فيها عن شيء..تحركت ملامحُ وجهه بابتسامة سرعان ما تداعتْ..اكتفى بهز رأسه..تلفَّتتْ حولها..

– أتسمعني ؟..قالت له..بم تشعر ؟..

–Fantastic..جاءها صوتُه متعباً بالرغم من نبرة الظرف التي افتعلها..

– أتوسَّل إليك أن تسمعَني..

أضاف ساخراً ..

–لا أشعر بشيء..أنا حيٌّ..ولا يدَ لي في ذلك!..

– هل تتألم ؟..التفت إليها هازّاً رأسه..نظراتُه تائهة وعيناه غائرتان..

– تألَّمتُ بما فيه الكفاية..لعلَّ الوقتُ حان لأرتاح..

تقترب منه..تحاصره بلهفتها..بشوقها..تتعمَّد خفضَ صوتها..

– محمود .. قالت في خشوع ..

– ميسون !! ..ردَّ بذات النبرة ..

أثارها الاسم..نفثتْ زفرة حادَّة :

– أنا هدى منصور..لستُ ميسون..أعرف أن أمينة أفشتْ سري..وستعرف سرَّ ما كان بيننا من قطيعة..تلك حادثة ما زالت جُرحاً في ذاكرتي..

حرَّك رأسَه يتأملها مجدَّداً..

تناولتْ كفَّه تقبِّلها..اكتسحتْ وجهَه ابتسامةٌ عريضة..شعرتْ بأنه تخلّص من إحباطه، وأن أفكاراً قد حلَّتْ عقلَه..فضَّلتْ أن يستمر بذلك الشعور وأن تستمر ابتسامتُه وشعورُه بقدرته على الخروج من عجزه.

قال بصوت واهن :

– كنتُ أدعو اللهَ فاستجاب لي !..

لم تفهم ما يعنيه ولا بتلك التغيُّرات على صوته وملامحه..لكنّها قالت له بلهجة واثقة :

– أعرف أنك تبحث عن خيط يوصلُك بأمسك..بينما أنا أبحث عن طريق يأخذني بعيداً عن أمسي..ذاك ما ظلَّ يؤرقني..أتيتُ لأقولَ لك إني ناقصة بدونك..أعلمُ أنك لستَ مِلكي الآن..لكنك هدفي..اِفعل ما تريد..

لكن لا تسمح لك هدى منصور بنسيانها..أعرف مدى اللوعة التي يحدثها الفراق..

– لقد تجاوزتُ لوعة الفراق..إلى لوعة النسيان يا سيدتي !..

– لكنَّ هدى منصور ستغيِّر حياتَها من أجلك..ستفعل كلَّ شيء..هذا وعدٌ لك من هذه اللحظة..فقط لا تنسَني..

ظلَّ ينظر إليها في سكينة..أدركتْ أنها لم تُقنعه كما ينبغي..لكنها قررتْ ان تتحدث إلى عينيه..قالت في استسلام:

– أعترف أني قطعتُ وعوداً كثيرةً عدتُ منها ناكثةً في لحظة واحدة..لكن الآن ليس لي حقٌّ بشيء سوى.....

قاطعها..أشار إليها أن تسكت، وقال في هدوء :

– تمنَّيتُ أن أرى أحداً من أهلي قبل أن أموت، فإذا بي أرى فيكِ كلَّ أهلي..إنك بجواري..ألفظُ أنفاسيَ الأخيرةَ وأنا بين يديك وأنظرُ إليك..هذه كانت أمنيتي الأخيرة وكلُّ ما أريده في الحياة..ولم أتغيَّر إلى يومي هذا..ما زلتُ أحبُّك على طريقة البحر كما تقول الجزائرية فضيلة الفاروق.وهذا الحبُّ لن يتكرَّر..

سالتْ دموعُها دفعةً واحدة..اقتربت أكثر..قالت بصوت يغمره فرحٌ عارم:

– الحمد لله أني ما زلت في ذاكرتك..لم أغادرْها..

– الأحبابُ يجوبون ممرات الذاكرة ولا يغادرونها..يتراكضون خلالها كالفراشات..يعبرون لحظاتنا دون استئذان..يفوحون كلما انتشر عطرهُم..

– أشكرك سيدي..لقد أمطرتَ قلبي فرحاً لا قِبلَ لي به..أنتَ أيضاً لم تدَعْني أحبُّ سواك..أو أتنفَّس غيرَ أنفاسك..أو أشتمّ غيرَ عطرك..لم تدَعْ قلبي ينبض إلا من أجلك لو تعلم..ولا تدق نبضاته بغير اسمك..اطمئن..

– وهذا بابي يا حبّة القلب ياهدى..لا يُغلقُ إلا عليك..

تحشرج صوتُه..أطبقَ جفنيه..ارتجفتْ ذراعاه..انطفأ كل شيء إلا ابتسامة راضية علقتْ في فمه وهو ينطق بالشهادتين..صمت ثم بدأتْ أنفاسُه تتسارع..

شهقتْ..كادتْ تسقط من طولها..لكنها تماسكت وركضتْ مجفلة تستنجد بالممرضة المناوبة التي جاءت مسرعة..أخذت تجسُّ رسغَ محمود..تضع أصابعَها على عنقه..فتحتْ إحدى عينيه..التفتت إلى هدى تبتسم بهدوء :

– ما زال حياً لم يمُت..هو في غيبوبة..هكذا هو..كلما أحسَّ بدنوِّها منه نطق بالشهادتين واستسلم لها..

– هل سيعيش ؟..قالت تستعطفها..

– الأعمار بيد الله..سأستدعي الطبيب..دعيه يرتاح عودي إليه لاحقاً إن شئتِ..

غادرتْ المستشفى لتقضي ليلة مزعجة في انتظار زيارته في الغد..

استيقظ عقيلة عند العاشرة..غسل وجهَه ثم دلف إلى المطبخ..وجد أن هدى قد أعدَّتْ الإفطار وغادرت كعادتها إلى مكتبة الإسكندرية..غادر

بعدها الشقة صوبَ مكتب الطيران لتأكيد حجزَ تذكرة العودة لأرض الوطن بعد أن اتفق مع شقيقته البارحة على مغادرة مصر في أقرب رحلة..

وجدتْه ينتظرها في الحجرة قبل حضورها بوقت كافٍ..كان في أحسن حالاته..حليقَ الذقن مرتَّبَ الهندام..نورُ العافية ينبعث من خديه ووجنتيه.. وعيناه استعادتا بريقهَما المألوف..وابتسامة ساحرة تقطر عذوبةً تطيح بقلبها..اختارت ركناً لائقاً لباقة الورد التي جلبتها له..جذبت كرسياً.. جلستْ بجواره تضوعُ منها أصورةُ عطرِها الأثير الذي اعتاده أنف محمود.. قالت في جذل :

– حسناً محمود..لعلك تذكر أمينة صديقتي التي كانت تأتي معي أحياناً لزيارتك..سأروي لك تفاصيلَ تلك الحادثة المؤلمة..ولكن دعنا من الأحاديث القائمة الآن..وأجب عن أسئلتي المفتوحة..مَنْ هذه الأخرى التي أهديتها روايتَك الجديدة ؟!

– هل تحققين معي ؟..

– ليكن كذلك..هيا أجب عن سؤالي..

– صديقة..

– إن الصداقة هي الخطوة الأولى نحو الحب..لكنها آخر خطوة بينهما.. أليس هذا ما كنتَ تقوله لي ؟!هل وقعتَ دون أن تسمِّي الله في ملكوتِ عينيها ؟..

– الحبُّ ليس كالصداقة..حتى وإن بدا كذلك !..الصداقة تحتوي على كثيرٍ من القواعد..

– والحب لا قواعدَ له !..

– تمام..

– هل أنتَ نادم على أيامك معي لتفتح غرفةً أخرى من قلبك؟

– من قال إني نادم..لكن في قلب كلٍّ منَّا غرفةً لا نحاول طرْقَها حتى لا ننكأ الجراحَ فنتألم ..

– وماذا عن الماضي ؟..

– هذا الماضي الذي يحكمنا..إنه كلُّ ما حولنا من أشياء نحيط أنفسَنا بها..إنه ما نلمسه وما نلبسه وما نحتفظ به..إنه ما لا ينفع لشيء ونرفض أن نُلقي به..

– وأين هي صديقتُك الجديدة من ذلك الماضي؟!

– وودتُ لو أضفتُها إلى الماضي الذي ولّى من عمري..حتماً سيكون الماضي معها جميلاً أيضاً..لا أحدَ يحاكمنا على ما يختلج في دواخلنا..

تفضلي يا ست..المستشفى ..

قالها سائقُ سيارة الأجرة التي تقلّها وهو يتوقف قبالة المستشفى..انتبهت هدى وعادت إلى طبيعتها بعد هذا الحوار الذي كان يدور في رأسها خلال المسافة إلى محمود..

تمتمت بينها وبين نفسها : " لا أحدَ أكثرَ شقاءً وسعادة في وقت واحدٍ من امرأةٍ غارقةٍ في الحبّ "..

ترجّلتْ من السيارة..عرّجتْ على كشك يبيع الزهور عند ناصية المستشفى..ابتاعتْ باقةً تليق بحجم لقائها المرتقب..أنفاسها تداعبها باسمه..

من المصعد توجهتْ مباشرةً إلى الحجرة ٢٨ بالدور الثالث ..

دخلتْ..وكان ثمة رجفة بالقلب..نظرتْ حولها في الغرفة الفسيحة..وجدتْ السريرَ شاغراً ومرتَّباً..أين محمود؟..اكتنفها هلع مخيف..تركت الحجرةَ..وقفت أمامها تستنجد بمن تسأله..هرولت نحو حجرة الممرضات بآخر الممر..سألت إحداهنَّ..

- البقية في حياتك..

- ولكن كيف ؟!..لقد كان حيًّا..تركتُه حيًّا !..

- البارحة ساءتْ حالتُه أكثر..الأطباء بذلوا جهدهم..لكن الأجلَ كان أسبقَ منهم إليه..

بقيت واقفةً مذهولة..خنقتها الكلمات..عجزتْ عن البكاء والحركة..انهارت على أول مقعد..

مرَّ وقتٌ غير قصير..قبل أن يرن هاتف عقيلة في الشقة الذي كان يأكله القلق على أخته التي تأخَّرتْ هذه المرة على غير عادتها..التقطه في لهفة سمع صوتاً غيرَ صوت أخته :

- هل أنتَ عقيلة ؟

- نعم أنا هو..مَنْ معي ؟..

– من مستشفى(السرايا) سموحة..

– مستشفى !!..خيراً ..

– أختك هدى أصيبتْ بتشنّج قبل قليل وأغمي عليها..لكنها الآن بخير..خذ كلِّمْها..

تناهى إليه صوتُ أخته مشروخاً مبلولاً بالقهر ..

– عقيلة ..

– هدى..وينك ؟..شن صارلك؟..

– انا اكويسة..خوذ تاكسي وتعال للمستشفى روَّح بيَّا..

– كنَّك في المستشفى ؟..شنو فيه؟

– تعال بس..تو انْخبَّرك..

تمت،،،